مطبوعات المجمع العلمي العراقي

الشعر في بغداد

حتى نهاية القرن الثالث الهجري

الدكتور
أحمد عبد الستار الجواري



مطبعة المجمع العلمي العراقي
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

الطبعة الثانية

١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م

تقديم

الدكتور صالح احمد العلي

ترجع علاقتي الاخوية والفكرية بفقيد المجمع الدكتور احمد عبدالستار الجواري الى اكثر من نصف قرن بدأت بزمالتنا في الدراسة بدار المعلمين العالية ، وظلت وثيقة صافية لا يهزها انقطاع ولا يشوبها كدر ؛ احتفظ طوالها بتميزه بالاعتزاز بالعروبة والاعتداد بها ، والايمان المخلص العميق بالاسلام ومبادئه القويمة ؛ وكان مؤمناً بان العروبة والاسلام متلاحمان في النظرية والتطبيق ، وهما عماد المجتمع السليم المنشود في الأعمال والغايات ؛ فكانا اساس تكوينه وكيانه ، لم يحد عنهما قولاً وعملاً ، يعززهما فيه عمق في التفكير ، وحس سليم في النفاذ الى الجوهر وعزله عما قد يلامسه من مبالغات وتهويلات مشوهة قد تحرفه عن المسار الصحيح ، ومما عمق ذلك في نفسه ويسر له تنفيذه وضوح في الرؤية ، واستقامة في التصرف ، وصراحة في القول والتعبير اكسبته الاحترام والتقدير حتى عند من قد يضيق صدرهم بها او لا تحقق رغباتهم الناشزة .

عاش الفقيد الدكتور احمد عبدالستار متصلاً بالحياة، متابعاً لاحداثها، مشاركاً فيها ، وعاملاً على توجيهها نحو ما يراه المؤمن بالخير والحريص على المصلحة العامة ؛ فكان حريصاً على الاستزادة من اصدقائه وعلى توطيد علاقاته بهم ، فكان يتابع احوالهم ، ويعين ما استطاع على تذليل ما قد يلقونه

من مصاعب ، وتخفيف ما قد يعانونه من آلام دون ان يحيد عن مثله العليا في الصدق والاستقامة وخدمة المصلحة العامة .

ولم تقتصر علاقاته الشخصية على اخوانه وعارفيه في العراق ، وانما امتدت الى رجال من سائر اقطار الوطن العربي ممن عرفوا باعتزازهم بالعروبة وتمسكهم بالاسلام ومبادئه من اهل الفكر ومتابعي المعرفة والحرص على الاستزادة منها ، والعمل على خدمة الامة وتوجيه ابنائها نحو الخير والعمل المثمر .

ان هذه السجايا الحميدة التي كوّنت شخصية الدكتور احمد عبدالستار عززت حبه للقراءة والاستزادة من المعرفة ، فلم يقصر دراسته في الكليات على سماع المحاضرات وقراءة الكتب المقررة ، وانما مدّها الى آفاقها الاوسع ، فتابع الدراسة ، وكان من ثمارها الاولى رسالته في الحب العذري التي اجيز بها لشهادة الماجستير ، ثم رسالته « عن الشعر في بغداد » التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة .

واختياره « الشعر في بغداد في العصر العباسي » مظهر لتوجهات فكرية تعبر عن تعدد جوانب ثقافته ، هما اهتمامه بالشعر ، وتقديره لبغداد فاما اهتمامه بالشعر فانه يعبر عن ذوقه الفني ، وتقديره للاحساسات البشرية ، ويضيف جانباً جديداً الى ما عرف عنه من عنايته باللغة العربية في مفرداتها ونحوها وصرفها ، وتبحره في كل ذلك .

واما حصره البحث في بغداد في العصر العباسي فلا يرجع الى الاقليمية الضيقة التي كان بعيداً عنها ، وانما يرجع الى ان بغداد سرعان ما اصبحت بعد انشائها مركز الفكر العربي ، وموئل العباقرة المبدعين ، وموطن الفكر الحر باوسع آفاقه وتنوعه ، فلم تكن الحركة الفكرية فيها اقليمية ضيقة ، وانما كانت عربية اسلامية باوسع نطاقها وارحب ميادينها ، يتوجه الفكر

فيها نحو العالمية ويستهدف الخلود ؛ وبهذا كان اسهامها الواسع في الفكر الذي اكتسب تقدير العالم الاسلامي الواسع الارجاء ، وكان له الاثر الاكبر في توجيه الفكر في ذلك العالم الرحب ابان القرون الاسلامية الاولى • فدراسة الشعر في بغداد في العصر العباسي الاول ، شأنه شأن فروع المعرفة الاخرى ، هو دراسة اصل اساسي للفكر العربي الاسلامي وكشف توجهاته الانسانية الواسعة ، وبيان اسس عالمية هذا الفكر •

وكان المجمع العلمي العراقي قد عنى بدراسة بغداد وما يتصل بها ، ونشر عنها عدداً من الكتب المؤلفة والمترجمة ، ولم يغفل الاهتمام بالشعر في بغداد ، فنشر عنه كتابا للاستاذ جمال الالوسي ، ولكن ذلك الكتاب على قيمته ، لا يغني عن اعادة نشر كتاب الدكتور احمد عبدالستار الجواري الذي يتميز بغزارة المعلومات ، ودقة الملاحظات ، وتوضيح مجرى التيارات ؛ وهو كتاب نفد من السوق منذ امد طويل ، ولم تبق منه غير نسخ نادرة ؛ فاعادة نشره هو ييسر للمعنيين الافادة منه، وفيه متابعة لخطة المجمع في العناية ببغداد ، ووفاء لعضو اسهم في الاعمال المجمعية في الوطن العربي ، وخص المجمع العلمي ببغداد بعناية خاصة حيث كان عضواً فيه منذ اعادة تأسيسه ، وكرس وقته وجهده وخبرته وعلمه في انماء اسهامه في دراسة ما يتصل بالفكر العربي والحضارة الاسلامية •

لقد كان الفقيد احمد عبدالستار ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ اسكنه الله فسيح جناته وجعله في عداد من هم احياء عند ربهم يرزقون ، والباقيات الصالحات خير" عند ربك ثواباً وخير" أملاً •

صالح احمد العلي

كلمة المؤلف

يعود الفضل الأول في انجاز هذا البحث الى الأستاذ الجليل أحمد الشايب ، الذي رعى المؤلف في مراحل دراسته في كلية الآداب بجامعة القاهرة خير رعاية ، وأولاه من حدبه وعطفه مالا يوفيه البيان ولا يقوم به التعبير ، واخذ بيده سبيل هذا البحث الواسع المتشعب حتى وفقه الله الى اخراج هذا الكتاب ، فاليه من المؤلف تحية الولد البار المقر بالاحسان المعترف بالجميل .

والى الأستاذ الكبير الدكتور ابراهيم سلامة الذي أشرف على البحث في مراحل نضجه واستوائه فكان خير مرشد وأهدى دليل .

والى اللجنة التي فحصته ، وأرشدت مؤلفه الى ما بدا لها أنه الصواب ، واعانته مخلصة على العمل العلمي الخالص لوجه الحق واعني بهم الاساتذة الأفاضل حسين كامل سليم وكيل جامعة القاهرة سابقا والأستاذ مصطفى السقا والأستاذ عبد الوهاب حمودة والدكتور شوقي ضيف .

مد الله في اعمارهم ، واضفى عليهم ثوب العافية ، وجعل منهم أئمة يهدون الى الحق ويعينون عليه .

المؤلف

مدخـــــل

الشعراء في بغـــداد

حتى نهاية القرن الثالث



لعل هذا الطراز من البحث جديد على الدراسات الجامعية العليا ، اتجهت اليه كلية الآداب بعد ان اختبرت ضروبا اخرى من الابحاث ، كانت تقوم على دراسة الشخصيات الادبية ومكانها من تاريخ الادب ، او دراسة الفنون الادبية في الشعر والنثر ومسايرتها في النشأة والتطور ، او دراسة البيئات العامة وما اصطبغ به من خصائص وما تميز به من مزايا .

— ١ —

ولعل هذا النهج الجديد من الدرس في الادب العربي القديم اجـدى على البحث الجامعي وادنى الى طبيعة البحث العلمي واجدر ان يخرج به الدارس الى نتائج قيمة خطيرة .

ذلك لان دراسة الشخصيات تقتضي الباحث ان يتبين مكانها من التاريخ، وان يصلها بما سبقها فأثر فيها ، وبما لحقها فتأثر بها ، وما احاطها فأثّر فيها وتأثر بها وكل ذلك يعني بالضرورة ان يتجه البحث اساسا الى البيئـة الادبية الخاصة .

اما البيئات العامة فلم يكن معناها ملحوظا في وضوح ، او مقررا مفهوما في تلك العصور،وانما نحن نفرض مفهومها في كثير من الاحيان على الدراسة والبحث ، نستوحي ذلك المفهوم من ظروف حياتنا الحاضرة ، ونستلهمه مـن

التقسيم الجغرافي الذي نعرفه اليوم وهو تقسيم املته عوامل ومؤثرات ليست كلها طبيعية ، بل ليس اكثرها كذلك ، بل لعل كثيراً منها مصطنع مقصـــود قضت به ارادة اجنبية معروفة غاياتها ، مفهومة اغراضها ووسائلها •

واما دراسة الفنون الادبية فانها تغفل في غالب الاحيان دراسة البيئـة وآثارها الخطيرة في الادب دراسة تناسب تلك الخطورة ، وتتجاوز عن وصل الادب بشخصيات منشئية ، وعن تكوين تلك الشخصيات وعناصره ومؤثراته •

ولعل دراسة البيئات الخاصة اقرب الى الكمال ، وابعد عن المآخذ التي وصفنا ؛ ذلك لان على الباحث ان يجمع فيها بين دراسة البيئة المحدودة الواضحة المعالم وعلاقتها بشخصيات الادباء والشعراء ، وما احدثت في الفنون الادبية من تطور وما انشأت فيها من تجديد • واهم من ذلك واخطر ان دراسة البيئة الخاصة بعيدة ـ الى مدى بعيد ـ عن تحكم المفاهيم المعاصرة التى تفرض على الواقع التاريخي ما لم يكن مفهوما فيه ، كهذا التقسيم الجغرافي المصطنع الذي تعيش فيه بلادنا العربية اليوم • واذا اضفنا الى ذلك ان البيئة الخاصة محدودة بالحدود الطبيعية واضحة المعالم في التكوين الاجتماعي ادركنا انها ايسر على البحث العلمي المتعمق واكثر ضمانا للحكم الصادق الدقيق والنتائج القريبـة من التحقيق •

ـ ٢ ـ

وليس البحث في تاريخ بغداد بالجديد الذي يطرق لأول مرة ، وانما هو في الواقع وصل لسلسلة من المباحث في تاريخ هذا البلد بدأت منذ قرون • واول ما نعرف من تلك المباحث تاريخ بغداد لأحمد بن ابي طاهر الملقب بطيفور ولم يصل الينا منه الا جزؤه السادس [1] • وهذا الجزء يبحث في عصر المأمون ويعنى بشخصية هذا الخليفة وألوان الحياة في عصره خاصة •

---

(١) اعتمدت من هذا الكتاب على الطبعة الاوربية . واليها الاشـــارة في اثناء البحث .

وثاني هذه المباحث تاريخ بغداد للحافظ ابي بكر الخطيب البغدادي ؛ وقد صدر الخطيب كتابه هذا بنبذة تاريخية عن بغداد وتسميتها وانشائها ، وطرف من اخلاق اهلها وطبائعهم وعاداتهم ، ثم قفى على ذلك بالترجمة لمحدثيها وحفاظها وعلمائها ، لان الرجل كان من المحدثين فغلب عليه ذلك ، وجعله اكبر همه في كتابه [٢] .

وكتب بعض المعاصرين من المستشرقين في تاريخ بغداد وعنوا بدراسة خططها عناية خاصة فعل المستشرق جي لسترنج Guay Le Strange الذي وضع في خطط بغداد كتابه المعنون « بغداد ايام الخلافة العباسية » Baghdad During the Abbasid Caliphate وقد ترجمه الى العربية السيد بشير يوسف فرنسيس من امناء المتحف العراقي في بغداد وطبعه فيها سنة ١٩٣٨ .

وكتب بعض الافاضل من الباحثين عن بغداد مقالات وبحوثا ووضعوا لها تخطيطات تبين مواقعها المهمة ، كالمرحوم الاستاذ يوسف غنيمة والدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة وغيرهم .

اما دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية في بغداد فلم يكد يخلو منها كتاب يعرض لدراسة التاريخ العربي الاسلامي في العصور العباسية . واحسب ان عمدة ما في هذا الباب كتاب « ضحى الاسلام » لاستاذنا المرحوم الدكتور احمد امين فهو وحده الذي استقل بالبحث في الحياة الاجتماعية والعقلية بحثا علميا لايعرف له نظير فيما كتب بالعربية حتى اليوم .

واما الحياة الادبية فنحن لا نعرف احدا من القدماء والمحدثين اخذ نفسه

---

(٢) لاعرف لهذا الكتاب الا طبعة واحدة تمت في مصر .

بدراستها والبحث فيها بحثاً يصح أن يرجع اليه امثالنا من الدارسين ليجدوا فيه سنداً يستندون اليه في خوض هذه المباحث •

وعمدة ما في هذا الباب من الدراسة ما يتناثر في موسوعات الاقدمين من تراجم الشعراء واخبارهم ، ودواوين اولئك الشعراء وما كتب عنهم مؤرخو الشعر ونقاده • ولعل هذه المصادر واروها لغلة الباحث كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني[٣] •

— ٣ —

وقد كان من توفيق الله ان توافق كلية الآداب في جامعة القاهرة على ان اقوم بهذا البحث عن الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث ، فاستعنت بالله واخذت نفسي به بضع سنين ، حتى خرج بين يدي هذا السفر ثمرة لجهد بذلت له ما استطيع •

وقد تخيرت بغداد موضوعاً لبحثي من اجل اسباب عدة ؛ منها اني واحد من ابناء بغداد ، اشعر اني اطيق في خدمتها شيئاً قد يزيد على ما يطيق غيري ، لان للبيئة مزاجاً يتحدر اليها من التاريخ ، ويظل يشيع في ثنايا حياتها مهما تطاول بها الزمان•واقرب الى فهم تلك البيئة وتذوق مزاجها من نشأفيهاوذاق حياتها وتقلب فيها • وقد شعرت وانا ابحث في الموضوع واجمع شتاته ان انتسابي الى بغداد ونشأتي فيها وتذوقي لحياتها قد اعانني على فهم جوانب مهمة من الوان حياتها القديمة ، ويسر لي ان احيا بين اهلها الاقدمين ، وان المس بعض مظاهر الحركة في الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية من خلال ما كنت اقرأ في كتب التاريخ •

اما اختيار هذه الحقبة بالذات فلأن بغداد كانت منذ انشائها مجمع الحياة العربية والاسلامية ، ومصدر الاشعاع في العلم والحياة الاجتماعية ،

---

(٣) اعتمدت على طبعة الساسي واليها رجعت واليها الاشارة في اثناء البحث .

ومنار الحضارة ومركز التوجيه فيها . ولأن القرن الثاني — وفيه كان انشاء بغداد — قد شهد وثبات ضخاماً في الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية . ثم اخذت نتائج تلك الوثبات في التركيز والاستقرار في اوائل القرن الثالث ، واثمرت في الشعر بوجه خاص طريقته المثلى التي تمكنت منه وتحكمت في مجرى حياته حتى عصرنا الحاضر .

واذن فدراسة الشعر في بغداد ، منذ ان انشئت حتى نهاية القرن الثالث، تعني دراسة الشعر العربي في حقبة خصبة ، بل هي من اخصب الحقب في تاريخ الشعر على ما سنرى في ثنايا البحث .

— ٤ —

وقد رأيت لزاما علي ان احاول البحث في تاريخ بغداد ، وان انطلق في مجال حياتها القديمة ما استطعت ، فقرأت شيئا من الكتب التي تبحث في تاريخ العراق القديم ، وتلمست — مستعينا ببعض الافاضل من الباحثين فيه — موقع بغداد من ذلك التاريخ ؛ ثم بحثت في تاريخها بعد الاسلام حتى بلغت بها الى وقت ان اصطفاها ابو جعفر المنصور عاصمة للخلافة . وبحثت في اسباب اختيارها واختيار موقعها بالذات محاولا ان استنتج من بعض الخصائص التي نبتت فيها من اول يوم اسست فيه .

وكان عماد البحث في هذا الفصل طائفة من كتابات الباحثين في تاريخ العراق القديم والخطط ، امثال رولنسون ووليس بدج ولسترنج ، وكتب التاريخ العام ، كتاريخ الامم والملوك لابن جرير الطبري والكامل لابن الاثير ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي وامثالها .

ثم عمدت بعد ذلك الى الحياة الاجتماعية والعقلية في بغداد فحاولت ان اتصورها تصوراًعاماً وبحثت — على قدر ما تهيأ لي من الوسائل — في التكوين

الاجتماعي والعقلي حتى استطيع ان اتصور البيئة بعواملها المتعددة التي اثرت في الشعر وفي السبيل التي سلكها الى التطور والتجديد •

وقد وجدت أن على الباحث ـ لكي يعرف مكان بغداد في تاريخ الشعر العربي ـ أن يتصور هذا الشعر من قبل بغداد ، وأن يعرف مكانه من حياة العرب في العصور القديمة ، وما يتميز به الشعر العربي عن مكان الشعر عند بعض الامم ذات الأثر البعيد في تاريخ الحضارة ، وكيف وصل الى بغداد وماذا أصاب من التطور قبل وصوله اليها •

وبعد أن ارتسمت في البحث صورة عامة لبغداد في التاريخ ، وللشعر حين وصل اليها ، دخل البحث في العوامل التي توافرت في بغداد فأثرت في الشعر ، فكان للعامل السياسي فصل ، وللعامل الاجتماعي فصل آخر ، ولكل من العامل الحضاري والعامل العقلي فصل •

وبعد ان تصورت الحياة في بغداد من نواحيها المتصلة بالشعر والمؤثرة فيه ، اخذت في استخلاص النتائج واستنباط العوامل التي اتجهت بالشعر الى التجديد او المحافظة ، فتلمست عوامل التجديد التي كانت تدفع بالشعر في مجالات جديدة ، وعوامل المحافظة التي ارادت للشعر ان يبقى على صلته بالقديم ، والانقياد الى تيار الحياة الجديدة انقياد المندفع فيه بلا روية ولا أناة • ثم حاولت ان اتبين ما اعقبه كل ذلك في وجهة الشعر وفي مذاهب الشعراء ، واجملت تلك المذاهب وخصائصها ، وقسمت الشعراء وفاقاً لمذاهبهم الفنية وتعرضت لما اعقبته تلك المذاهب •

ثم جعلت لثمرات التجديد في شعر بغداد باباً قصرته على الظواهر الرئيسية ، وتجاوزت فيه عن المسائل الجزئية الخليقة بدراسة الشخصيات والفنون الشعرية ، وعرضت في هذا الباب لما جد في موضوع الشعر وفكرته ،

ثم لما أصابه في صورته وأسلوبه من تجديد او تطور ، وبينت قيمة كل من أولئك وأثره في تاريخ الشعر العربي .

وقد جعلت خاتمة البحث صورة مجملة لحياة الشعر في بغداد ، واشرت فيها الى بعض النتـــائج التي لم اكن قد وقفت عليهـــا قبل ان آخذ نفسي بهذا البحث .

ذلك جهد قدمت فيه ما استطيع ، ولعل ان يكون فيه ماقصدت اليه مـــن خدمة البحث العلمي وجلاء وجه الحقيقة فيه . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

احمد عبدالستار الجواري

البـــاب الاول

تمهيـــــد

الفصل الاول

بغداد في التاريخ

١- بغداد في العصور القديمة

لعل أقدم ما عرفه المؤرخون عن بغداد ذكر اسمها في بعض الألواح المكتوبة بالمسمارية ، وأقدم هذه الالواح عهداً وأبعدها زمناً لوح يبدو أنه كتب في عهد حمورابي ملك العموريين في بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وقد كتب اسم بغداد في اللوح على شكلين : بكدادا (Bagdada) وبكدادو (Bagdadu) . واكثر هذه الكتابات تدل على ان المدينة المسماة بهذا الاسم تقع في موضع قريب من مدينة بغداد اليوم .

بل يذكر رولنسون (Rawlinson) أنه كان في زمن السومريين مدينة مهمة كانت تقع في موضع بغداد المعروف اليوم او على مقربة منه . وهكذا لا تزال بغداد تحتفظ باسمها الذي عرفت به منذ مدة لا تقل عن اربعة آلاف عام[١] .

وقد ورد ذكر بغداد في عدة الواح مكتوبة بالخط المسماري اهمها الالواح الاتية :

- لوح قانوني يرجع عهده الى زمن الملك البابلي حمورابي وهو الذي مر ذكره آنفاً .

---

(1) Encyclopaedia Britainica, Article : Bagdad .

٢ ــ حجر من معالم الحدود يرجع الى عهد نازيمارتاش (Nazimaruttash)

٣ ــ حجر آخر من أحجار الحدود ، وجده طبيب أوروبي في عام ١٧٨٠ م بالقرب من خرائب طيسفون ، ويرجع تاريخه الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد وقد ورد فيه ذكر بلد يقع قريباً من مدينة بغداد[٢] ــ (Bagdada)

٤ ــ حجر ثالث من أحجار الحدود يعود الى عهد الملك البابلي بردوخ بالادان الثاني (١٢٠٨ ــ ١١٩٥ ق ٠ م) يذكر فيه نهر أرارا في سهل بغداد ويذكر فيه ايضا مكاناً يسمى شبت شاري (Shubat Sharri) في اقليم بغداد ٠

٥ ــ في الحرب التي قامت بين الملك الاشوري أداد نيراري (Adad Nirari) الثاني (٩١١ ــ ٨٩١ ق ٠ م أ وبين الملك البابلي نابوشنوكين (Nabu Shunukin) وقد ذكر بين المواضع التي احتلها ذلك الملك مدينة بكدادو ٠

٦ ــ ويبدو مما تقدم انبغداد كانت مدينة ذات قيمةكبيرة في العهود القديمة، وأنها كانت أيضاً مركزاً ادارياً لاقليم بابلي ، ولكن يبدو كذلك أنها فقدت قيمتها هذه بعد ان اجتاحها الملك الاشوري اداد نيراري الثاني فيحربه التي أسلفنا الاشارة اليها ، وأصبحت منزلا للاراميين ٠ وقد ذكرها تيجلا ثبليسر الثالث (Tiglathpillesser III) في سياق حديثه عن قبيلة آرامية (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق ٠ م) ٠

٧ ــ وقد ورد ذكر بغداد أيضاً في قائمة مكتوبة على لوح مسماري عثر عليه في نينوى[٣] يعود الى القرن السابع قبل الميلاد ٠

٨ ــ وفي عام ١٨٤٨ م عثر البحاثة الآثاري رولنسون (Rawlinson)

---

(2) Rawlinson : Cuniform Inscriptions, Vol. I, p. 70

(٣) نينوى عاصمة الآشوريين ٠

على قطع من الآجر مختومة باسم الملك نبوخذ نصر الثاني في بقايا جدار مبنى على الضفة الغربية لنهر دجلة في بغداد[٤] .

ووجد مثل كـل من اوبير (Oppert) عام ١٨٥٣ م وبونيون وهاربر (Pognon & Harper) في الموضع نفسه .

ولا يزال جزء من هذا الحجر باقياً الى اليوم على الضفة الغربية لنهـر دجلة ؛ وهناك ايضاً بقايا بناء يشبه هذا الحجر في الجهة الجنوبية الغربية من بغداد قرب قناة الخر[٥] .

٢- تسمية بغداد واصلها

وفي اصل تسمية بغداد خلاف قديـــم حديث بين المؤرخين والباحثين ، وادعى عدد ممن أرخوا لبغداد وبحثوافي نشأتها وفي تأسيسها ان اسمهافارسي يروي الخطيب البغدادي بسنده عن ابن الكلبي « ان بغداد اسم فارسي منشؤه انه اهدي الى كسرى خصي من المشرق فأقطعه بغـــداد ، وكان لهم صنم في المشرق يقال له البغ ، فقال « بغ داد » يقول اعطاني الصنم .

والفقهاء يكرهون هذا الاسم من اجل هذا[٦] .

ويروي الخطيب في موضع آخـر من تاريخه ان بعض الاعاجم يزعم ان تفسير اسم بغداد بستان رجل ، فبغ بستان وداد اسم رجل[٧] .

وهو يشرح ذلك في خبر آخر يرويه بسنده عن ابي القاسم المظفر بن عاصم ابن ابي الاغر انه قال:« دخلت الى بغداد وهي اجمة ليس فيها الا كوخالى

---

(4) Wallis Budge : By Nile & Tigris, Vol. I, P . 186.

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة « بغداد » (الترجمة العربية) .

(٦) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد . ج١ ص ٥٨ .

(٧) نفسه ص ٦٠ واسم البستان بالفارسية « باغ » لا « بغ » ولعلها سهلت فحذفت منها الالف .

وفيه رجل من الاولين ينظر ببقلة لـه ، فلما ان جاء المنصور ووضع الاساس قال : « ما اسم هذا الموضع ؟ » قالوا : « لا نـدري ، ولكن ههنا رجل من الاولين ، سله » . فبعث اليه فقال له : « ماسمك ؟ » فقال : « اسمي داذ » « وما يقال لهذا الموضع ؟ » فقال : « هذا باغ لي » . يعني البستان . فقال: « سموه باغ لداذ » (كذا) فسميت بغداد [8] » .

وقد التفت ابو بكر الخطيب البغدادي الى خطل هذا القول فذكر ان ما زعمه ابن ابي الاغر من ان المنصور هو الذي سماها بغداد قول لم يتابعه عليه احد[9] .

ويروي ياقوت بسنده عن حمزة بن الحسن ان بغداد اسم معرب عن داذويه[10] .

ومهما يكن من شيء فان المؤرخين يجمعون على ان اسم بغداد اسم قديم ، كان يعرف به الموضع الذي بنى ابو جعفر المنصور فيه عاصمة ملكه ، او موضع قريب منه[11] .

ويجتمع لدينا مما بين ايدينا من اقوال المؤرخين والباحثين ثلاثة اقوال في اصل تسمية بغداد بهذا الاسم :

اولها ــ ما ذكرناه من روايات المؤرخين القدامى التي تكاد تجمع على ان بغداد معناه عند بعضهم عطية باغ ، اي عطية الصنم[12] ، او عطية

---

(٨) الخطيب البغدادي ــ تاريخ بغداد ج١ ص ٦٢ .
(٩) نفسه ص ٦٢ .
(١٠) معجم البلدان (بغداد) .
(١١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤٠ .
(١٢) و (١٣) يروي الخطيب ان عبدالله بن المبارك كان يقول « لا يقال بغداذ بالذال فان بغ شيطان وداذ عطية وانها شرك ولكن تقول بغداد وبغدان كما تقول العرب » ص ٥٩ من تاريخ بغداد ج١ .

الملك[١٣] . ومعناه عند الاخرين بستان داذ (اسم رجل) او بستان داذويه[١٤].

القول الثاني ـ مايذهب اليه الاستاذ يوسف غنيمة اذ يرى ان اسم بغداد أرمي الاصل مكون من جزئين : في (ب) المختصر من كلمة في(بيت)، وهو كثير الوجود في اسماء المدن كما في بعقوبة وباعشيقا ، وكدادا ومعناها في الارمية الضأن او الغنم ، فيكون اصل الكلمة بكدادا ومعناها بيت الغنم .

ومما يقرب هذا الظن عند الاستاذ يوسف غنيمة ان بغداد كانت ، قبل بناء المنصور مدينته فيها ، سوقاً ؛ ويتحمل ان تكون تلك السوق سوقاً للغنم [١٥] .

القول الثالث ـ ماقدمناه في اول هذا البحث من عثور المنقبين الآثاريين على اسم بغداد منقوشاً على الألواح المسمارية من عهد حمورابي ومن بعده.

والقولان الثاني والثالث يبيحان للباحث ان يرجح ان اسم بغداد اسم سامي الاصل على اختلاف في معناه و(ماكان يراد به ، على حين ينص المؤرخون الذين يقولون بالرأي الاول على انه اسم فارسي معرب .

ويبدو ان القولين الثاني والثالث ينتهيان الى غاية واحدة ويسلمان الى نتائج متشابهة وان يكن القول الثالث اقوى تلك الاقوال واثبتها للنقد واخلقها لدى الباحث بالقبول . ذلك لانه ، كما رأينا ، يعتمد على ادلة مادية شاخصة مملوسة لا سبيل الى الطعن فيها على رغم الشك الذي يلقيه دلا فيدا (Della Vida) في صحة ذلك القول[١٦] .

والعجيب أنه لا يسوق على دعواه فارسية الاسم أي دليل ، وانما يقيم شكه (ساميته على أن النقش الذي يرجح بعض الباحثين أنه اسم بغداد يبدأ

---

(١٤) معجم البلدان لياقوت مادة (بغداد) .

(١٥) مجلة لغة العرب الجزء الرابع سنة ١٩٢٦ .

(١٦) دائرة المعارف الاسلامية مادة (بغداد) :

المعروف ان داد بالدال لا بالذال معناه اعطى بالفارسية من المصدر دادن وعلى هذا فكلام ابن المبارك لا طائل وراءه » .

بصوت يشترك في الدلالة على لفظ (حو) ولفظ (بكد) في الكتابة المسمارية. ويرى البحاثة الاستاذ طه باقر امين المتحف العراقي أن قراءة الاسم باللفظ الاول تجعل الكلمة خالية من المعنى في حين ان المقطع (بكد) ولفظ بكدادو (Bagdado) وبكداته (Bagdatte) يستعمل في اللغة البابلية القديمة بمعنى الناس والاشخاص وربما بمعنى المواضع (Localities) ومما يدل على ذلك ان هناك قبيلة تسمى باسم بكدادو (Bagdadu) ورد ذكرها على لسان بعض ملوك الآشوريين .

مما تقدم يمكن ان يقال ان اسم بغداد سامي الاصل ، وأن بغداد قد خرجت الى الوجود من قبل ان يقوم الحكم الفارسي في العراق ؛ وقد يجوز ان يكون هذا الاسم مما ورثه الفرس من الأسماء والالفاظ السامية القديمة التي انتقلت الى العرب بعد الفتح الاسلامي . وقد كشفت الابحاث الآثارية الحديثة عن طائفة كبيرة من الاسماء والمفردات ، كان يظن أنها فارسية الأصل ، ثم ثبت لدى الباحثين ان الفرس قد اقتبسوها من اللغات السامية القديمة واحتفظوا بها ووصلت بطريق لغتهم الى العرب ؛ من ذلك أسماء بعض النباتات والاشجار وما الى ذلك(١٧) .

ويترتب على هذا الترجيح نتائج تاريخية خطيرة في تاريخ الحضارة الاسلامية التي حملت بغداد شعلتها بضعة قرون ، ونسب الفضل فيها الى غير العرب الى حد كبير وبخاصة الفرس . ونحن لانود ان نتعجل الخوض في تلك النتائج او نقطع فيها برأي ، وانما يهمنا ان نشير الى ان بغداد او موضعها وما كان يحيط به قد أصبح ميراثاً للآراميين ، حتى ان القرى التي بقيت تحيط بها بعد ان اصبحت عاصمة العباسين كانت بأسماء آرامية ويقيم في اكثرها فريق من

---

(١٧) يلاحظ ان الفرس كانوا يستخدمون الخط المسماري في كتابتهم . وقد نشرت بعض ابحاث في المفردات واسماء الاشجار والنبات في اعداد مجلة سومر سنة ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ .

النصارى الآراميين ، وقد بقي اكثرها معروفاً في العصر العباسي يقصده الناس للنزهة والترويح عن النفس ويلتمسون فيه اسباب اللذة والمتعة من خمر وغناء ولهو مختلف الضروب والالوان .

من هذه القرى : قطر بل وهي قرية بين بغداد وعكبرا ـ ينسب اليهـا الخمر ويذكر ياقوت انها ما زالت الى ايامه متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين(١٨)، وكانت تقع شمالي بغداد . ومنها ايضاً كلواذي وكانت تقع جنوبها . قال الشاعر ابو الفرج الببغاء يذكرهما(١٩) :

كـم للصبابة والصبا من منزل — ما بين كلـواذى الى قطـرُبُّل
جادته من ديـم المدام سحـابة — أغنتــه عن صوب الحيا المتهلل
غيث اذا ما الراح أومض برقـه — فرعـوده حث الثقيـل الاول
نطقـت مواقع صـوبه بسحابة — تهمى على كرب الفؤاد فتنجلـي
راضعت فيه الكأس أهيف ينثني — نحوي بجيد رصا وعيني مُغزل
فأتى وقد نقش الشعاع بنانـه — بممـوج من نسجها ومبقّـل
وكسا الخضاب بها بناناً يا لـه — لـو انه من وقتـه لـم ينصل

ومن تلك القرى ايضاً قرية قطفتـا ، وهي محلـة كانت بالجانب الغربي مجاورة لمقبرة الدير التي يقع فيها قبر الشيخ معروف الكرخي(٢٠) ، ومنها قرية ورثالا او ورثال وسونايا ، وقد اصبحت (ما بعد بناء بغداد جزءاً منها وصـار مكانها محلة تعـــرف بالعتيقة(٢١) ؛ ومـــن تلك القرى ايضـاً بـادوريـا وبنورا وغيرهما(٢٢) .

(١٨ ـ ١٩) معجم البلدان لياقوت ، مادة (قطربل) و (كلواذى) .
(٢٠) معجم البلدان لياقوت مادة (قطفتا) . والشيخ معروف الكرخي صوفي مشهور لا يزال قبره قائما في الجانب الغربي من بغداد .
(٢١) معجم البلدان مادة (روثالا) و (سونايا) .
(٢٢) معجم البلدان مادة (بادوريا) و (بنورا) .

وإذا صح ما يغلب على الظن وما يرجحه الاثاريون من ان هـذه القرى التي دخل بعضهافي بغداد كانت قرى آرامية وكان يقيم فيها فريق من النصارى السريان بقوا الى عهود متأخرة أهل اللهو والأنس والخمر في بغداد جازلنا ان نستنتج أن جزءاً كبيراً من الحضارة العباسية ، هو الذي يتصل باللهو والأنس ومجالس الشراب ، منحدر من اصول سامية عراقية قديمة لقحت ببعض ماجاء به ساكنو المدينة الجدد من حضارة الحجاز وحضارة الشام وحضارة فارس .

وجاز لنا ايضاً ان يكون لنا بين القائلين بفارسية الحضارة العباسية وبين القائلين بيونانيتها رأي ثالث لعل له ما يؤيده ويشد أزره من التاريخ القديم ؛ وهو أن الحضارة البغدادية والمزاج البغدادي الذي اشتهر في التاريخ باللطف والظرف والرقة مزاج يستمد ببعض معينه من أصول ساميـة قديمة لا تزال معروفة عند أهل بغداد ، حتى اليوم بذلك[٢٣] .

٣ـ مبدا معرفة العرب بها

أما مبدأ معرفة العرب المسلمين ببغداد فيبدو ان اول ذكر لها في التاريخ كان سنة ثلاث عشرة للهجرة[٢٤] . وتفصيل ذلك ما يرويه الخطيب البغدادي اذ يقول :

« كانت بغداد في أيام مملكة العجم قرية يجتمع فيها رأس كل سنة التجار

---

(٢٣) كان من آثار هؤلاء السريان في بغداد أن أهل الظرف والترف واللهو كانوا يحتفلون بأعيادهم ويشاركونهم في لهوهم وانسهم . قال ابو الفرج « اخبرني علي بن هرون المنجم عن زرياب ، قالت : « زرت عبدالله بن المعتز في يوم السعانين فسر بورودي وصنع من وقته لحنا في شعر عبدالله بن العباس الربيعي :

انا في قلبي من الظبي كلوم   فدع اللوم فان اللوم لوم
حبذا يوم السعانين وما   نلت فيه من سرور لو يدوم

الاغاني جـ ٩ ص ١٣٥ .

(٢٤) لسترنج ـ بغداد عاصمة الخلافة العباسية ترجمة بشير فرنسيس ص ٢٠ .

يقوم بها للفرس سوق عظيمة فلما توجه المسلمون الى العراق وفتحوا اول السواد ذكر للمثنى بن حارثة أمر سوق بغداد »[٢٥] .

ويروي الخطيب ايضاً ان اهل الحيرة قالوا للمثنى « ألا ندلك على قرية تأتيها تجار مدائن كسرى وتجار السواد ، ويجتمع بها في كل سنة من أموال الناس خراج العراق ، وهذه ايام سوقهم التي يجتمعون فيها ، فان أنت قدرت على ان تعبر اليهم وهم لا يشعرون ، أصبت ما يكون فيه عز المسلمين وقوة على عدوهم ؟... — قالوا : وبينها وبين مدائن كسرى عامة يوم[٢٦]. » فقال لهم : « فكيف لي بها ؟» فقالوا له : «ان أردتها فخذ طريق البر حتى تنتهي الى الأنبار ، ثم تاخذ رؤوس الدهاقين فيبعثون معك الأدلاء ، فتسير سواد ليلة من الأنبار حتى تأتيهم ضحى ... » ثم سار بهم فصبحهم في أسواقهم[٢٧].

والظاهر ان هذه القرية التي عرفها الفاتحون المسلمون في العام الهجري الثالث عشر قد أصبحت في ما بعد جزءاً من العاصمة العباسية الواسعة الرقعة ، المديدة الأطراف ، لأن المؤرخين يكادون يجمعون على ان مدينة المنصور التي عرفت بعد بنائها ببغداد قامت في موضع كان يعرف بهذا الاسم قبل ان تعرف به العاصمة العباسية ، كما اسلفنا في أول هذا الفصل . والمرجح ايضاً ان هذه القرية التي وردت في الالواح المسمارية ثم في الشاهنامة الفارسية[٢٨] قد أصبحت بعد بناء المنصور ضاحية من ضواحيها ، كما يقال في هذه الأيام ،

---

(٢٥) تاريخ بغداد ص ٢٥ .

(٢٦) الظاهر ان موضع هذه القرية ليس هو موضع المدينة المدورة التي بناها المنصور لان بينها وبين المدائن اقل من هذه المسافة .

(٢٧) تاريخ بغداد — ج ١ ص ٢٦ .

(٢٨) ذكر الاستاذ توفيق وهبي انه ورد في الشاهنامة ان الملك اردشير بن بابك احتفل بتتويجه (سنة ٢٢٦ م) في بغداد فان صح هذا دل على انه كان لبغداد شأن عظيم في اواخر ايام الفرثيين — يراجع بحث القصد والاستطراد في اصول معنى بغداد . (مجلة المجمع العلمي العراقي م ١٠ ١٣٦٩ — ١٩٥٠ م) .

بدليل ما ذكره الخطيب البغدادي من انهـا تبعد عن مدائن كسرى مسافة عامة يوم ، وبدليل ما يرويه ياقوت الحموي عن ورود المنصور اياها اول مرة ، وانه استشار دهقان بغداد ــ وكانت قرية في المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل ابن سليمان الطوسي[٢٩] ، فأشار عليه الدهقان ان ينزل في نفس بغداد[٣٠] .

نستخلص مما تقدم ان بغداد كانت قبل المنصور قرية صغيرة هي بقية مدينة سامية او سومرية قديمة العهد ، وكان يحيط بها قرى اخرى صغيرة يرجح انها من بقايا الساميين والسومريين الذين اسسوا حضارة وادي الرافدين، ثم تقلبت بهم صروف الزمن وتغيرت بهم الاحوال فكانوا ركيزة من ركائز المسيحية في الهلال الخصيب ، بدليل ما كان يقوم في تلك المواضع من الاديرة والمعابد .

وكان موضع بغداد قبل ان يبني المنصور فيها مدينته مثل ارض السواد، تمسح ويؤخذ عنها الخراج[٣١] ، وهي ارض وقف وقفها عمر بن الخطاب[٣٢]. وبقيت كذلك حتى قدمها ابو جعفر المنصور سنة خمس واربعين ومائة للهجرة.

٤ــ بناؤهـــا

ولبناء بغداد قصة لا تخلو من الطرافة تتداولهـا كتب التاريخ فتتفق في اساسها وقد تختلف في بعض تفاصيلها . ومجمل هذه القصـة ان ابا جعفر المنصور بنى لنفسه ــ بعد ان آل اليـه امر الخلافـة ــ مدينـة عرفت باسم

---

(٢٩) تقع هذه المربعة في الجهة الشماليـة الغربية من المدينة المدورة في مـا سمي بمحلة الحربية الى الشمال من اتجاه باب الشام ــ تراجع الخارطة

(٣٠) معجم البلدان .

(٣١) تاريخ بغداد جا ص ٧ .

(٣٢) نفسه ص٩ ــ ويروي الخطيب اقوالا تدل على ان ارض بغداد وقف لا يجوز بيعها واقوالا اخرى تدل على انهـا ارض صلح فبيعهـا جائز ــ ص ١٦ نفسه .

الهاشمية الى جانب الكوفة ، وكان قبالتهـا مدينة ابن هبيرة قائد الامويين وعاملهم بينهما عرض الطريق . وبنى ابو جعفر ايضا مدينة بظهر الكوفة سماها الرصافة اي انه القى بنفسه بين فكي عدوه .

وكانت الكوفة من قبل مقراً لأخيه وسلفه في الخلافة أبي العباس السفاح،ثم حدث بين العباسيين ما أيأس العلويين من المشاركةفي الثمرةالتي شاركوا في غرسها وتعهدها حتى آتت اكلها دولة جديدة كانت تدعو المرضا من آل محمد . فلم يطب للمنصور مقامه في الكوفة بعد ان افسد اهلها جنده عليه[٣٣] ، فتحول الى الهاشمية ثم لم يلبث ان حدث له في الهاشمية ما ازهده في المقام بها ، فقد ثارت به الراوندية ، وهم قوم من خراسان كانوا يقولون بتناسخ الارواح، ويزعمونان ربهم ابو جعفر المنصور، وقدموا علىابي جعفر فطافوا ببيته ، كما يطاف بالكعبة ، وقالوا : « هذا بيت ربنا » ، فخرج اليهم ينهاهم وينهرهم فلم ينتهوا ، بل تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه لولا ان انقذه منهم القائد الاموي معن بن زائدة الشيباني الذي كان ابو جعفر المنصور يطلبه ويتربص به[٣٤] .

ولعله احس حينئذ ان مقامه بين اهل الكوفة او قريباً منهم امر يعرضه للمخاطر ومتاعب كثيرة وخاصة بعد انقلب بنو العباس ظهر المجن لابناء عمهم العلويين ـ واهل الكوفة شيعتهم ـ واستأثروا دونهم بالخلافة والسلطان .

ولما ايقن المنصور بذلك ، اراد ان يتحول عن الهاشمية ليأمن على نفسه وعلى جنده ، فخرج من الهاشمية ، يطلب مكاناً يقيم فيه مقراً جديداً للخلافة ،

---

(٣٣) الطبري ـ تاريخ الامم والملوك ج٩ ص ٢٣٨ الطبعة الاوربية .

(٣٤) الفخري في الآداب " سلطانية ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

وفي ذلك يقول مروان بن ابي حفصة بمدح معن بن زائدة :

مازلت يوم الهاشـمية معلنـاً ... بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزتـه وكنت وقاءه ... من وقـع كل مهند وسـنان

وطاف في ارض السواد مصعداً منحدراً حتى بلغ موضع بغداد ، فاستطاب مكانه واستعذب هواءه .

وتحكي كتب التاريخ انه لقي في ذلك المكان راهبا اخبره ، او اخبر من كان معه ، انه يجد في كتبهم ان الذي يبني مدينة في هذا المكان رجل يسمى مقلاصا .

فاستبشر ابو جعفر بذلك وتفاءل لانه كان يلقب في صغره بمقلاص[٣٥].

ونزل ابو جعفر في احد الاديرة التي كان يقيم بها الرهبان في ذلك الموضع ، ودعا بصاحب الدير واحضر البطريق وصاحب بغداد وصاحب المخرم[٣٦] وصاحب الدير المعروف ببستان القس وصاحب العتيقة[٣٧] ، فسألهم عن مواضعهم وكيف هي في الحر والبرد والامطار والوحول والبق والهوام ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم فوجه رجالا من قبله وأمر كل واحد منهم ان يبيت في قرية منها وأتاه بخبرها .

وشاور المنصور الذين احضرهم فاجتمع اختيارهم على صاحب بغداد فأحضره وشاوره[٣٨] . فقال :

« يا امير المؤمنين سألتني عن هذه الامكنة وما تختار منها واني ارى ان تنزل اربع طساسيج في الجانب الغربي طسوجين وهما قُطْرَبُّل وبادوريا وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهر بوق وكلواذى فأنت تكون بين نخل

---

(٣٥) الطبري ج٩ ص ٢٣٩ .

(٣٦) المخرم اقطاع ينسب الى مخرم بن يزيد بن شريح بن مخرم بن مالك بن ربيعة بن الحارث بن كعب كان ينزله ايام نزول العرب السواد في بدء الاسلام اقطعه اياه عمر بن الخطاب على رواية ابن الكلبي او كسرى في رواية اخرى ـ يراجع معجم البلدان لياقوت .

(٣٧) العتيقة قنطرة على نهر الصراة من بناء الفرس الساسانيين ـ الطبري ج٩ ص ٢٨٠ .

(٣٨) الطبري ج٩ ص ٢٣٩ .

وقرب الماء ، فان اجدب طسوج وتأخرت عمـــارته كان في الطسوج الاخـر العمارات ؛ وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمينية وما اتصل بهـا في تامرا حتى تصل الى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيـــرة والموصل في دجلة ؛ وانت بين انهار ولا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة، فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك ، وانت بين دجلـــة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتـــاج الى العبور . وانت متوسط البصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب مـن البر والبحر والجبل » .

فازداد المنصور عزماً على النزول في الموضع الذي اختاره[٣٩] .

ولما عزم المنصور على بناء مدينته احضر المهندسين وذوي الخبرة بالبناء واخبرهم بالصفة التي اراد ان تبنى مدينته على غرارهـا وجلب الصـــناع والنجارين والبنائين من كل مكان واجرى عليهم الارزاق ولم يبدأ بالبنـاء الا بعد ان تكامل لديه من اهل المهن والصناعات ما اراد .

والذي يبدو مما يرويه المؤرخون انه هو الذي صنع الخطة وامـــر بتنفيذها ، وانه هو الذي اراد لمدينته ان تكون مدورة يتوسطها قصـــره ومسجده . ويفهم من ذلـك ان المنصور هو الـذي ابتكر هـذا الطـراز في تخطيط المدن لانه هو الذي اشار بأن تبنى المدينة على هذه الهيئة[٤٠] .

وقد ابتدأ المنصور اساس المدينة المدورة سنة خمس واربعين ومائـــة

(٣٩) الطبري ج٩ ص ١٧٤ - ٢٧٥ . الكامل لابن الأثير ج٥ ص ٤٣٥ — ٤٣٧ .

(٤٠) تاريخ بغداد ج١ ص ٦٧ ولسترنج ص ٢٣ . يذهب الدكتور مصطفى جواد الى ان مهندس بغداد قلد التصميم البنائي لمدينه الحضر من حيث الشكل والمساحة .

للهجرة[41] في بعض ما يرويه الخطيب البغدادي او في سنة اربع واربعين ومائة وبضعة اشهر في رواية اخرى .

وتم البناء في حدود سنة ست واربعين ومائة للهجرة[42] .

و(هذه السنة فرغ ابو جعفر المنصور من بناء ما كان يحتاج اليه كقصر الخلافة والدواوين والخزائن ونزلها مع جنده ، ونقل اليها الخزائن والاموال والدواوين وسماها مدينة السلام[43] .

ويظهر ان المنصور قد استعجل النزول بها فنزل قبل ان يستتم بناء السور المحيط بها ، فان ذلك لم يتم الا في سنة تسع واربعين ومائة للهجرة او قبل ذلك ببضعة اشهر[44] .

وقد اتم ابو جعفر المنصور بناء مدينته على ما اراد ، واسكن فيها من اراد من الناس .

وقد رحل اليها بعد بنائها كثير من اهالي البصرة والكوفة والامصار المجاورة[45] ممن كانت المدينة تحتاج اليهم للوفاء بمطالب اهلها من الاعمال التجارية والصناعية .

ويبدو ان هذه الاعمال التجارية والصناعية قد اتسعت وصارت تتطلب مجالا رحباً لايتيسر لها في داخل المدينة المدورة فاضطر ابو جعفر ان ينقل الاسواق من المدينة الى باب الشعير والمحول وقد كان ذلك على ما يرويه الخطيب سنة سبع وخمسين ومائة ١٥٧ هـ[46] .

---

(٤١) تاريخ بغداد جا ص ٦٧ .

(٤٢) نفسه ص ٦٧ .

(٤٣) تاريخ بغداد جا ص ٦٧ .

(٤٤) تاريخ بغداد جا ص ٦٧ .

(45) De Lacy O,Leary:How Greek Science Passed to the Arabs, P.149.

(٤٦) الخطيب ــ جا ص ٦٧ ويذكر ابن الاثير في علة نقل الاسواق أن رسولا لملك الروم انتقد وجود الاسواق في داخل المدينة واشار على أبي جعفر بنقلها ففعل ؛ ابن الاثير جـ٥ ص ٤٣٩ .

وقد اتسعت الكرخ اتساعاً حتى اصبحت اوسع محلات بغداد وبلغت من التنظيم مبلغاً كبيراً فأصبح فيها لكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراص ؛ وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف في غير صنفه ولا يختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم • وكل سوق مفردة وكل اهل تجارة منفردون بتجاراتهم وكل اهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم[٤٧] •

وهكذا اقتضى توسع المدينة في عهد بانيها ان تستقل بالتجارة والصناعة بقعة جديدة اسوارها بلغت من التنظيم الى هذا الحد الذي سلف وصفه •

وظلت الكرخ وسوقها تزداد اتساعاً حتى أصبحت محلة عظيمة من محلات بغداد أو مدينة الى جانبها فيها الأسواق وفيها المساكن وفيها بيوت اللهو والأنس حتى أصابها الاهمال فاحترقت في زمن الواثق[٤٨] •

وكما استقلت التجارة والصناعة بحي من احياء بغداد أسس لهذا الغرض فقد ابتنى أبو جعفر المنصور الرصافة (الجانب الشرقي من بغداد لتكون مقراً لابنه وولي عهده محمد المهدي وعسكراً لجنده •

وفي أسباب بناء الرصافة يذكر المؤرخون أن الجند قد شغبوا على أبي جعفر المنصور فتخوف ان يبلغ ذلك مبلغ الخطر فاستشار في ذلك جماعة من أهل بيته فأشار عليه قثم بن العباس بن عبدالله بن العباس ان يعبر بابنه المهدي الى الجانب الشرقي وأن يجعل معه قطعة من العسكر ويبني له هناك مدينة فيصير هو في جانب وابنه في جانب ، فاذا ارتاب أحد الجانبين استعان عليه بالجانب الآخر • أخذ أبو جعفر المنصور باشارة ابن عمه هذا فبنى الرصافة واسكن

---

(٤٧) لسترنج ص ٦٥ •
(٤٨) لسترنج ص ٦٦ •

فيها ابنه محمداً وعسكره[٤٩] وكان بناء الرصافة سنة احدى وخمسين ومائة حين قدم محمد من خراسان ٠

ولما ولي محمد المهدي الخلافة جعل الرصافة مقراً له ولم يعد الى مدينة أبيه بالجانب الغربي فأدى ذلك الى اتساع الرصافة وزيادة العمران فيها ٠

وقد أنشيء في الرصافة أول الأمر جامع المهدي وقصره المعروف بقصر الرصافة وكان يحيط بها سور يفصلها عما جاورها ٠ وبعد ان تولى المهدي اتجه اليها العمران فاتصلت العمارة جنوبيها وشماليها ونشأت محلتا سوق يحيى والمخرم في الجنوب ومحلتا الخضيرية والشماسية في الشمال ٠

وفي المخرم كانت دار الوزارة العباسية (الحقبة التي نحن بصدد البحث فيها وفي الشماسية كانت دار الروم وأكثر مساكن النصارى ٠

٥ـ اسبابه ، وصف عام

وقد ذكر المؤرخون لبناء بغداد اسبابا منها ما لقيه ابو جعفر المنصور في الكوفة وفي الهاشمية من ظروف غير ملائمة لما كان بسبيل القيام به من توطيد الخلافة وتثبيت دعائمها ٠

ولعل من حق الباحث في انشاء بغداد وفي تاريخها ألا يكتفي بظواهر تلك الأسباب السياسية والعسكرية ٠ ولعل تلك الأسباب ايضاً في حاجة الى التفسير والايضاح فان في موقع بغداد وفي مجرى الحياة السياسية والاجتماعية فيها ما يبيح للباحث ان يستنتج أسباباً اخرى لعلها أعمق وأدق وأولى بالاهتمام ٠

لقد تكونت الدوله العباسية تكويناً لايمكن ان يعد بحال من الأحوال استمراراً لتكوين الدولة الاموية التي قامت هي على انقاضها ٠ وانما كان تكويناً فيه عناصر جديدة في الحياة الاسلامية لم يكن لها من قبل مزيد من

---

(٤٩) الفخري ص ١٥٠ ـ ١٥١ وابن الاثير جـ٥ ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ ٠

المشاركة المؤثرة في حياة الدولة بل كان يحول بينها وبين ذلك شيء من شعور الامويين بالتمييز بين الطبقات ورثوه من اجدادهم في العصر الاسلامي وفي ماقبله ، هذه العناصر هي التي تصدت في أواخر العصر الأموي لتحمل الدعوة الجديدة للرضا من آل محمد ، وكان مجال نشاطها العراق وخراسان فكان من الطبيعي ان تلتمس مجال العمل في الدولة الجديدة في مكان آخر غير المجال الذي كان يعمل فيه الأمويون وأنصارهم ، مكان بكر من الوجهة السياسية •

فالكوفة لا تصلح أن تكونه لأن الكوفة علوية من أول أمرها ، وقد نصرت الدعوة يوم كانت للرضا من آل محمد ، فلما كشفت الدعوة عن حقيقتها وتبين انها لبني العباس من دون غيرهم تململ في اهل الكوفة تمردهم وتهيّأوا للوقوف في وجهها والانقضاض عليها •

ولا تصلح له البصرة فان البصرة عثمانية زبيرية خارجية وما شئت من الافكار والحركات السياسية والمذاهب الدينية والفلسفية •

كان لزاماً على المنصور اذن ان يختار لدولته الجديدة ارضاً بكراً لم يحرث فيها الأمويون ولم يغرس فيها العلويون ولم يجن منها الخوارج ، ارضاً يأمن فيها على الاساس الذي اراد ان يقيم عليه بناء الدولة الجديدة ، ويضمن لنفسه الحرية المطلقة في ان يبني كيف يشاء وان يستخدم في مواد بناء الدولة ما يشاء•

فكان مثله في ذلك مثل الزارع المتيقظ الحريص الذي يريد ان يستنبت نباتاً يحرص عليه ويجهد في الحفاظ عليه ، وكان يعرف اي اثر للجو والتربة يكون في النبات فتجنب ما كان يعرف من الاجواء والترب التي شهد اثرها في النبات من قبل ، وما يمكن ان يحيط بالنبت من ادغال واشواك قد تستعصي في ما بعد على التزكية والتنقية ، فتلتف بالنبتة الناشئة وتعيش عليها كالنبات الطفيلي حتى تمنع نماءها او تسير به في طريق غير التي يريدها هو ، او تستولي

عليها حتى تئدها في مهدها او تخنقها من قبل ان تبلغ اشدها •

وكان ايضا مفتح العينين لما يمكن ان تقذف به الريح الى هذه الارض مما يمكن ان يكون خطراً على حياة تلك النبتة ، فكان يسارع الى القضاء عليه آمناً من تألب امثاله عليه وعليها ، مطمئناً الى انه يعالج ذلك وهو يواجه الدخيل المخشي الخطر قبل ان يستفحل امره ويستشري خطره •

ومن المهم ان نلاحظ ايضاً ان بغداد كانت عنواناً لدولة ذات مفهوم جديد في التاريخ العربي الاسلامي استمدته من حياة مؤسسها الحقيقي ابي جعفر المنصور اذ هو في الواقع واضع اساسها في السياسة والحضارة والثقافة ، وكان هو المؤثر الاول في تكوينها على الشكل الذي تكاملت فيه فيما بعد • وفي سلالته بقيت خلافتها واستمر امدها •

ولعل للباحث شيئاً من الحق في اتخاذ شخصية هذا الخليفة الفذ صورة عامة اولية يستدل منها على ملامح الدولة حين تكونت وحين تأسست وتكاملت •

كان ابو جعفر المنصور قرشياً من ولد العباس بن عبدالمطلب ، فهو يختلف من حيث تاريخ اسرته عن سواه من سراة قريش علويهم وامويهم • فان لبيته في الجاهلية مكانة تداني في شأنها مكانة البيت الاموي في الجاه وفي الثراء ؛ وتاريخ جده العباس في الجاهلية معروف غير خفي ، فقد كان العباس تاجراً ذا حظ عظيم من الدنيا بخلاف اخويه ابي طالب وعبدالله ، وكان له بساتين في الطائف ، وكان يتخذ في اسفاره سمت الملوك الأقدمين ، ولهذا علا مقامه بين سراة قريش فكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام(٥٠) • ثم استمرت مكانة هذا البيت بعد الاسلام فكان العباس ، وهو عم النبي ، ركناً من اركان الاسلام يحمي المسلمين في مكة ويخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما كان

---

(٥٠) دائرة المعارف الاسلامية مادة (العباس) .

يبيته له المشركون من المكائد وما كانوا ينوونه له من الأذى[٥١]».

وكان ابنه عبدالله العباس ـ وهو جد ابي جعفر ـ حبر الأمة وعلماً من اعلام المعرفة في الحديث وفي قراءة القرآن وفي رجاحة الرأي وسداد الفكر .

وبقي هذا البيت بمنجاة من مظالم الأمويين والعسف الذي الحقوه بخصومهم في السياسة بالقياس الى آل علي وآل الزبير .

حتى ان الباحث ليستطيع ان يقول إن آل العباس قد سالمتهم الظروف التي احاطت بالدولة الاسلامية فلم يصابوا بأذى كالذي اصاب العلويين مثلا . ولعل سبب ذلك انهم ورثوا عن جدهم العباس وعياً ويقظة لشؤون الحياة الدنيا الى جانب نصيبهم من الحياة الدينية الاسلامية فكانوا لذلك اقل اندفاعاً في الدفاع عن المثل العليا في الدين وفي السياسة اذا قيسوا بالحسين بن علي وعبدالله بن الزبير . ويمكن ان يوصفوا في سياستهم بالواقعيين الذين لا يقدمون على امر لا تضمن نتائجه ولا تؤمن عواقبه . ولقد كانوا على شيء من المكانة المرموقة عند الامويين يزيد على ما كان لغيرهم من بيوتات قريش ، وقد ضمن لهم هذا الشيء واقعيتهم التي وصفت آنفاً والتي تروى عن جدهم العباس بن عبدالمطلب فيها اخبار ونوادر من حيث تعلقه بالمال واقباله على الدنيا اقبالا يخالف زهد ابي بكر وعمر وعلي[٥٢] .

---

(٥١) نفسه .

(٥٢) كان العباس في صف قريش اول ايام الدعوة الاسلامية ثم لما راى انتصار الرسول ابن اخيه وما بلغ من سطوع نجمه واخضاع خصومه انحاز اليه وتقرب منه ، والدليل على ذلك انه كان يحارب في صفوف المشركين يوم بدر وقد اسر وافتدى نفسه .
وكان ايضا على جانب عظيم من الدهاء السياسي والوعي الاقتصادي ـ ان صح هذا التعبير ـ فقد صحب فاطمة رضي الله عنها يوم ذهبت الى ابي بكر تطالبه بنصيبها من ميراث ابيها صلى الله عليه وسلم . وحاول ان يحمل عليا على الا يشارك في اختيار خليفة لعمر وان لم يفلح في ذلك (دائرة المعارف الاسلامية) .

لقد كان العباسيون يتميزون بهذه النظرة الواقعية للحياة ، تلك النظرة التي ترضى بالواقع ما دام واقعاً وتوطن النفس على الافادة منه والمسايرة له . وكانت هذه النظرة الواقعية هي الاساس المتين والبذرة القوية التي ضمنت لهم نجاح الدعوة وقوة بناء الدولة واستمرارها في الحكم اجيالا طويلة لم تتهيأ من قبل لأسرة اخرى .

ولقد كان بناء بغداد وتخطيطها حافلا بالمعاني التي اشرت اليها في خلال الكلام السابق .

لقد بناها ابو جعفر المنصور ـ كما شاء ـ مدينة مدورة مسورة يتوسطها قصره ومسجده وتحيط بها دواوين الدولة ثم قصور اهل بيته ورجال دولته(٥٣) . وجعل حول هذه المدينة سوراً وخندقاً يقيانها هجمات المهاجمين ويصدان عنها عدوان المعتدين .

هكذا اراد المنصور ان يتخذ لنفسه حاضرة ليس فيها اناس لا يأمنهم ولا يطمئن اليهم ، بل اختار سكانها الاقربين اليه اختيارا لا شائبة فيه ، واحاط نفسه بهم احاطة السوار بالمعصم كما يقولون واستبعد من جواره كل من كان يتوقع منه شغبا او لغطا حتى التجار واهل الحرف .

وقد اختار المنصور لمدينته الجانب الغربي من نهر دجلة لأن هذا الجانب متصل ببلاد العرب شامها ونجدها وحجازها من دون فاصل او حاجز . ولعل حفظ التوازن بين العناصر الاعجمية التي قامت في الدعوة العباسية بنصيب موفور وبين العنصر العربي وهو مادة الدولة الاسلامية وعصبها الذي يفزع اليه في الملمات هو الذي زين ذلك لأبي جعفر المنصور وحمله على ان يتخذ الجانب الغربي من نهر دجلة موضعا لمدينته ، وهو الذي جعله يؤثره على مكان المدائن عاصمة الساسانيين التي تقع في الجانب الشرقي من نهر دجلة .

---

(٥٣) يذكر ابن الاثير ان المنصور جعل مدينته مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض (الكامل جـ٥ ص ٤٣٩) .

وهكذا كان ابو جعفر المنصور يريد ان يجمع بين صلته بأنصار الدعوة العباسية من الفرس ويؤمن لنفسه خط الرجعة – كما يقول المعاصرون – فيجعل نفسه قريبا من اهله وعشيرته وذوي قرباه من العرب .

يضاف الى ذلك ان الجانب الغربي بالنسبة لنهر دجلة شرف لا يبلغه ماء النهر اذا فاض الا بعد ان يفيض على الجانب الاخر ، فهو من اجل ذلك آمن وابعد عن الخطر . ثم انه يكاد يقع بين النهرين دجلة والفرات في الرقعة التي يقترب فيها احدهما من الاخر(٥٤) بحيث يتيسر له الري من ايهما شاء ، هذا علاوة على لطافة الجو وطيب المناخ واعتدال الهواء الذي تستفيده المدينة من هذا الموقع .

ولعل أبا جعفر كان يتوقع من الشرق – بلاد فارس وخراسان – شغبا وعصيانا كالذي وقع من ابي مسلم الخراساني فأراد ان يجعل نهر دجلة حائلا بينه وبين الجند الفرس والخراسانية . وما يدرينا لو انه اراد ان يفتك بأبي مسلم وهو بالجانب الشرقي من نهر دجلة لوفدت عليه اتباع أبي مسلم من الجند الخراسانية يطالبون بثأره ويهددون العاصمة والدولة بالانهيار . وهم قد حاولوا مثل ذلك فحال بينهم وبين غرضهم النهر واسوار المدينة المدورة وخنادقها .

لقد كان ابو جعفر المنصور – فيما يبدو للباحث ويرجح لديه – عارفا ان بلاد فارس وخراسان موطن لنزعات فكرية وسياسية ذات خطر على كيان الدولة ، وهو سلك مع القوم مسلك السياسي المحنك ، فاستغل سخطهم على الامويين واندفاعهم في الحماسة لتقويض دولتهم وعطفهم على آل بيت الرسول وولاءهم لهم ، فاستفاد منهم ما وسعه ان يستفيد ولكنه بقي يقظا لما يمكن ان يتربص به وبدولته من تلك البقايا الموروثة من ديانات الفرس

---

(٥٤) لايكاد نهر الفرات يبعد عن موضع بغداد اكثر من بضعة عشر ميلا .

واتجاهاتهم الدينية ومذاهبهم الفكرية ، حذرا من انقلابهم عليه وانتفاضهم على ولاته لذلك ابقى على صلته بالعرب فقرب عاصمته منهم وجعلها متصلة بهم لا يفصل بينها وبينهم فاصل .

* * *

كان حفظ التوازن الذي اشرت اليه طابعا تتسم به بغداد بوصفها مركز الخلافة وموطن النشاط في السياسة والعلم والادب ؛ وكانت بفضل هذا الاساس الذي اختطه فيها مؤسسها ابو جعفر المنصور تسلك سبيلا وسطا في الحياة السياسية والاجتماعية والادبية . فلم تسلم قياد الحياة العامة للاعاجم يسيرونها كما كانوا يشتهون ، بل كان فيها جانب حفيظ على العروبة يترصد خطوات الاعاجم ويقابل مساعيهم بما كان في وسعه من عمل مضاد ، او يحول بينهم وبين ما يشتهون بالعنف الصريح تارة وباللين الخفي تارة اخرى .

وكان هذا المظهر واضحا في حياتها الادبية وفي الشعر ـ وهو موضوع بحثنا ـ بصفة خاصة . فلم تكن نزعات التجديد والانقلاب لتنفرد بالتأثير فيه ، بل كان جانب المحافظة يعلن عن نفسه ويثبت وجوده ، حتى قيض للشعر ان يحتفظ بأصوله القديمة وان يتطور في حدود مقوماته الموروثة وخصائصه المتحدرة اليه من عصوره الاولى .

الفصل الثـاني

صورة عامة للحياة الاجتماعية والعقلية في بغداد

١- الحياة العامة واثر الخلفاء فيها

كانت الدولة العباسية في أول أيامها تحتاج الى توطيد أركانها واستكمال بنيانها ، مثلها في ذلك كمثل كل دولة حديثة ناشئة .

وكانت بغداد في أول عهدها أشبه شيء بالمدينة التي أنشئت لتكون داراً للخلافة ومقراً لرجال الدولة . فكانت المدينة المدورة على الحال التي وصفنا من قبل ، يتوسطها قصر الخليفة ومسجده يحيط بهما بيوت رجال الدولة وأركانها، وكانت أسواقها في الداخل الى أن نقلها أبو جعفر المنصور الى الكرخ على مـا مر بيانه .

والذي يبدو مما أورده المؤرخون ورواة السير والأخبار ان الحيـاة كانت في زمن المنصور جداً لامكان للهو فيه ، على مـا يظهر ، فقد كان شخصية جبارة وطدت دعائم الخلافة ومكنت للبيت العباسي فيها ؛ وقد طغى بشخصيته هـذه على من حوله من شخصيات المجتمع البغدادي فلم يكد يظهر لغيره أثرواضحفي الحياة الاجتماعية .

ومـن أجل هـذا يصلح أبـو جعفر المنصور لأن يتخذ عنواناً للحـياة الاجتماعية في بغداد في عصره على أقل تقدير .

كان المنصور بطبيعته أميل الى الجد والحرص فصبغ الحياة الاجتماعية في زمنه بالجد والصرامة ولعله لو لم يكن كذلك لاضطراب الأساس الذي قامت

عليه الخلافة العباسية ولما استمر بها الزمن قوية ثابتة الأركان رغم ماكان يحيط بها من عوامل الضعف التي كانت تتربص بها الدوائر . فان دور التأسيس الذي كان في عهده حقيقة واقعة جعله ينصرف بكليته الى العمل في كل ميدان لتمكين ذلك البناء والمحافظة عليه . وقد كانت الفتن والثورات تحيط به من كل جانب: ثورات العلويين وفتنة أبي مسلم وأتباعه من الخرمية وغير ذلك مما هو مفصل في كتب التاريخ .

وكان المنصور ـ فوق ذلك ـ مقترا حريصاً على المال ، حتى انه لقب بالدوانيقي من شدة حرصه . وكان بطبعه رجل كفاح وبناء ، عاصر شطرا كبيرا من عصر الدعوة العباسية وأبلى فيها ، وكان عليه أن يقوض الدولة الأموية تقويضاً تاماً ، وأن يتتبع كل ما يهدد كيان دولته فيقضي عليه . لذلك كانت فترة حكمه فترة جد صارم وعمل مستمر ، لم يفرغ فيها المجتمع الى نفسه ولم يمكّن فيها من اللهو والهزل والمرح فيما يبدو .

وكانت مجالسه الخاصة ـ كما ترويها كتب التاريخ ـ مجالس يغلب فيها جده ومحافظته ، وتطغى فيها شخصيته القوية الجبارة ، ولم يعرف فيها المرح ، فلا قينة تغني ولا شاعر يمدح .

ثم انقضى زمن المنصور وجاء بعده ابنه محمد المهدي ، فوجد ملكاً وطيدة دعائمه ، راسخة أركانه ، فافتتح عهده « بالنظر في المظالم والكف عن القتل وأمن الخائف وانصاف المظلوم . وبسط يده في الاعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور » .(١)

وتنفس المجتمع الصعداء ، وتدفقت فيه الثروة ، ووجد في حياته الجانب الذي كان يفتقده في عهد المنصور : جانب المرح واللهو والأنس والهزل .
وانطلق المجتمع على سجيته ، فظهر فيه ما كان مستتراً ،

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص ٢٣٦ .

يحـول دون الجهر بـه لون الحيـاة الذي أفاضه عليـه أبو جعفر المنصـور بجده وصرامته . والناس على دين ملوكهم .

كان محمد المهدي فيما يرويه عنه المؤرخون أريحياً يعرف للجانب المشرق مكانه في الحياة ، وكان سخي اليد كريم النفس ، يعينه على ذلك ملك ورثه على جانب عظيم من الاستقرار ، وثراء عريض جهد أبو جعفر فيه ولم ينعم بخيراته. وقد كان يجد في وقته مكانا للهو والترويح عن النفس ، فيخرج للصيد ويستمع الى الغناء وانشاد الشعر .

تحدث عنه الفضل بن الربيع فقال : « خرج المهدي متنزها ومعه عمرو بن ربيع مولاه ، فانقطع عن العسكر والناس في الصيد ، وأصاب المهدي جـوع شديد فقال لعمرو : « ويحك ألا انساناً عنده ما نأكل ؟ » فما زال عمرو يطوف الى أن وجد صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له ، فقصد اليه فقال : « هل عندك شيء يؤكل ؟ » قال : « نعم ،رقاق من خبز شعير وريبثاء وهذا البقل والكراث.» فقال له المهدي : « ان كان عندك زيت فقد اكملت . » قال : « نعم عندي فضلة منه » . فقدم اليهما ذلك ، فأكلوا اكلا كثيرا وامعن المهدي حتى لم يبق فيـه فضل . فقال لعمرو : « قل شعرا وصف ما نحن فيه » . فقال عمرو :

ان من يطعـم الربيثـاء بالزيـ ... ـت وخبـز الشعـير بالكـراث
لحقيـق بصفعـة أو بثنتيـ ... ـن لسـوء الصنيـع أو بثـلاث

فقال المهدي : بئس والله ما قلت ، ولكن احسن من ذلك :

لحقيـق ببـدرة أو بثنتيـ ... ـن لحسـن الصنيـع أو بثلاث

ووافى العسكر ولحقته الخزائن والموكب فأمر لصاحب المبقلة بثـلاث بدر دراهم(٢) .

---

(٢) مروج الذهب ص ٢٣٤ الجزء الثالث .

ومثل هذا الخليفة ، يتيح للمجتمع ان ينطلق فيلهو ويمرح ويأخذ من متاع الحياة بنصيب .

وقد كان للمجتمع البغدادي استعداده لهذا اللون من الحياة ، فجمال الطبيعة فيها ووفرة المياه والمزارع والأنهار والبساتين واعتدال الهواء تجعل النفوس نزاعة الى الاستمتاع بجمال الحياة ، يضاف الى ذلك ما كان حول بغداد من القرى الجميلة التي كان أهلها على دراية باللهو والشراب ووسائل المتعة .

٢- تكوين المجتمع البغدادي

وقد كان المجتمع البغدادي بطبيعة تكوينه مجتمعاً متعدد العناصر ، فكان فيه الأقدمون من سكان بغداد من اهل السواد الذين كانوا يعيشون على الزراعة، وهم ايضاً عناصر متعددة : منها الفارسي القديم ومنها الآرامي والنبطي ومنها العربي الذي سكنها قبل الفتح وبعده .

روى الطبري بسنده عن احمد بن حميد بن جبلة قال : « حدثني أبي عن جدي قال : كانت مدينة أبي جعفر قبل بنائها مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة، وكانت لستين نفساً منهم فعوضهم عنها وأرضاهم فأخذ جدي قسمته منها » .

وعن حماد التركي قال : «كان حول مدينة أبي جعفر قرى قبل بنائها ،فكان الى جانب باب الشام قرية يقال لها الخطابية على باب درب النورة الى درب الاقفاص وكان بعض نخلها في شارع باب الشام الى أيام المخلوع في الطريق ، حتى قطع في أيام الفتنة . وكانت الخطابية هذه لقوم من الدهاقين يقال لهم بنو فروة وبنو قنورا منهم اسماعيل بن دينار ويعقوب بن سليمان وأصحابهم » .(٣)

وكان في المجتمع البغدادي أيضاً من هاجر الى بغداد ونزح اليها من

---

(٣) الطبري ج٩ ص ٢٧٩ .

مدن العراق ، كالكوفة والبصرة وواسط والجزيرة ، ومن اصطحب ابو جعفر المنصور من رجال الدولة . ومجتمع هذه حاله في تعدد العناصر واختلاف البيئات التي نزحت منها لا بد له من أن تقترب عناصره بعضها من بعض بأن ينزل كل منها عن بعض خصائصه ليلتقي بالعناصر الأخرى ، وأن يقدم كل منها ما عنده ، مما يجعل الحياة الاجتماعية حافلة بألوان من الحضارة يلتقي بعضها ببعض ، وتتمازج وتتفاعل ، حتى ينتج منها مزاج الحضارة الجديدة .

وقد كان هذا في بغداد فاهل هذه المنطقة ورثة حضارة مادية في الطعام والشراب والبناء والموسيقى ، وسكان المدينة الأقدمون ورثة الحضارة التي قامت في وادي الرافدين من فجر التاريخ : منها حضارة مادية ومنها تراث عقلي تحدر اليهم في الفلك والتنجيم والقصص الخرافي ، والعرب رواة أدب وشعر ورواد عقيدة وشريعة ، فالتقت هذه التيارات في بغداد وخرج منها طابع جديد للحياة الاجتماعية .

ولقد كانت عناصر الحياة الاجتماعية في بغداد :

اولا — ثراء عريضاً ينصب في أيدي الخلفاء من منابع عديدة .

ثانياً — حياة عقلية راقية بلغت مبلغها من النضج وأقبلت على بغداد من كل مكان .

ثالثاً — فناً وغناء وحياة طرية مترفة ، بدأت في الحجاز وانتقلت الى الشام والكوفة ثم جنت ثمارها بغداد .

٣ـ عناصر الحياة الاجتماعية

فأما الثراء فقد تدفق على بغداد تدفق السيول يحمله الى الخليفة عماله في الأمصار . وكان مركز الخلافة يجبى اليه ثمرات كل شيء ، وتمتلىء خزائنه بالأموال. وقد بدأ الخليفة المهدي عهده يبذل الاموال وبسط يده في العطاء ،

فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائه الف الف درهم وأربعة عشر الف الف دينار سوى ما جباه في أيامه ، وكان يعرف أنه يستطيع جباية ما يملأ الخزائن من الأموال كلما احتاج اليها فلم يكن يصغي الى اقوال أصحاب بيت المال عندما يسرف في العطاء (٤).

ويبدو أن توطيد الخلافة وتأمين الاستقرار فيها قد بعث نشاطاً قوياً بالغ القوة ، جعل الثروة تنمو وتتزايد شيئاً حتى يروى ان الرشيد قبض أمواله بالصرة وغيرها فكان مبلغها نيفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات .

وبلغ الرخاء في بغداد مبلغاً عظيماً فتوافرت فيها الاغذية وكثرت ، حتى لقد رأى بعض المعاصرين فيها أيام أبي جعفر كبشاً بدرهم وجملا بأربعة دوانق والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم والرجل يعمل بالروزجار كل يوم بخمس حبات(٥) .

ولقد كان الخلفاء وغيرهم ينفقون من هذه الأموال التي كانت تجبى اليهم عن سعة ، ويبالغون في البذخ والترف ويتفننون في ذلك حتى بلغوا مبلغ الاسراف وحتى أصبح ما يروى عن بعض مظاهر حياتهم أدخل في باب الخيال وأقرب اليه منه الى الواقع .

حدث ابراهيم بن المهدي قال : «استزرت الرشيد بالرقة فزارني وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى في ما قرب اليه منها جام قريض سمك فاستصغر القطع وقال : « لم صغر طباخك تقطيع السمك؟» فقلت : « ياامير المؤمنين هذه ألسنة السمك » ، قال : « فيشبه ان يكون في هذا الجام مائة لسان » . فقال « مراقب » خادمه : « ياأمير المؤمنين فيها اكثر من

(٤) يراجع مروج الذهب ج٣ ص ٣٦ ٢.
(٥) تاريخ بغداد للخطيب ج١ ص ٧٠ .

مائة وخمسين » • فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم • فرفع الرشيد يده وحلف ألا يطعم شيئاً دون ان يحضره «مراقب» ألف درهم ، فلما حضر المال أمر ان يتصدق به وقال : « ارجو ان يكون كفارة لسرفك » •[6]

ولقد أدى بهم هذا الثراء الطائل ان يتفننوا في وجوه حياتهم المختلفة فتفننوا في الطعام والشراب وغير ذلك من وسائل العيش ، وظهرت آثار الحضارة وأمارات النعمة في كل جانب من جوانب حياتهم ، وكانوا يتهادون فيظرفون في الهدايا ، ويدلون فيها على مبلغ ما أثر الترف والنعيم في طباعهم وفي اذواقهم • فاذا أرادت ام جعفر زبيدة زوج الرشيد أن تهدي ، أهدت حقاق الذهب والفضة مملوءة بالطيب والغالية[7] وما الى ذلك من النفائس التي تنبىء عن سلامة الذوق وصفاء المزاج الى جانب الكرم وسخاء النفس •

وقد يتساءل الباحث : وهل كان لعامة الناس من هذه الثروة الطائلة نصيب ، أم انها كانت وقفاً على الخليفة واسرته ومقربيه ، وعامة الناس منها محرومون ؟ وهل يصدق وصف الحياة الاجتماعية بالترف والبذخ والسعة على المجتمع عامة ؟•

وليس تحت يد الباحث من الحقائق الملموسة ما يبيح له أن يجيب على هذه الأسئلة اجابة أكيدة أو قريبة من التأكيد • ولكنه يستطيع ان يرجح على وجه العموم ان هذا الثراء الطائل لا بد أنه كان الى حد بعيد وقفاً على طبقة خاصة ، كانت تتصرف بالثروة العامة بحيث تحيا حياة كانت مضرب المثل في الرغد والسرف والبذخ • وكانت الأموال العامة موكولا امرها الى الخلفاء وأعوانهم،يتصرفون بها كيف يشاؤون،فيغدقون هنا ويمسكون هناك•وكان عامة الناس ، وبخاصة في الاقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، يقاسون الحرمان

---

(٦) مروج الذهب جـ٣ ص ٨٠ .
(٧) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

في بعض الاحيان ، فتمنع عنهم أعطياتهم ويحرمون حقوقهم في بيت مال المسلمين، ولا سيما من لم يكن مرضياً عنه من السلطة الحاكمة وأعوانها. وكان في هؤلاء الشاكي من الاستغلال والسائل الذي يتكفف الناس والمظلوم الذي غصبه السلطان أو أعوانه حقه وتصرف الحاكمون في أمواله .

ولاتخلو كتب التاريخ من القصص التي تروى عن ظلم العمال واستيلائهم على أموال بعض الناس وأملاكهم بغير حق . كالذي يروى عن الشيخ الهمداني الذي استولى والي المنصور على أملاكه وأرسل بعه الى بغداد ، فأودع في السجن والتمس وسيلة يصل بها مظلمته الى المنصور[8] . ومثل هذا يكثر حيث يكون الامر في الدولة الى فرد لا يسأل عما يفعل ولا يلزمه قبل المحكومين الا ضميره ، فتصبح مصالح الرعية رهناً بمشيئته ومشيئة عماله ، ويتوقف العدل بين الناس وحماية أنفسهم وأموالهم عليه .

ومهما يكن من شيء فان هذا الوفر في حياة الخلفاء ومن اليهم من رجال الحكم والسلطان يستأهل أن يتخذه الباحث مظهراً اجتماعياً ذا اثر بليغ في الادب وفي الشعر على وجه الخصوص ، ولا سيما في بغداد مركز الخلافة ومستقر الحكم . ذلك لأن الأدب في ذلك العصر كان يستظل بظل السلطان ويستمد منه ويعيش في كنفه كما سيأتي بيانه فيما بعد . ولم يبلغ الأدب في ذلك العصر ان يصبح أدبا شعبيا يعبر عن حياة الجماهير أو ينطق بلسانها .

وثمة أمر آخر لا يصح أن نغفله وهو أن الشعراء كانوا ينبغون ويعرفون ويشتهرون باتصالهم بالخلفاء ، ومن كتب عليه أن يستبعد أو يتباعد عنهم فقد كتب عليه الخمول والاندثار .

٤ـ الحياة العقلية وعناصرها

وأما الحياة العقلية الراقية فقد شهد العراق بواكيرها من قبل ان تنشأ

---

(٨) مروج الذهب ج٣ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

بغداد أو تظهر الدولة العباسية الى الوجود . فكانت نشأة المعتزلة في البصرة، وكانت نهضة الرواية وعلوم اللغة في الكوفة . ثم قام الخليل وتلاميذه في البصرة والكوفة فكانت المذاهب النحوية والدراسات اللغوية والأدبية ؛ وعلى الجملة فقد قامت بغداد وربيع الفكر في ابانه والحياة العقلية مزهرة تؤذن بثمار دانية القطوف .

وقد رغب أبو جعفر المنصور أن يستكمل بناء مدينته من جميع الوجوه، وأراد أن يمكن لها في الحياة العلمية ، فدعا اليها العلماء من الأمصار من قراء القرآن ومفسريه والنحويين ورجال الحديث وأهل الرواية . دعاهم اليها من الكوفة والبصرة اللتين كانتا من المراكز المهمة للثقافة الاسلامية في ذلك الحين(٩) .

وقد مكن هؤلاء لأنفسهم في المجتمع فتكونت منهم طبقة وسطى ارتفعت بفضل الرعاية التي كانت تلقاها من الخلفاء الى أعلى مراكز الدولة ، وحلت في الدولة العباسية محل الطبقة الاستقراطية التي تبوأت بفضل الوراثة المكانة العليا في بلاط دمشق(١٠) .

ولم يقتصر المنصور على هذه الطائفة من رجال العلم ، بل لقد استدعى الى بغداد طائفة أخرى من العلماء الذين كانوا يشتغلون بالطب وما يجري مجراه من العلوم . فقد أصيب بمرض فاستدعى لعلاجه الطبيب النسطوري جرجيس بن بختيشوع رئيس مدرسة جنديسابور ومستشفاها . وكان هذا أول اتصال بين الخلفاء العباسيين وبين آل بختيشوع(١١) . ومن هنا بدأ اتصال الحياة العقلية في بغداد بالثقافات الأجنبية وعلوم الأوائل ، ذلك الاتصال الذي أفضى الى ان ترعى بغداد حركة الترجمة ونقل الفلسفة وعلوم الأوائل الى اللغة العربية .

(٩ ، ١٠ ، ١١) يراجع في ذلك

O'Leary : How Greek Science Passed to the Arabs, P. 150.

O'Leary : How Greek Science Passed to the Arabs, P.150 ...

وليلاحظ هنا أن هذه الطائفة من العلماء النساطرة والسريان انما هي بقايا العناصر السامية من سكان العراق القدماء الذين امتزجت لديهم الثقافة اليونانية بما ورثوه من ثقافات أسلافهم ، حتى أنهم حين نقلوا من علوم اليونان وفلسفتهم لم ينقلوه الا عن السريانية ، ولم يسلم نقلهم من اضافة أوتحويرأو اختلاط ، وذلك يدل ــ على الأرجح ــ على أنهم كانوا يتصرفون في هذه العلوم تصرف المتمكن ولا يتقيدون بنصوصها تقيد المقلد .

وكانت للعلماء عند الخلفاء منزلة رفيعة ومكانة قد تزيد على مكانة رجال الدولة ، وكان الخلفاء يتحملون منهم غليظ القول ويجتهدون في استرضائهم بكل وسيلة وبخاصة منهم الفقهاء والمحدثون والمتكلمون . واخبار عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة مع أبي جعفر المنصور تدل على ذلك دلالة واضحة . فقد كان يجله ويستحب مجلسه ويستزيره ، ولقد لقي منه غلظة القول وجفاء الكلام[١٢] . وكان مثله بالنسبة للمهدي سفيان الثوري المحدث المشهور[١٣].

ولم تكن هذه حال الفقهاء واهل الحديث والمتكلمين فحسب بل كان يتمتع بمثل هذه المنزلة عند الخلفاء فريق من اهل الادب ورواة الاخبار . فقد كان عيسى بن دأب يجالس الخليفة موسى الهادي ، وكان الهادي « يدعو له متكأ ، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك . وكان يقول له : ياعيسى ، ما استطلت بك يوما ولا ليلة ولا غبت عني الا ظننت أني لاأرى غيرك » . [١٤]

وبلغ من ولوع الرشيد بأهل العلم أنه كان يصطحبهم معه أيان يذهب . وقد توفي علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي وامام القراءة المشهور ومحمد بن الحسن الشيباني القاضي صاحب أبي حنيفة وهما في معية الرشيد بالري سنة تسع وثمانين ومائة[١٥] .

---

(١٢) انظر مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٢٣ .
(١٣) نفسه ص ٢٤٤ .
(١٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٤٥ .
(١٥) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٦٣ .

أما المأمون فكان أحفى الخلفاء بالعلماء واكثرهم رعاية للعلم وأهله وعناية بهم • وكان يناظرهم ويناقشهم ويجادلهم اذ انه كان على جانب عظيم من العلم والفقه والادراك لحقائق العلوم •

وقد وصف يحيى بن أكثم ما كان يلقاه العلماء والفقهاء والمتكلمون من رعاية المأمون واعزازه واكرامه وما كانوا يتمتعون به في حضرته من انطلاق وحرية بعيدين عن هيبة السلطان وقيود التقاليد الملوكية فقال :

« كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء ، فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات ، أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا اخفافكم ؛ ثم احضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ،وجددوا الوضوء ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها • فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدانوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون[١٦] • »

وقد رعى المأمون حركة الترجمة والنقل عن اليونانية ، ونشط في أيامه الاحتكاك بين الثقافات المختلفة ، وكان لاتخاذه مذهب الاعتزال أثره البعيد في اطلاق الفكر من قيد النقل والرواية ، وتجواله في مجالات جديدة ، فكان لذلك نتائجه الطيبة في العلم وفي الادب ، وكانت ثماره تلك التصانيف والتآليف المبتكرة في سائر العلوم •

ولقد واكب انشاء بغداد حدث خطير في الحياة العقلية الاسلامية ، اذ اتجه العلماء الى تمييز العلوم بعضها عن بعض والى تصنيفها وتبويبها •وقبل ان يبدأ المنصور تأسيس بغداد بعامين (في حدود عام ثلاثة واربعين ومائة)

---

(١٦) نفسه ص ٣٤٢ •

بدأت حركة التدوين . فقد شرع العلماء في تدوين الحديث والفقه وتفسير القرآن ، فصنف ابن جريج بمكة وصنف مالك الموطأ بالمدينة وصنف الاوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان الثوري بالكوفة ؛ وصنف ابن اسحق المغازي ، وصنف ابو حنيفة الفقه والرأي ، ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ، ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب ، ودونت كتب العربية والتاريخ وايام الناس[١٧] .

ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الباب ان التأليف في الفقه والرأي قد بدأ في بغداد بأبي حنيفة ، وأبو حنيفة كوفي المولد والمنشأ ، والكوفة اقرب الى التراث العراقي الغابر في بابل بنوع خاص . وفي بابل عرف التاريخ التشريع في اقدم صوره واعرقها .

وثقافة الكوفة معروفة لدى المؤرخين بأن فيها اثارة من الصبغة العراقية القديمة بخلاف ثقافة البصرة التي كانت ملتقى اجناس عدة من فرس وهنود وغيرهم . وكان ابو عمرو بن العلاء المازني ، وهو من علماء البصرة ورواتها ، يقول لاهل الكوفة : « لكم حذلقة النبط وصلفهم ولنا دهاء فارس واحلامهم »[١٨] .

ويبدو ان الحضارة العراقية القديمة او مسحة من اثارها قد تسربت الى بغداد من طريق الكوفة وعلمائها من جهة ، ومن طريق سكان بغداد الاقدمين واهل القرى المحيطة بها من جهة اخرى .

ويبدو أيضاً أن بني العاس قد آثروا ثقافة الكوفة على ثقافة البصرة

---

(١٧) ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ج ٢ ص ١١ .
(١٨) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٨٩ .
(١٩) نشرت نتائج هذه الابحاث مجلة سومر لسنة ١٩٥١ و ١٩٥٢ .

ومالوا اليها ، فغلب علماء الكوفة على بغداد ، واتصلوا بالخلفاء فقربوهم ، وكان أئمة الأدب والرواية في بغداد من الكوفة كالمفضل الضبي معلم الخليفة المهدي وكعلي بن حمزة الكسائي مؤدب الأمين . وصار امام النحاة في القرن الثالث أبو العباس احمد يحيى الشيباني المعروف بثعلب وهو كوفي، وقد أنشأ المذهب البغدادي في النحو .

ولعل من أهم الاسباب التي حملت العباسيين على ايثار الثقافة الكوفية على ثقافة البصرة ما يأتي :

أولا — إن انتقال الخلافة العباسية كان من الكوفة أو قريب منها الى بغداد فتبع علماء الكوفة انتقال الخلافة وواكبوها .

ثانياً — إن أهل الكوفة كانوا أقرب الى نفوس العباسيين من أهل البصرة لان اهل الكوفة شيعة آل البيت في حين ان البصرة كانت موطن العثمانية والزبيرية والخوارج ، ثم اصبحت موطن المعتزلة من بعد ذلك .

ثالثاً — إن الكوفة كانت ادنى الى العروبة من البصرة ، وكان ابو جعفر المنصور يولي هذا الامر عناية واهتماماً كما سبق بيان ذلك في الكلام على بغداد .

رابعاً — إن البصرة كانت موطن الاراء الجديدة والنحل الدخيلة والفرق الجريئة في العقيدة ، كالمعتزلة ؛ وكان اهلها بحكم موقعها الجغرافي متأثرين بالافكار الاجنبية وهم اصعب من هذه الناحية قياداً من اهل الكوفة، والسلطان اقل اطمئناناً اليهم .

خامساً — ان الكوفة كانت اقرب مسافة الى بغداد من البصرة .

أما عنصر الثقافة العراقية القديمة فالمظنون انه كان بين سكان القرى المحيطة ببغداد من وعى شيئاً من علوم العراقيين الاوائل ، تلك العلوم التي

كشفت التنقيبات الاثارية الحديثة عن طائفة منها يبدو انها اقدم مما عرف اليونان في الرياضة والفلك . فقد كشفت تنقيبات مديرية الاثار القديمة في تل حرمل ـ وهو موضع في شرقي بغداد ـ عن الواح استدلت بما هو مكتوب فيها على انه كان في هذا المكان معهد علمي تدرس فيه العلوم الرياضية والفلك والهندسة[١٩] .

تجمعت هذه العناصر الثقافية في بغداد والتقى بعضها ببعض وتمازجت وتفاعلت حتى آتت ثمارها في بداية القرن الثالث نهضة علمية لم يبلغها العالم الاسلامي قبل بغداد .

* * *

وتلاقت هذه المقومات الاجتماعية في المجتمع البغدادي فطبعته بطابع متميز ، عرفه التاريخ بالمزاج البغدادي واشتهر بالظرف وتذوق الحياة والاستمتاع بألوانها وضروبها المختلفة .

وعرف عن اهل بغداد انهم يحسنون التمتع بالترف وتظهر عليهم آثار النعمة مع الاحتفاظ بصفات المروءة والفتوة التي لا تبطرها النعمة ولا يفسخها الترف فيبعث في الافراد اللين والاسترخاء . وكانوا الى جانب استمتاعهم بالحياة وترفها يقبلون على العلم ويطلبون منه نصيباً حسناً . حتى لقد قال فيهم احد المحدثين « ما رأيت اعقل في طلب الحديث من اهل بغداد »[٢٠] .

اما ظرفهم فقد تحدث به طائفة من اعلام الرجال الذين وردوا بغداد كالامام محمد بن ادريس الشافعي وذي النون المصري وابي العلاء المعري من بعد . ومن اطرف مايروى في ذاك ما تحدث به ذو النون قال : « من اراد ان يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد » . قيل له : وكيف ذلك ؟

---

(٢٠) تاريخ بغداد للخطيب ج ١ ص ٥٠ .

قال : « لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيدا ، فمر بي رجـل متزر بمنديل مصري معتم بمنديل دبيقي ، بيـده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط فسألت : « هذا ساقي السلطـان ؟ » فقيل لي ، هذا ساقي العامة . فأومأت اليه:اسقني.فتقدم وسقاني، فشممت من الكوز رائحة مسك.فقلت لمن:معي « ادفع اليه دينارا » فأعطاه الدينار فأبى وقال : « لست آخذ شيئاً » ، فقلت له : « ولم ؟ » فقال : « انت اسير وليس من المروءة ان آخذ منك شيئاً»، فقلت : « كمل الظرف في هذا » . (٢١)

وصفوة القول انه اجتمع لبغداد في تلك الايام ما لـم يجتمع لغيرها من المدن ،فكان جمالها الطبيعي وعناصر الحضارة التي توافدت عليها من مناطق شتى ووفرة الاموال والارزاق فيها كل اولئك مكن لها ان تصبح مركز العلم والادب والحضارة فوق انها كانت مركز الخلافة الاسلامية في ازهى عصورها وانضر ايامها .

* * *

(٢٠) تاريخ بغداد للخطيب ج١ ص ٤٦ .

الباب الثاني

الشعر في طريقه الى بغداد

١ ـ قدم الشعر العربي

يكـاد اجماع المؤرخين والباحثين ينعقـد على أن الشعر العربي قديم موغل في القدم لا يكاد أحد يتبين أوائله في أغوار الماضي البعيد • وما يحكيه بعض المتحدثين في تاريخه من القدامى والمحدثين لا يعدو أن يكون ضربا من الحدس والظن لا يقوم لـه سند من دليل ناصع او اثبـات مقنع • ويستطيع الباحث المعاصر أن يحكم على أقوال هؤلاء حكما قد لا يخلو من وجاهة اذ يتصور ان حديثهم ذلك انما هو عن فن الشعر العربي الذي تكامل نمـاؤه وتأصلت اصوله • ولهذا نجد بعضهم يدعي ان اول من اصل اصوله ووضع له التقاليد امرؤ القيس ، ويرد عليهم آخرون بقول امرىء القيس نفسه :

عـوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكي الديار كما بكى ابن حزام

ويرون في هذا دليلا على ان امرأ القيس نفسه قد حكـم على نفسـه انه انما ينهج نهج شاعر سبقه الى الوقوف على الديار والبكاء على الاطلال •

وحكاية الجاحظ عن تاريخ الشعر انه لا يمتد في اغوار التاريخ اكثر من مائتين او ما يقاربها من السنين قبل البعثة النبوية[١] امر لا يقبله العقـل ولا يسيغه .•

ومهما يكن من شيء فان الشعر العربي ـ فيما يرجح ـ اقدم عهـدا

---

(١) كتاب الحيوان جـ١ ص ٣٦ـ٣٧ ـ يقول الجاحظ:«واما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيـس بن حجر و مهلهل بن ربيعة فاذا استظهرنا وجدنا ان له الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتين » .

واكثر توغلا في القدم مما الفنا ان نقرأ عن تاريخه في كتب القدماء من الباحثين ، وآية ذلك ان ما وصلنا منه ، مما يعدونه اقدم صورة له ، فن شعري متكامل تام التكوين سوي الخلق يبيح لنا ان نحكم انه لا بد قد خطا في التكامل والنماء والازدهار اشواطاً وقطع في ذلك عهوداً غير قصيرة .

وقد يقول قائل : واين ذهب الشعر العربي القديم ؟ والجواب على ذلك ان الرواية هي التي قضت ان لا يحتفظ منه الا بما تم تكوينه واستوى خلقه ، وان يضيع منه البدائي الذي لم يبلغ من الفنية مبلغاً كافياً .

أما ما بقي بين ايدينا من الشعر الجاهلي فيدل على ان هذا الشعر قد قطع في التقدم الفني اشواطاً ، وبلغ من التكامل الفني مبلغاً جعله قدوة تقتدى عند المتأخرين ومثلا يحتذى لديهم . فقد التزم الشعراء بعد الاسلام وفي العصر الاموي والعصر العباسي وسائر العصور طريقة الجاهليين في الشعر ، ولم يملكوا الخروج عليها او ابتداع طريقة في فن الشعر غير التي كان عليها القدماء .

ولقد التزم الشعر العربي بعد الاسلام الطريقة الفنية التي كان عليها شعراء الجاهلية فلم يكد يجد فيه جديد من حيث فنونه الاصيلة والطرائق التي نهجها الشعراء الجاهليون ، بل لقد رأينا في عهود التجديد الزاهرة — ذلك التجديد الذي كاد يعم في نواحي الحياة على اختلافها — من يدعو بقوة وعنف واندفاع الى المحافظة على عمود الشعر ، ويعيب على الخارجين عليه خروجهم ، ويؤاخذ المجددين في اسلوبه على تجديدهم .

ولقد كان للشعر في حياة العرب مكانة تزيد على مكانته عند الامم الاخرى في ما يظهر ، فكان الشعر عند العرب ديوان مفاخرهم وسجل مآثرهم ، بل كان بالنسبة اليهم فيما يبدو الاداة الثقافية الكبرى ، ولم يكن — كما هو حاله عند غيرهم من الامم — محض فن يستخدم للتعبير عن

المشاعر والانفعالات ، ويقال للتسلية والمتعة والتسرية ؛ بل يظهر للباحث في الحياة الجاهلية ـ بما يتهيأ له فيها من مادة البحث التاريخي ـ ان خلاصة الفكر والشعور قبل الاسلام قد مخضت فكان الشعر العربي في الجاهلية زبدتها وخلاصتها ، حتى انه ليستطيع ان يعده اثمن التراث التاريخي الذي خلفته تلك العصور . فقد تجمعت فيه تجارب الامة منذ قديمها السحيق حتى طلعت عليها شمس الدعوة الاسلامية في القرن السادس . ولو اراد باحث ان يقسم تاريخ الادب العربي الى عصور يختص كل منها بالفن الغالب الذي ختمه بطابعه وصبغه بصبغته لحق له ان يسمي العصر الجاهلي عصر الشعر كما يسمي عصر صدر الاسلام عصر القرآن .

وعلى الرغم من قلة ما نعرف عن المدنية العربية قبل الاسلام ، واحتمال ان تنكشف لنا منها جوانب خفية ، فاننا نستطيع بما بين ايدينا من مادة تاريخية عن تلك الحقبة ان نقول ان الشعر الجاهلي ، ما وردنا منه على قلة فيه ، هو اقوم ما فيها واصدقه تصويرا للحياة الجاهلية في معظم نواحيها او كلها .

٢ ـ مكانته في الحياة العربية (موازنا بالشعر اليوناني)

والامة العربية تختلف في مقام الشعر فيها ، ومكانه من حياتها ، عن امة عظيمة عرفها تاريخ الادب العالمي واوسع لها في مجال الخلود مكاناً ، تلك هي الامة اليونانية . فبينما نجد الشعر عند العرب تراثهم الفكري الاول الذي تمخضت فيه حياتهم الفكرية نجد عند اليونان الى جانب الشعر جوانب اخرى من الحياة العقلية ، نجد عندهم العلم والفلسفة وما خلفه عباقرتهم فيها من تراث خالد .

على ان وجود الفلسفة والعلوم عند اليونان لا يعني بالضرورة وجودها عند العرب . ولكن المبلغ الذي بلغه العرب من التقدم الفكري يجعلنا

تنتظر منهم تراثاً فكرياً أياً كان ، ويحملنا على ان نتصورهم يفكرون في الحياة فيسجلون تجاربهم الفكرية في سجل ما وبطريقة ما ، وآية التقدم العقلي عند العرب لغتهم ، تلك اللغة التي بلغت من التطور والنضج في التركيب وفي طريقة التعبير مبلغاً غير يسير ، وبلغت في التوسع في المفردات والاتساع في الدلالات مثل ذلك المبلغ •

ويلاحظ ان بين الشعر اليوناني والشعر العربي مجالا للموازنة والمقابلة يخرج بالبحث الى نتائج لا تخلو من فائدة • وبينهما من وجوه التشابه والاختلاف ما يقف الباحث على خصائص اساسية في الشعر العربي على وجه الخصوص • كل ذلك يجعل من المستحسن ان تتعرض لطبيعة كل منهما على قدر ما يتهيأ لنا من اسباب البحث والموازنة •

يمتاز الشعر اليوناني بأن له تاريخاً طويلا مستمراً يمتد من الالف الثاني قبل الميلاد الى يومنا هذا ، والشعر العربي كذلك ؛ فان تاريخه يمتد الى عصور سحيقة لا يعرف مبدؤها وهي لا تزال حتى يومنا هذا متصلة الحلقات موصولة الاسباب • على ان الاستمرار التاريخي يصدق على الشعر العربي أكثر مما يصدق على الشعر اليوناني ، اذ المعروف ان اللغة اليونانية الحديثة تختلف اختلافاً واضحاً عن اليونانية القديمة • بل ان ممن يتكلم اليونانية الحديثة ويفقهها من لا يستطيع ان يفهم اللغة القديمة وان يقرأها بله ان يتذوق ادبها • بينما نجد العربي اليوم يقرأ من الادب العربي ما يرجع تاريخه الى بضعة عشر قرناً من الزمان فيفهمه ويفقهه ويتذوقه ، بل ليس بين اساليب ادباء العربية وشعرائها — على وجه التخصيص — في هذا القرن ، وبين اساليب اهل القرن الرابع والخامس والسادس الميلادي من اختلاف كبير الا ما تقضي به سنة التطور في اضيق حدودها وفي اقصر مداها • ودارس الادب العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين يستطيع ان يجد في شعرائه وفي بعض كتابه من لا يختلف في اسلوبه عن الجاهليين الا يسيراً • والامثلة على ذلك

كثيرة تغني عن البيان .

هذا هو الوجه الاول[٢] .

والوجه الثاني ان الشعر اليوناني قد نبت في بيئته غير متأثر بمؤثرات من بيئة خارجية[٣] . ومثله في ذلك الشعر العربي ، إذ يبدو انه نبات هجان غير هجين ، لا يعرف التاريخ الادبي على وجه الدقة انه تأثر فناً من فنون الشعر الاجنبي او شيئاً معيناً من بيئة اجنبية . بل انه كان يبدو في عصر ازدهاره واكتماله فناً فريداً في الجزء الذي نبت فيه من بلاد العالم . بل نحن لا نكاد نعرف للامم المحيطة بالعرب المجاورة لهم فناً شعرياً بلغ في مدارج الرقي الفني ما بلغه الشعر العربي — كالفرس والبيزنطيين .

يضاف الى ذلك ان العرب كانوا وقتئذ في حال يغلب عليها طابع الانعزال عن الامم الاخرى ، واعني بذلك الانعزال الفكري والفني والثقافي .

ونظرة عامة في فنون الشعر اليوناني ، كما يجملها لنا مؤرخوه ، تقفنا على ما بين شعر هذه الامة العريقة وبين الشعر العربي من وجوه الاختلاف في طبيعة كل منهما وفي اغراضه وفي وظيفة كل منهما في حياة امته .

فقد كان الشعر اليوناني في اقدم عصوره وهو ما يسميه مؤرخوه بالعصر الحماسي (Epic Period) ذا فنون خمسة :

اولها : الشعر الحماسي (Epic Poetry) وهو الذي يمثله هوميروس في الالياذة والاوذيسة ، ويتميز بأن هوميروس قد اصطنع فيه الوزن السداسي Hexameter وهو وزن معقد يدل على انه وليد تطور بعيد المدى قديم العهد[٤] ، على ان لغته التي كتب بها لا تشبه اياً من اللهجات التي كانت

---

(٢) يراجع :
Encyclopaedaedea Britanica, Article: Greek Liteature Art-Poetry:

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

معروفة في اليونان حينئذ[٥] .

ومجمل ما يعرض له هذا الشعر ويدور حوله الحديث عن الابطال وعن اعمالهم العظيمة في الحروب القديمة .

الثاني : وقد ظهرت في اليونان على عهد هوميروس مدرسة شعرية اخرى عنيت بالدين والمسائل الخلقية ، وهذه المدرسة الشعرية تتمثل في هسيود قريع هوميروس وصنوه وقاهره في احدى المباريات الشعرية . وقد ترك لنا هسيود في شعره اقدم مثل لما يعرف في تاريخ الاداب بالشعر التعليمي (Didactic Poetry) .

الثالث : شعر الرثاء (Eligiac Poetry) . وقد نشأ هذا الفن بعد ان انهارت امبراطورية أغاممنون (Agamemnon) وتقسمت امارات وممالك صغيرة وتسرب اليها الفساد . فأدى ذلك الى ان يصبح فن هوميروس وهسيود ذلك الفن الرفيع المعقد غير صالح للتعبير عن مشاعر الافراد واحاسيسهم ، فاصطنع الشعر لذلك وزناً اخف واسهل هو وزن الرثاء المزاوج الذي اصبح بسرعة وسيلة التعبير عن الموضوعات المختلفة ، بما فيها المراثي واغاني الحب والحماسة وما يصلح له النثر . وقد ألف الناس هذا الفن واتسع انتشاره بينهم في ذلك الحين .

هذه هي الفنون الشعرية التي عرفها الايونيون ، اما الايليون فقد ابتدءوا في الشعر فنين آخرين :

الرابع : الشعر الغنائي المنفرد (Personal Lyric) وهو اغان قصيرة تعبر عن مشاعر ذاتية او تعالج الموضوعات بطريقة ذاتية (Subjective) وكان هذا الشعر يغنى على القيثارة (Lyre) كما تدل على ذلك تسميته (Lyric)

---

(٥) عاش هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد على وجه التقريب .

الخامس : ثم ظهر في سبارطة بعدئذ الشعر الغنائي الجمعي (Choral Lyric) وهو شعر يتحدث عن عواطف الجماعة او بعض الجماعة وكانت تغنيه جوقة يغلب ان تكون مؤلفة من فتيات تعرف بـ (Chorus) .

ويغلب على الظن ان هذه الفنون الشعرية او اغلبها كان بدائياً بسيطاً يعبر عن مشاعر الافراد واحاسيسهم كما تعبر الاغاني الشعبية . والظاهر ان الشعر اليوناني كان وقتئذ حاجة نفسية تشبه حاجة العامة في ايامنا هذه الى الغناء الشعبي او الاساطير وقصص البطولة . ونحن نستدل على ذلك من ان لغة الشعر كانت كما نقلنا عن مؤرخيه عامية او لهجة محلية . وانه كان يعالج في اغراضه نواحي ليست على جانب من التعقيد الفني في معانيها وفي مستواها الفني .

ثم تطور هذا الشعر فأصبح شعراً مسرحياً عند الاتيكيين وظهرت منه المأساة (Tragedy) والملهاة (Comedy) ويبدو ان هاتين صورتان معقدتان من صور الشعر الذي يسبق الحديث عنه ، وانهما اقرب الى ما يسمى بشعر الغناء الجمعي (Choral Lyric) يؤديه علاوة على الجوقة منشدون وممثلون يلقون هذا الشعر مصحوباً بالحركات التمثيلية على مسرح . وهذه في ما يظهر هي الصورة المثلى للشعر اليوناني في اوج اكتماله وازدهاره .

ومن يبحث في تاريخ الشعر العربي يلمس ان المراحل الاولى التي قطعها في سلم التدرج والتطور غير واضحة بل غير معروفة . انه يقع لاول وهلة على فن شعري ناضج مكتمل بالغ في نضجه واكتماله المبلغ الذي جعله جماع الحياة الفكرية للعرب ، فيه عواطفهم واحاسيسهم ومشاعرهم ، وفيه حكمتهم وفلسفتهم في الحياة ، فيه المحاجة والمحاكة والمجادلة ، وفيه ايضا الاحساس

المرهف والانفعال والعاطفة .

واذا كان بعض الباحثين يذهب ـ بحق ـ الى ان الشعر العربي قديم بسبب اكتماله من الوجهة الفنية في عروضه وفي قافيته وفي موسيقاه فاننا نستطيع ان نتخذ من معانيه واغراضه وما يحتويه من الافكار دليلا على انه اقدم مما يتصورون ويقدرون ، فهو في واقع الحال خلاصة فكرية وعصارة عقلية لا يعرف للعرب قبل الاسلام ما يصور حياتهم النفسية والعقلية غيرها . والفن لا يصل الى هذه المرتبة الا اذا مر في مدارج التطور والرقي في سبيل طويلة ، طويلة جداً .

وثمة جانب فني خطير ، ذلك ان اسلوب الشعر العربي بما فيه من ايجاز قد يبلغ درجة الرمز يدل على ان بينه وبين مرحلة النشأة الاولى تاريخاً طويلا لا يعلم مداه الا الله . ونحن نعرف عن الفنون المعاصرة انها تجنح الى الرمز والايجاز وتعرض عن الافاضة كلما امعنت في التقدم والرقي حتى ان فهمها وتذوقها يحتاج آنئذ الى شيء غير قليل من الثقافة العقلية والفنية والشعورية بحيث يتسنى لمن يتلقاها ان يفهم من القليل كثيراً ، وان يتذوق من اللمحة الخاطفة والايماءة الموجزة اشياء واشياء .

ولم يقف الامر في ايجاز الشعر العربي عند هذا الحد بل لقد تعداه الى ان انطبعت به اللغة العربية فأصبح الايجاز خصيصة من خصائصها الاصيلة .

٣ ـ غاية الشعر ووظيفته

أما غاية الشعر العربي ووظيفته في الحياة العربية فلا مراء انها كانت اوسع واعم واعمق وابعد غوراً من غاية الشعر عند اليونان ووظيفته في حياتهم . فقد كان الشعر اليوناني ـ فيما يبدو للباحث من كلام مؤرخيه ـ حاجة نفسية محضاً ، وتعبيراً عن المشاعر والاحاسيس والانفعالات ، ومتعة

فنية تتغذى بها العواطف ، وكان تراث اليونان الفكري يتمثل في الفلسفة والعلوم وما ترك مفكروهم وفلاسفتهم من الاثار في هذا الباب ، في حين نجد الشعر العربي حاجة نفسية وفكرية في الوقت نفسه ، فيها ما اشرنا اليه من تسجيل تجارب الامة في حياتها على اختلاف الوانها وتشعب اطرافها .

وقد تنبّه الى ذلك نقاد الشعر القدماء فقال ابن رشيق في فضائل الشعر العربي :

« ومن فضائله ان اليونانيين انما كانت اشعارهم تقيد العلوم والاشياء النفسية والطبيعية التي يخشى ذهابها . فكيف ظنك بالعرب الذي هو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم » .(٦)

واحسب ان هذا الامر واضح لا حاجة به الى مزيد من التفصيل والتمثيل ، فشعر زهير بن ابي سلمى وما فيه من نظرات في الحياة الاجتماعية والعلاقات الانسانية ، ومعلقة الحارث بن حلزة اليشكري وما فيها من استخدام الأدلة العقلية ومقارعة الحجة بالحجة مما يكفي للتدليل على وذلك ويغني عن المزيد .

ومما هو جدير بالتنويه في الصورة الخارجية للشعر العربي ان أوزان القصيدة قد وضعت لتستوعب اغراض الشعر المختلفة المتشعبة ، فان بعضها يطول وينبسط وبعضها يمتد حتى يكاد الشاعر يكون فيه أشبه بالخطيب او الناثر ، وبعضها يسرع ويتتابع وتتقارب تفاعيله حتى لايصلح للانشاد والالقاء بل هو بالغناء أشبه وله اصلح ولهذا راجت سوق هذا الأخير يوم ازدهر الغناء وشاع . وتأثر الشعر بالموسيقى فظهر الاهتمام بالأوزان القصيرة بل شاعت الأوزان المجزوءة التي تنسجم مع الايقاع الموسيقى وتلائم الأداء الغنائي .

---

(٦) العمدة : ج ١ ص ٩ .

ومن المؤسف حقاً ان دراسة اوزان الشعر من حيث طولها وقصرها ومن حيث شيوع استعمالها في العصور الادبية المختلفة ومن حيث استخدامها في الاغراض المختلفة دراسة لا تزال تفتقر اليها افتقاراً شديداً ونشعر اننا في حاجة شديدة الى معرفة دقيقة لكل تلك المسائل حتى نستطيع ان نلقي بالأحكام في مثل هذه الامور متأكدين متروين من غير مجازفة ولا شطط •

ومع ذلك نستطيع ان نقول في غير تردد ولا تحفظ إن القصيدة قامت عند العرب مقام الخطبة والمقالة والرسالة ، وانفردت بالمكانة الاولى في الأدب ، فلم يزاحمها من فنونه شيء آخر • ولعل ذلك من الاسباب التي يمكن أن نحلل بها تأخر النثر الفني في الظهور • بل لعله لولا القرآن الكريم لما اسرع النثر الفني بالظهور بعد الاسلام •

وصفوة القول ان الشعر العربي في العصر الجاهلي وفي غيره من عصور الأدب يختلف في طبيعته وفي وظيفته ومكانته من الحياة العربية عن الشعر عند الأمم الاخرى • بل ان مفهوم الشعر الذي اقتبسه بعض مؤرخي الادب العربي المعاصرين عن الآداب الغربية لا يخلو من الضيق اذا قيس بمفهوم الشعر عند العرب وفي الجاهلية وصدر الاسلام على وجه الخصوص •

ذلك انه عند الأمم الاخرى تعبير ذاتي عن العواطف والمشاعر والانفعالات • في حين انه عند العرب اداتهم الثقافية الكبرى ووسيلتهم الأولى في التعبير عن أغراض الحياة الخطيرة ، سواء في ذلك العواطف والمشاعر والأفكار والآراء ووجهات النظر في الحياة وتأملات الشاعر في الكون • ووظيفته في الحياة العربية التعبير عن كل ذلك بطريقته الفنية المألوفة سواء فيها الجانب الذاتي (Sabjective) والجانب الموضوعي (Objective) . • بل قد نستطيع ان نقول ان الشعر عند العرب اسلوب

من اساليب التعبير واسع المدى فسيح الارجاء ، ومدلول لفظه في اللغة من ناحية وتعدد أغراضه وموضوعاته وتداخلها في اغراض النثر من ناحية اخرى يؤيد ذلك ويأخذ بناصره .

أما مدلول لفظه اللغوي فيشتمل على الاحساس والعلم والإدراك ، ولعل العرب كانوا يريدون به أو يفهمون منه كل اسلوب جميل غني في التعبير عن الأفكار ، ولذلك رأيناهم حين نزل عليهم القرآن الكريم فراعهم ببلاغته وفصاحته وجمال أسلوبه لم يجدوا ما يتهمون به الرسول عليه الصلاة والسلام إلا انه شاعر « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » « أم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون» . كأنهم كانوا يرون ان الكلام البليغ والأسلوب الرائع لايمكن ان يكون إلا شعراً . وقد رد عليهم القرآن الكريم هذه التهمة في اكثر من موضع كما في قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » .

كل ذلك يدلنا على ان الشعر كان مبلغ القوم من العلم وأقوم ما كانوا يحتفلون به من التراث .

ونحسب ان من أسباب ذلك ان العرب الشماليين ــ وهم غاية ما وعى البحث التاريخي عن العرب ــ كانوا عزلاً من مظاهر المدنية الأخرى وخلاء من وجوه الحضارة التي كان عليها الجنوبيون ، أو ان مظاهر الحضارة الأولى قد تنوسيت فلم يبق منها مايعتزون به غير الشعر وهو غاية ما وعته أجيالهم وتوارثته خلفاً عن سلف . ولعل في مطاوي التاريخ مانجهل من حضارة ما قبل جاهليتهم الاولى ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

٤ ــ الشعر بعد الاسلام

وجاء الاسلام والشعر ــ كما صورت ــ جماع الحياة العقلية للعرب ومستودع لأجلّ ما عندهم من أفكار ومشاعر ومدخر لحياتهم بما فيها من

الجليل الخطير وغيره ، فكانت آيتـه العظمى ومعجـزته الكبرى القـرآن أسلوب في الأدب جديد اصيل لم يعرفوه من قبل ولم يألفـوه ، لقد ظنه بعضهم شعراً فنفى ذلك عن نفسه ، وظنه بعضهم سجعـاً كسجـع الكهان فرفع نفسه عن ذلك .

لقد راعهم هذا الحدث الأدبي الجليل فأصابهم منـه ذهول وحيرة ووجوم ، تحداهم ان يجاروه فلم يبلغوا في مجاراته شيئاً ، بـل تحداهم ان يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

وكان طبيعياً ان يزلزل هذا الحدث الفني العظيم كيان الشعر ، وأن يبعث البلبلة في نفوس الشعراء حين وجدوا انفسهم تجاه اثر فني لم يألفوا طريقته ولم يتعودوا اسلوبه ، فشغل بعضهم بتدبره وتذوقه وادراك مراميه وأعرضوا عن الشعر استغناء به واكتفاء كما كان شأن لبيد بن ربيعـة ، وفعل مركب النقص في المعاندين المكابرين فعله فأقعدهم عما كانوا يأتون به من جيد الشعر قبل نزول القرآن .

على ان من حق البحث العلمي علينا ان نلاحظ ان قدراً كبيراً من آثار هذا العصر قد ضاع لاسباب منها : اولا هبوط قيمته الفنية في انظار الناس بعد الذي رأوا في القرآن . ومنها ثانياً انه كـان يعـادي الدين الجديـد ويناوىء اهله ، او كان اكثره كذلك . ومنها ثالثاً ان الناس انشغلوا بقراءة القرآن ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وبمشاغل الدعوة عـن رواية الشعر وعن قوله . روى ابن سلام بسنده عن عمر بن الخطاب انـه قال : «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه ، فجـاء الاسـلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والـروم ولهيـت عن الشعر وروايتـه »[٧] .

---

(٧) طبقات الشعراء ص ١٠ ط . ليدن .

وأدى ذلك بالشعر الى ضرب من الهجران ، فانزوى واصابه شيء من الاهمـــال .

وجملة الامر ان الباحث في تاريخ الشعر العربي يلاحظ في وضوح ان نزول القرآن قد كان هزة فنية فكرية عنيفة اصابــت الشعر اصابة بالغة ، فتوارى عن الانظار وانكمش ، وانكسف شعاعه تجاه هذا الاثــر الادبي الذي انزل بلغته وبألفاظه ، ولكنه كان غريباً عليه في اسلوبه وفي طـريقته الفنية . ومما زاد في اثر هذه الهزة الفنية انه تحدّاهــم ان يأتوا بمثله « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور من مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » . فوقفوا حيال ذلك مبهوتين ، واستسلم له طائفة من بلغاء العرب ، وآمنوا بأنه ليس من انشاء البشر واشتغلوا بدراسته وانصرفوا الــى هديه .

ومهما اطلت في الوقوف عند هذه المسألة فاني اعني ان انبــه الــى أمرين اثنــين :

الأمر الأول ان ضعف الشعر وإعراض المجتمع العربي عنه بعد الاسلام لم يكن وليد ذم القرآن للشعر وعيبه على طائفة من الشعراء من ناحيـــة ، ولم يكن نتيجة انشغال المسلمين بالفتوح ونشر الدعوة من ناحية اخرى ، اقول ان ذلك لم يكن هو السبب الوحيد بل لم يكــن هو السبب الرئيس وإنما كان في ما اخال سبباً ذا قيمة ثانوية بالقياس الــى السبب الفني الذي ألمــت به قبل .

ويؤيد هذا الذي اذهب اليه ان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يلبث ان شعر بالحاجة الى الشعر ، في ما كان بينه وبين قريش ، فدعا حســان ابن ثابت ليكون لسانه الناطق بالشعر ، وأذن له ان يجيب شعراءهم ويــرد

عليهم وعلى سواهم من خصومه[٨] • وكان يقول له « قل وروح القدس معك » •

وقد سبقت الاشارة الى ان لبيد بن ربيعة وهو من فحول الشعراء في الجاهلية قد هجر الشعر بعد اسلامه وعكف على القرآن يتذوقه ويجد فيه طلبته من الفن الأدبي الرفيع • ولم يقل من الشعر إلا البيت او الابيات في معان قريبة من معاني القرآن كنحو قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

أما الامر الثاني فهو ان القرآن قد رسم في الادب العربي نهجاً بيانياً فنيا أوفى بالحاجة البيانية وأكثر حرية في التعبير عن الافكار والمشاعر • اريد ان اقول ، ان القرآن هو الذي فتح للادب العربي باب النثر الفني الذي يلاقي الشعر العربي في امور ويفارقه في امور ، منها : التحرر من القيود الفنية التي ورثها من عصور جاهليته (الاوزان والقوافي) • وليس ادل على انه يلاقي الشعر العربي في بعض خصائصه الفنية من ان القرآن كان — ولا يزال — يرتل انغاماً لها في الموسيقى العربية قديماً وحديثاً اثر بعيد جداً •

وكان لابد للشعر بعد هذه الرجة العنيفة من افاقة يفيقها ، فأجمع امره بعد استقرار الأمر للدعوة الجديدة ، وادرك انه لم يعد كما كان قبل نزول القرآن مجمع الافكار والمشاعر ، فاتخذ لنفسه ناحية هي به اخلق وهو بها اولى ، وتحول عن اغراضه المتشعبة الاطراف الى التعبير عن العواطف الذاتية • وعدل عن ان يكون لساناً للمجموع يدفع به الشاعر عن قومه وعن عشيرته •

---

(٨) روى ابن رشيق بن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبرا ينشد عليه الشعر • (العمدة ج ١ ص ٩) •

ويظهر هذا جلياً في البيئة العربية الاصلية التي فيها نشأ الشعر وفيها تأصلت اصوله ، وهي الجزيرة وما اليها ، فصرنا نرى الشعر بعد افاقته من الهزة الفنية العنيفة يغلب ان يكون غزلا ونسيباً ، يعكف فيه الشاعر على دواخل نفسه فيصورها ويعبر عنها ، أو يصف ما يؤثر فيها وصفاً ينتزعه من قرارة نفسه ، او بعبارة اخرى نستطيع أن نقول على وجه العموم ان الشعر قد جانب ما نسميه الآن بالموضوعية (Objectivity) وهان أمرها عليه لأنه ألفى في القرآن اسلوباً هو أخلق بالتعبير عنها وأكثر وفاء بحاجتها . وان جانب الفردية او الذاتية (Subjectivity) اصبح شغله الشاغل لأن هذا الجانب لايكاد يصاح له على وجه العموم الا الأسلوب الشعري ، ومايشارك اللفظ فيه في التعبير عن المشاعر من موسيقى الايقاع (الوزن) وموسيقى التناسق (القافية والرويّ) .

على ان أثر القرآن لم يقتصر على ذلك بل تعداه بالطبع الى التأثير في أفكار الشعر و(معانيه . وذلك امر لايتسع المجال هنا للكلام عليه بل يكفي ان أشير الى ناحية واحدة فيه : هي تسامي العواطف عند بعض الشعراء ونشوء ذلك اللون الفريد من الشعر الغزلي العفيف الذي ترفع عن مطالب الجسم وحاجاته وغرائزه الى نوازع النفس وعواطفها المتسامية ، وهو الشعر الذي عرف في تاريخ الأدب العربي بعد عصر القرآن بالحب العذري [٩] .

وهذا الموضوع على خطورته وعظم شأنه لايزال لم يوف حقه من العناية والدرس في تاريخ الادب العربي خاصة ، وفي تاريخ الفكر العربي

(٩ ــ ١٠) لعل مما لا يخلو من فائدة ان اشير الى خاتمة البحث الذي كتبته عن الحب العذري منذ بضع سنوات واشرت فيه الى الافاق التي يمكن ان تتفتح للباحثين من العناية بهذا الموضوع وتبين آثاره القريبة والبعيدة في تاريخ الادب العربي .

عامة ، وهو من مظاهر الأصالة الرائعة الحقيقة بالدرس المستفيض والعناية والاهتمام[١٠] .

٥ ـ حفاظ العراق لتراث الشعر القديم

ومن الأمور الجديرة بإنعام النظر ما يلاحظ على البلاد الاسلامية من التحول الذي برزت صورته في اواسط القرن الأول الهجري بعد استقرار الأمر للدولة الجديدة . فقد اعتزل الحجاز خضم الحياة السياسية المتلاطم بعد الذي كان من اندحار الحركات السياسية فيه ، كحركة ابن الزبير ، وانصرف أهله الى ناحيتين بارزتين في حياة ذلك العصر ، أولاهما ، الحفاظ على ميراث الرسول في الحديث وتفسير القرآن بالرواية والدراسة والنقل. والأخرى ، لهو" أقرب الى البراءة منه الى الفجور ، ونهضة فنية شعرية غنائية موسيقية . هذا الروح الديني السمح أضفى على النفوس رقة ودماثة ولينا ، وتلك الفنون الجميلة أعانت على تلك الرقة والدماثة .

وأصبح الشام مركز السلطان ومقر الخلافة ، تختلط فيه ألوان الحياة وتمتزج حتى لايكاد يتميز بعضها عن بعض ، وحتى ان الباحث لا يستطيع أن يتبين لهذه الفترة من تاريخ حياته لوناً ولا طعماً .

أما العراق فكان في هذه الحقبة مصطرع المذاهب السياسية والفرق الدينية ومعقل المعارضة للحكم الاموي على اختلاف نزعاتها وتعدد مناحيها . وكأن الحياة الجاهلية بما كان فيها من عصبيات قبلية ونزوات تناقض الحياة الاسلامية بعض الشيء قد وجدت لها وزراً في العراق تلجأ اليه وتعتصم به بعد ان انهزمت في الحجاز وفي البلاد القريبة منه .

ولعل من اسباب ذلك ان العراق كان حتى في العصر الجاهلي موطناً لألوان متناقضة من ألوان الحياة ، فقد كانت فيه الحضارة وما تتميز به

من لين ويسر ورخاء ، وكانت فيه البداوة وما يلوذ بها من عصبيات وخصومة وشقاق • فقد كانت الحيرة في عهد المناذرة مركزاً من مراكز المدنية في الهلال الخصيب وهي على طرف الصحراء ، وكانت الكوفة بعد الاسلام كذلك عاصمة الامام علي ومركزاً من مراكز الحضارة الاسلامية في العراق وهي على طرف الصحراء ايضاً • كما ان بادية البصرة والجزيرة كانتا موطناً من مواطن البداوة التي احتفظت بها وحافظت عليها حتى بعد ان تم الامر للدعوة الاسلامية •

ولعل السر في هذا الوضع الذي لايخلو من الغرابة ان العراق هو الملاذ الوحيد للعربية واهلها من الجهة الشرقية • وعند حدوده من الشرق يتغير اللون والوجه واللسان • فكأن ذلك جعله مدخراً للعروبة بماضيها الجاهلي وحاضرها الاسلامي لأن اقل تسامح او تساهل في هذه المقومات الجنسية والقومية يعرض كيانه العربي للانهيار وينذره بغلبة الجوار الاعجمي عليه .• ومثل هذا التعصب وتلك المحافظة مألوفة في البيئات التي تحس ان خطراً خارجياً يتربص بمقوماتها وخصائصها فتحاول ان تدفع ذلك الخطر بشدة الاستمساك بتلك الخصائص وفرط الاعتزاز بها •

وكأن العراق قد خلا ، بعد الحوادث السياسية العنيفة فيه ، الى الجانب القديم من الحياة الادبية ، فأصبحنا نرى القبائل فيه تنتج الشعراء الذين ينافحون عنها ويدفعون في وجه خصومها ويشيدون بمفاخرها • يؤيدون الدولة مرة ، ويعارضونها مرة ، تستغلهم سلطاتها في أغراضها تارة ، وتضرب على ايديهم تارة اخرى • وأصبح الشعر في العراق استمراراً للشعر الجاهلي الى حد بعيد ، وانتهى الى الشعر العراقي ميراث الشعر الجاهلي فكان فيه فحول الشعراء الذين حفظوا للشعر العربي القديم ماضيه وتقاليده •

وقد أعان على ذلك أو حمل الشعراء عليه ان العراق كان من الوجهة

السياسية والاجتماعية مجال نشاط عنيف ، فقد غذي بالمعارضة السياسية منذ أن وقعت فيه موقعة الجمل ، وكان موطن الخصومات بين السابقين من رجال الاسلام كعلي وعائشة وطلحة والزبير • وكان فوق ذلك يجاور المواطن التي انتقضت على الاسلام وارتدت عنه وظهرت فيها النبوات الكاذبة كاليمامة التي ظهر فيها مسيلمة الكذاب وسجاح ومن اليهما •

وكانت الحالة الاجتماعية فيه ذات حدين متناقضين : المدن التي ورثت حضارته القديمة أيام البابليين والمناذرة من بعد ، ووعت شيئاً من ثقافتها وأسلوب الحياة فيها ، والبدو الذين أقاموا على طراز الحياة الجاهلية ولم ينل الاسلام حياتهم جملة بالتطوير والتبديل •

لهذه الأسباب أقام الشعر في العراق على القديم بل لعله قد زاد عليه عنفاً واندفاعاً ، وأصبح أمكن في الحياة العامة في السياسة والاجتماع ، واتخذت منه الاحزاب السياسية والدينية ألسنة تناضل بها وتكافح ، فكان للعلويين شعراؤهم وكان للخوارج شعراؤهم ، وكانت النزعة القبلية الموروثة قد اتخذت في بعض الأحيان صفة رسمية ــ كما يقال ــ إذ وجدت من السلطان ــ سلطان الخلافة والولاية ــ ما يبعث فيها القوة وما يتخذها سنداً وعوناً في تنفيذ أغراضه ، وفي إيثار بعض القبائل على بعض واصطناعها اعترافاً بما أسدته اليه ، أو إبعادها ومعاداتها لوقوفها في وجهه وتأييدها لخصومه ، فكانت ثمرة ذلك النقائض بين الفحول كجرير والفرزدق والأخطل والراعي والقطامي[11] •

أما الحجاز فقد انكمش بعد ان زايله السلطان وانطوى على نفسه وانصرف عن السياسة والأمور العامة الى الدين واللهو • ولعل مرد ذلك الى

---

(١١) للمزيد من التفصيل يراجع تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب .

أن انتقال الخلافة الاسلامية عنه الى الكوفة والشام قد أشعر أهلـه انهم ليسوا بذوي حظوة عند السلطان ، وقد أبعد ذلك عن الحجاز طائفة كبيرة من ذوي المكانة الاجتماعية والسياسية سواء منهم من كان في جانب علـي ومن أيد معاوية وأسرته من بعده • ويبدو أنه لم يقم في الحجـاز إلا قوم يؤثرون السلامة ويرضون بالعيش الهادىء الرتيب والحياة الوديعة المستقرة، منصرفاً بعضهم الى العبادة وكتاب الله وحديث رسول الله ، ومنشغلاً بعضهم الآخر بالقيان والمغنين ومنغمساً في الترف والملذات • والكل يلقى على ذلك تشجيع السلطان وإمداده اياه بما يعينه على المضي في طريقه[١٢] •

ولم يكن اهل الحجاز ــ على ما يبدو للباحث ــ أهل كفاح ومناضلة ، ولم يكن أحد من الأحزاب المتناحرة يطمع منهم في شد أزره ، ولذلك نرى الحسين بن علي يتخذ من أهل العراق أنصاراً له في دعوته ، ويتخـذ من العراق نفسه مجالاً لها ، ثم ينتقل هو بنفسه الى العراق ليقـارع القـوة بالقوة • ولو كان يعلم في أهل الحجاز قدرة على ذلك لبقي في الحجاز واتخذ من أهله أعواناً له وأنصاراً •

وأحسب أن من أسباب ذلك ما أصاب الحجاز ومكة والمدينة بوجـه خاص على يد الحجاج بن يوسف الثقفي لما أخمد ثورة ابن الزبير فنصـب المنجنيق في مكة وأوقع في أهل المدينة ما أوقعه بهم وفي وقعة الحرة فبعث ذلك في النفوس يأساً وقنوطاً وخلق فيها ضرباً من الاستكانة والاستسلام وإيثار الحياة الهادئة الساكنة •

ومن أجل ذلك اتجه الشعر في الحجاز وجهته الجديدة التـي كادت تقطع ما كان بينه وبين القديـم •

ولا ننسى أن الاسلام قد رفع شأن قريش وأسطع نجمها في الحجـاز

---

(١٢) يراجع حديث الاربعاء للدكتور طه حسين في الكلام على الغزل الحجازي •

فقبضت على ناصية التوجيه في حياته ، وليس لقريش ماض في الأدب والشعر يعتد به ، بل كانت على وجه العموم مشتهرة بالتجارة وبأن مقاليد البيت الحرام قد آلت اليها .

وصفوة القول ان الشعر العربي كان في العصر الأموي ربيب هاتين البيئتين ــ العراق والحجاز ــ ولم تنازعهما الشام أو مصر زعامة الشعر في ذلك الحين ، وذلك لأن الشام في مايظهر لم تخلُ للأدب والثقافة من جراء انشغالها بأمور الحكم ، ومن الملاحظ ان مقر الحكم ومركز السلطان قلما يتاح له أن يكون ذا تأثير في توجيه الأدب والشعر ، ذلك لأن المعارضة ــ وهي التي تؤرث دواعي الشعر السياسي ــ تكون في المركز على وجه العموم اضعف وأخفت صوتاً وأضأل نشاطاً . يضاف الى ذلك ان الشام لم ترث بيئة شعرية ولم يتح لها تراث شعري كالذي كان في العراق والحجاز ، ويبدو انها كانت ــ الى حد كبير ــ خلواً من الرواة والحفاظ الذين يربطون الماضي بالحاضر ، ولذلك كانت في الشعر عالة على العراق والحجاز كما هو معروف .

٦ ــ بواكير التجديد في الشعر

وقد تميز العصر الأموي بظواهر جديدة في الشعر كانت بواكير للتجديد الذي اصابه في العصر العباسي وفي بغداد على الخصوص . ومن الملاحظ انها كانت في جملتها آثاراً للتبدل الذي طرأ على الحياة العربية فوصلها بالامم الاخرى التي دخلت في الاسلام وأخذت تشارك في الحياة الاسلامية فلم تعد وجوه النشاط فيها وقفاً على العرب على رغم النزعة التي كانت سائدة عند خلفاء بني أمية من الاستمساك بالعرب ومحاولة إيثارهم وحدهم بمقام التأثير والتوجيه في الحياة الاسلامية . إلا أن عامل التطور قد فعل فعله وأظهر أثره،

فتجلت آثار الحياة الحضرية في الشعر على الخصوص وبرزت هنا وهناك مؤذنة بالتحول الخطير الذي شهده الشعر في بغداد بعد ذلك ، وبعد ان تمكنت الحضارة ورسخت أركانها ولم يعد يحول بينها وبين الاعلان عن نفسها ما عرفناه في العصر الأموي من الحرص على المحافظة والاستمرار على القديم .

وكان من أهم تلك الظواهر التي آذنت بالتجديد في الشعر ما يأتي :

١ ــ مشاركة غير العرب في الشعر وظهور شعراء منهم فرضوا أنفسهم على الحياة الأدبية وبلغوا فيها مبلغاً لفت اليهم أنظار النقاد ومؤرخي الأدب .

٢ ــ تأثر الشعر بالحياة العقلية واستخدامه طريقة الحجاج والمناقشة والاستدلال .

٣ ــ مسايرة الشعر للحياة الحضرية التي شاع فيها اللهو والشراب والغناء ، واتخاذه اياها موضوعاً له يستأهل أن يتفرغ له الشعراء ويصرفوا اليه اهتمامهم .

أما مشاركة غير العرب في الشعر فكانت أمراً طبيعياً بعد الذي كان من اندماج طائفة منهم بالحياة العربية وصيرورتهم جزءاً منها .

وقد كان طليعة هؤلاء شاعران من الموالي تحدرا من اصل قديم الصلة بالعرب وهو الجنس الافريقي . هما سحيم عبد بني الحسحاس ونصيب ابن رباح .

أما الاول فقد عاش في صدر الاسلام ويقال إنه أدرك الجاهلية وهو بذلك ليس نتاجاً للعصر الأموي وإنما كان العصر الاسلامي ذا أثر في ابرازه وفي سيرورة شعره ولاسيما إذا لاحظنا الصلة بينه وبين الشعراء الذين تلمذوا وترسموا سبيله في شعره .

وأما الثاني فقد نشأ في العصر الأموي وتأثر به ولقي من عصبية الشعر

للعرب ودهشته لأن يجرؤ عليه مثله حتى استطاع أن يمكن لنفسه في مجاله .

كان سحيم بن وائلة عبداً لبني الحسحاس وكان يرتضخ لكنة أعجمية ، عاش في صدر الاسلام وأنشد عمر بن الخطاب قصيدته اليائية التي أولها :

أمامة ودّع ان ترحلت غاريا   كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

فقال له عمر : « لو قلت شعرك مثل كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً لأعطيتك عليه » وقيل انه قال له : « لو قدمت الاسلام على الشيب لأجزتك » .

وقتل سحيم في خلافة عثمان حوالي عام ٣٥ للهجرة . ويروى انه قتل لما اطال التشبيب بنساء قومه وتحدث عنهن في شعره حديث الماجن المتهتك(١٣) .

وتأتي مكانة سحيم في تاريخ الشعر من انه يقع في منزلة وسط بين شاعرين كبيرين ويقوم بينهما مقام حلقة الوسط ذانك هما امرؤ القيس وعمر بن ابي ربيعة .

وهو في ما يظهر مقلد لامرىء القيس في قصصه الغزلي وفي حديثه الصريح المكشوف عن النساء وعلاقاته بهن حيث يقص ما كان بينه وبينهن في تفصيل وفي دقة ، ويندمج في حديثه بهن اندماج امرىء القيس . وهو ايضا استاذ لابن ابي ربيعة في غزله الذي كان يحكي فيه احاديث النساء على صورة لا نكاد نعرفها عند احد غيره من الشعراء ، ويقرب في شعره من طبائعهن حتى كأنه احداهن .

على ان سحيماً يختلف عن امرىء القيس وعمر كليهما في امر مهم تبدو شخصيته من خلاله في شعره ، ولولا ذلك لاستطعنا ان نضيف بعض شعره لامرىء القيس وننسب بعضه لابن ابي ربيعة ، فلا يحس الفرق بين شعره وشعرهما بوضوح على الاقل . هذا الامر هو مركب النقص الذي تتأصل

---

(١٣) مقدمة الديوان ص ٥ .

فيه شخصية سحيم وتبرز مختلفة عن صاحبيه . فأما امرؤ القيس في نسيبه فتى من ابناء الملوك منعماً يفتن النساء ويفتتن بهن ، ويصبو اليهن ويصبون اليه ، وهو في كل ذلك مكتمل الرجولة قوي الشخصية . واما عمر بن ابي ربيعة فيدل على النساء بجماله ويمتزج بهن في حديثه وفي قصصه حتى ينقلب واحدة منهن .

لكن سحيماً يتحدث عن صاحباته فلا ينسى انه اسود رث القتب بالي العباءة لا يملك ان ينال منهن ما ينال غيره :

اشارت بمدراها وقالت لتربها	أعبد بني الحسحاس يزجي القوافيا
رأت قتباً رثاً وسحق عباءة	وأسود مما يملك الناس عاريا
يرجّلن أقواما ويتركن لمتي	وذاك هوان ظاهر قد بدا ليا
فلو كنت ورداً لونه لعشقنني	ولكن ربي شانني بسواديا
فما ضرني ان كانت أمي وليدة	تصر وتبري باللقاح النواديا

ولعل هذا الشعور بالنقص قد خلق في نفسه توهم العظمة والقدرة على ان ينال من نساء قومه ما لا يحل وما لا يرتضى ، فصار يشنع عليهن في شعره تشنيعاً افضى به الى القتل في النهاية . وذلك امر معترف به في علم النفس فان الشعور بالضعة (Inferiority Feeling) قد يفضي احياناً الى ما يعرف بالعظمة (Superiority Feeling) .

وسحيم ايضا يظهرنا على بادرة من بوادر التطور والتجدد في الشعر ذلك انه وقف شعره على نفسه واتخذ منه اداة للتعبير عنها من دون ان يلتفت الى وظيفة الشعر في حياة الناس واغراضه التي كان يتصرف فيها الشعراء كالمدح والهجاء والمراثي ونحو ذلك .

* * *

وكان نصيب بن رباح ابن سبيّين نوبيين لخزاعة في رواية ، وفي رواية اخرى انه كان رقيقاً مملوكاً لبعض بني كنانة فاشتراه منهم عبدالعزيز بن مروان ، وفي رواية ثالثة انه من قضاعة وان امه كانت أمة سوداء فوقع عليها سيدها فأولدها نصيباً ، ثم وثب عليه عمّه بعد موت ابيه فباعه من عبدالعزيز بن مروان(١٤) .

ويصفه مؤرخوه بأنه كان اسود اللون خفيف العارضين ناتيء الحنجرة (١٥) .

وعلى اية حال فقد نشأ نصيب نشأة العبد يشعر انه من طبقة لا تساوي سائر الناس ، وكانت نشأته ـ بالضرورة ـ نشأة غير الاصيل في المجتمع الذي يشعر ان حدوده في الحياة الاجتماعية مقيدة باصله وبمركزه الاجتماعي ، على ان نصيباً كان موهوباً تخطت به مواهبه حدود المنشأ الوضيع والمربى الذي يقعد بالموهبة ويقضي عليها ، وتحدت قدرته الشعرية نظرة المجتمع اليه وحسبانه اياه عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء . وله مع الفرزدق حديث يدل على ذلك حين عرض عليه شعره فثبط عزيمته وفتر همته حسداً منه وانانية . قال نصيب : « قدمت المدينة فوجدت فيها الفرزدق في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرجت اليه فقلت أنشده واستنشده وأعرض عليه شعري فأنشدته فقال لي : « ويلك ، أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك ؟ » قلت : « نعم . » قال : « فلست في شيء ، ان استطعت ان تكتم هذا على نفسك فافعل » الخ(١٦) . ولكن نصيباً ـ كما اسلفنا ـ قد استطاع أن يفرض نفسه على الشعر وأن ينال مكانه بين الشعراء .

---

(١٤) يراجع الاغاني ج ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(١٥) يراجع الاغاني ج ١ ص ١٣٢ .
(١٦) الاغاني ج ١ ص ١٢٦ .

ومن اهم ما يلاحظ في شعر نصيب تلك الطلائع التي تقدمت النهضة الفنية التي حمل لواءها المولدون في العراق بعد ذلك •

اننا لنجد في شعره فنوناً من البديع تدل على انه كان يعنى بصياغة شعره ويقصد فيه الى التفنن • ومن تلك الفنون التشخيص في قوله يمدح سليمان بن عبدالملك :

أقول لركب صادرين رأيتهم ... قفا ذات أوشال ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان انني ... لمعروفه من آل ودان طالب
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وإنطاق الحقائب بالثناء تشخيص جميل من غير شك •

وهو يستخدم التحسين اللفظي فيطابق ويقابل ويرد اعجاز الكلام على صدره ويقسمه تقسيماً يدل على براعة في الصنعة يعينه على ذلك طبع موات وسليقة حسنة • مثال ذلك قوله :

أرق المحب وعاده سهده ... لطوارق الهم التي ترده
• • • • • • • • • ... • • • • • • • • •
وذكرت من رقت له كبدي ... وأبى فليس ترق لي كبده
لا قومه قومي ولا بلدي ... ـ فنكون حيناً جيرة ـ بلده
ووجدت وجداً لم يكن أحد ... من أجله بصبابة يجده
الا ابن عجلان الذي تبلت ... هند ففات بنفسه كمده

كان نصيب اذن طليعة من طلائع التفنن في الشعر لم يلتفت اليها مؤرخو الادب ، وكان في ما يظهر رأس الطبقة التي عنيت بفنية الصورة في الشعر أعني بها طبقة أهل البديع كبشار ومسلم بن الوليد وأبي تمام •

وثمة ظاهرة أخرى كان نصيب فيها ايذاناً بتحول الشعر الى فن مصنوع يقوم على الروية ، ولا يطمئن الى ما يأتي منه عفو الخاطر ، وقد

اجتمع نصيب بالكميت وذي الرمة فأنشد الكميت قوله :

هل انت عن طلب الايناع منقلب

حتى بلغ الى قوله :

وهل ظعائن بالعلياء نافعة وان تكامل فيها الأنس والشنب

فعقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : « ماذا تحصي ؟ » قال : « خطؤك ، باعدت في القول . ما الانس من الشنب . ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

ثم أنشدهما قوله :

أبت هذه النفس الاّ ادّكارا

حتى بلغ الى قوله :

اذا ما الهجارس غنينها تجاوبن بالفلوات الوبارا

فقال له نصيب : والوبار لا تسكن الفلوات . ثم انشد حتى بلغ منها :

كأن الغطاط من غليها أراجيز أسلم تهجو غفارا

فقال نصيب : ما هجت أسلم غفاراً قط . فانكسر الكميت وامسك(١٧) .

وهذا يدل على أن نصيباً كان يرى أن يتدبر الشاعر معانيه تدبر الواعي اليقظ الذي لا يخلط في شعره كحاطب الليل . بل يجمع الشيء الى صنوه ولا يخرج عن الواقع بل يتحرى فيه الحقائق .

وكان نصيب من اوائل الشعراء الذين تأثروا بالقرآن وتأدبوا بآدابه فقد كان عفيفاً لم ينسب قط الا بامرأته . ولم يكن له في الهجاء حظ وقيل

---

(١٧) الاغاني ج ١ ص ١٣٤ .

له مرة : انت لا تحسن الهجاء . فقال بلى والله ، أتراني لا احسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزاك الله ؟[18] .

وكان للقرآن أثره في اسلوبه عذوبة وسلاسة وبراءة من المستكره الثقيل من التراكيب والالفاظ . بل قد يقتبس في بعض كلامه تراكيب وعبارات قرآنية كما في قوله :

أعني على برق أريك وميضه   تضيء دجنات الظلام لوامعه
اذا اكتحلت عينا محب بضوئه   تجافت به حتى الصباح مضاجعه

والشطر الاخير مقتبس من قوله تعالى «تتجافى جنوبهم عن المضاجع.»

وبعد ، فقد كانت مشاركة غير العرب في الشعر أمراً طبيعياً بعد الذي كان من صيرورتهم عنصراً من عناصر الحياة الاسلامية ، وقد شهدت أوائل القرن الثاني للهجرة مزيداً من هذه المشاركة ، وغمر هذا القرن بفيض من شعراء الموالي كادوا يزيدون عدداً على الشعراء العرب وأصبح لهم في القرن الثاني المكانة الاولى في الشعر وتسلموا مقاليد التوجيه والتأثير فيه كما سيأتي بعد .

* * *

وقد أصاب الشعر في هذا العصر تطوراً من طراز آخر يصح أن يعتبر تأثراً بالحياة العقلية من بعض نواحيه ، فقد أصبح عند بعض شعراء المذاهب الدينية والسياسية يستخدم للدفاع عن تلك المذاهب وتأييد حقها والدافع في وجه الخصوم وتفنيد حججهم والرد عليها . وكان شعراء الخوارج أول من سلك سبيل الانتفاع بالقرآن في تأييد مذهبهم والدفاع عنه . الا أن الاتساع في الاحتجاج والاستدلال لم يتضح في الشعر ولم يغلب عليه الا عند شاعر الهاشميين أبي المستهل الكميت بن زيد الاسدي في هاشمياته .

---

(18) الاغاني ج ١ ص ١٣٢ .

وهاشمياته هي شعره الذي وقفه على مدح بني هاشم وتأييد حقهم والاحتجاج لمذهبهم وهجاء خصومهم والتحدث عما أصابهم من المظالم والنكبات وما اصاب الدين وأهله على أيدي أولئك الخصوم .

وها هنا مسألة أحسب أن لها خطورتها في هذا المذهب الذي سلكه الكميت فقد كان صديقا للشاعر الخارجي الطرماح بن حكيم وكانت صلته به محل استغراب الناس واندهاشهم للاختلاف الواضح في المذهب الديني والسياسي عند كليهما ، وكانا اذا سئلا في ذلك قالا : « اجتمعنا على بغض العامة » . ولعل لهذه العلاقة أثرها في سلوك الكميت مسلك الخوارج في الاعتماد على القرآن والحديث في تأييد مذهبه والاحتجاج له .

ولقد أدرك الأقدمون مكانة الكميت في الشعر السياسي واصطناعه هذه الطريقة الجديدة في تأييد مذهبه فقال فيه الجاحظ : انه أول من وطأ للشيعة وفتح لهم باب الاحتجاج لمذهبهم وأعلن ماأضمره الناس[١٩] .

وقد كان المعروف في الشعر السياسي أنه يقوم جملته على معان لاجديد فيها يستمد اغلبها من الشعر القديم ويستقي من الحياة البدوية وتقاليدها .

ويتميز شعر الكميت في هاشمياته بأنه يحتج لمذهبهم في الخلافة ويعلن انهم وحدهم ورثة الرسول الذين يستحقون أن يلوا أمر المسلمين من بعده دون غيرهم ، بحكم النصوص الشرعية التي تجعل الارث في العصبة وذوي الارحام . ويرد على المحتجين بأن الرسول عليه السلام لا يورث بأنه لولا ذلك لتطاولت الى الخلافة أعناق القبائل الاخرى من غير قريش :

يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب
ولانتشلت عضوين منها بحابر ... وكان لعبدالقيس عضو مؤرب

---

(١٩) تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب ص ١٦٢ .

ولاتنقلت من خندف في سواهم ... ولاقتدحت قيس بهائم أثقبوا
وما كانت الانصار فيها أذلة ... ولا غيباً عنها إذ الناس غيب
هم شهدوا بدرا وخيبر بعدها ... ويوم حنين والدماء تصبب
فان هي لم تصلح لحي سواهم ... فان ذوي القربى أحق وأقرب

وهو انما يقتبس معانيه في ذلك من القرآن من قوله تعالى «قل لا اسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى» • وهو يجمع في احتجاجه لحق بني هاشم بين الدليل النقلي المستمد من النصوص الشرعية وبين الدليل العقلي القائم على المناقشة المنطقية • فها هو ذا في ابياته السالفة يتناول أدلة خصوم مذهبه واحدا واحدا ثم يفندها بعد ذلك حتى يخرج الى اثبات حجته وتأييد مذهبه • وقد استخدم في ذلك معرفته بالأنساب ورسوخه في الرواية فأتى على أسماء القبائل التي كانت على جانب من القوة والبلاء في نصرة الدين يمكن لها أن تطالب بالخلافة لولا أنها كانت تعترف بأن ذوي القربى أحق بها وأقرب اليها من سواهم •

ومن الظواهر الجديدة في شعر الكميت أنه استطاع في هاشمياته أن يظهر في صورة الشاعر الموضوعي الذي يحتكم الى العدل والعقل ونص الشرع ، فكان فيبعض شعره أشبه بالخطيب المفوه منه بالشاعر•وقارىء شعره يحس أن فيه لوناً من ألوان المحاكمة العقلية تجعله يقارب النثر :

حنانيك رب الناس من أن يغرني ... كما غرهم شرب الحياة المنضّب
إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه ... فأنقاضهم في الغي حسرى ولغب
وإن عرضت دون الضلالة حومة ... أخاضوا اليها طائعين وأوثبوا
وقد درسوا القرآن وافتلجوا به ... فكلهم راض به متحزّب

وسلك في شعره أحياناً مسلك الواعظ المرشد الذي يبصر الناس بما اصابهم من الانحراف عن الدين والميل عن طريق الحق فكان بذلك موطئا

لمن ظهر بعده من الشعراء الذين طرقوا هذه المعاني الدينية والخلقية وممهداً للشعر هذه السبيل :

ألا هـل عم في رأيـه متـأمل   وهـل مدبـر بعد الإساءة مقبل
وهل أمـة مستيقظون لرشدهم   فيكشف عنـه النعسة المتزمـل
. . . .
وعطلت الأحكـام حتى كأننـا   علـى ملة غـير التي تتنحـل
كلام النبيـين الهـداة كلامنـا   وأفعـال أهل الجاهليـة نفعل

لهذا السبب نستطيع أن نعد الكميت بادرة من بوادر التجديد في الشعر ،وارهاصاً لما ظهر من بعد من مسايرة للحياة العقلية ومشاركته فيهـا على اعتبار أنه كان ــ في زمنه وبعد زمنه بمدة ــ الاداة الوحيدة للتعبير عن الأفكار .

ويمكن أن يعد ايضا محرراً للشعر من التقيد بالمعاني المكررة المستمدة من الشعر الجاهلي ، ومتجهاً به وجهة جديدة في استقاء معانيه وأفكاره مـن واقع الحياة الدينية والعقلية ، والتعويل فيها على شيء من الاصالة والابتكار والتباعد عن التقليد[20] .

* * *

ومن الظواهر المهمة اتي تستحق التسجيل أن الشعر في القرن الثاني للهجرة قد أصبح قادراً على التعبير عن الحياة الحضرية ومسايرتها ، وأخذت صورة الحضارة تتضح فيه ، ولم يعد قاصراً على المسير في سبيل الشعـر الجاهلي جرياً تقليديـاً لا اثارة فيه لذلـك التحـول الذي أصاب الحياة

(٢٠) من مظاهر الابتكار عند الكميت انه لايفتتح بعض قصائده بالنسيب وذكر الناقة التي تقطع به المفازة الى ممدوحيه وقد يذكرها في اواخر القصائد. (تراجع ميميته في الهاشميات ص ١١ ــ ٢٢ . بريل و ص ٢٤ و ٦٥) .

الاسلامية ولا سيما في دمشق عاصمة الخلافة ومركز الحكم الأموي من يوم أن حل فيها معاوية ، فاتخذ لنفسه سمت الملوك وهو وال على الشام من قبل عمر بن الخطاب ، وتأثر أساليب مجاوريه من الروم في بعض مظاهر الحياة .

ولعل من المهم أن نلاحظ أن تأثر الشعر العربي بالحضارة قديم وان لم تتصل حلقاته أو تستمر أسبابه . فقد كان في الجاهلية من يلم بالمعاني الحضرية من الشعراء ، ومن يتأثر في أسلوبه وفي معانيه بالحضارة ، كعدي بن زيد العبادي والنابغة الذبياني وأعشى قيس ، ومن اتيح له أن يعيش في كنف المناذرة والغساسنة أو يصل الى بلاط الروم والفرس من الشعراء .

اما في العصر الاموي فان هذه الظاهرة ــ ظاهرة تعبير الشعر عن الحضارة ــ تتمثل الى اقصى حد في الوليد بن يزيد الاموي الشاعر ، ويصح ان يعد موجهاً للشعر فيها ايضا .

وكان الوليد بن يزيد كما يصفه بعض مؤرخيه « من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم ، وكان فاسقاً خليعاً في دينه مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس[٢١] .

ولقد أفصح هو عن نفسيته وعن مذهبه في الحياة فقال :

ولقد قضيت ، وان تجلل لمتي … شيب ، على رغم العدا لذاتي
من كاعبات كالدمى ومناصف … ومراكب للصيد والنشوات
في فتية تأبى الهوان وجوههم … شم الأنوف جحاجح سادات

وقد اولع الوليد بالغناء والشراب ، والتمس لذلك كل ما يستطيع من الأسباب فأحضر المغنين من الحجاز كمعبد والغريض ، وتفنن في لهوه وفي شرابه واصطنع في ذلك أعاجيب[٢٢] وهو من هذا الوجه ثمرة من ثمرات

(٢١) الاغاني ج ٩ ص ٩٩ .

الحضارة التي بصر الناس فيها بلذتهم ومتعتهم ، وجعلوا للذة والمتعة في حياتهم مكاناً أي مكان .

وشعر الوليد أيضاً ثمرة تطور الشعر من الناحية العاطفية ، فهو قد قصر شعره على ذاته لم يشرك فيها أحداً ، وكان يتغزل بحبيبته سلمى غزلا فريداً في بابه ، ويصف الخمر وصفاً مبتكراً ويتحدث عن مجالسها ، يفعل كل ذلك لذاته لا لغرض آخر من دواعي الشعر .

وكانت شخصيته واضحة في شعره كل الوضوح على خلاف ما عهدناه من تشابه شخصيات الشعراء بسبب ضعف الذاتية في شعرهم ، يستدل عليها بسهولة كما استدل عليها المأمون من قوله :

أسقني من سلافة ريق سلمى واسق هذا النديم كأساً عقارا

ويمكن أن نجعل آثار الحضارة التي تتمثل في شعر الوليد بن يزيد بما يأتي :

أولا — أنه ربط بين الشعر والغناء ، واتخذ من الشعر أداة للتعبير عن حياته الخاصة تعبيراً فيه صدق وفيه أصالة ، وبذلك فسح للغناء مجال التأثير في الشعر من حيث الموسيقى والأوزان ، فنهج طريق الحجازيين في الأوزان واكثر منها .

ثانياً — وصف الخمر وصفاً لم يسبقه اليه في العصر الاسلامي شاعر ، وتحلل في شربها وفي التحدث عنها الى أبعد حد ، وأبدع في وصفها وابتكر، حتى كان في الواقع أستاذاً لشعراء الخمر من بعده كأبي نواس والحسين بن الضحاك .

ومن أجود شعره في الخمر قصيدته التي يقول فيها :

---

(٢٢) كان الوليد يتخذ من أدوات الشرب ووسائله أفانين ، وكان يشرب الخمر في كؤوس مختلفة الاشكال والاحجام ، ويسميها باسماء غريبة .

أصدع نجي الهموم بالطرب وأنعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش في غضارته لا تقفُ منه آثار محتقب
من قهوة زانها تقادمها فهي عجوز تعلو على الحقب
أشهى الى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلّت ورق جوهرها حتى تبدّت في مظهر عجب
فهي بغير المزاج من شرر وهي لدى المزج سائل الذهب
كأنها في زجاجها قبس تذكو ضياء في عين مرتقب

ثالثاً ــ كان الوليد أيضاً معقد الاتصال بين البيئة الشعرية الجديدة التي مثّلها في الشام وبين بيئة حضرية مشابهة لها في الكوفة ، تلك البيئة التي وجد فيها بعض ما افتقده في الشام من الرواة والندماء والظرفاء • فقد جلب اليه منها حماد الراوية ليروي له قصيدة عدي بن زيد العبادي التي يقول فيها :

ودعوا بالصبوح يوماً فقامت قينة في يمينها ابريق

وذكر له مطيع بن إياس وغيره من شعراء الكوفة وظرفائها وندمائها فأمر أن يحملوا اليه فحملوا •

وهكذا أخذت الحضارة تتغلغل في الشعر شيئاً فشيئاً ومهد للشعر سبيلها بعض الشيء ، وبذرت فيه بذورها من مجاراة للحياة العقلية وما يطرأ عليها من التطور ، ومن اقبال على الحياة الحضرية في مظاهرها المختلفة من لهو وغناء وشراب وترف ونعيم •

وأصبح الشعر في القرن الثاني وقد تفتح للحياة الجديدة ولكنه تفتح محدود ، كأنما كان ينتظر الوثبة التي وثبتها الحضارة في بغداد حتى يستكمل تفتحه لها ومشاركته فيها وتعبيره عنها •

* * *

الباب الثالث

العوامل التي اثرت في الشعر ببغداد

الفصل الاول

العامل السياسي

كان العراق في عهد الدولـة الأموية مجـال النشاط الواسع للشعر السياسي ، بل كان أوسع مجال له على الاطلاق • وقد سبق أن شرحنا أسباب ذلك في الفصل السابق عند الكلام على الشعر قبل بغداد فقلنا ان العراق كان منذ النصف الثاني من القرن الاول للهجرة معتركاً سياسياً بين الرعيل الاول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد وقعة الجمل ومعركة صفـين من بعدها • وشهد أهله رجال الطليعة في الاسلام وهم يختلفون ويختصمون ويحتربون • وكان من الطبيعي أن ينقسم الناس في العراق ــ وهم قد شهدوا تلك المعارك ــ شيعاً ينصر بعضها عائشة وينتصر بعضهـا لعلي ، وينحـاز بعضها لمعاويـة ويخرج آخرون على هؤلاء جمعيـاً • وهكذا تقسمتهـم النزعات السياسية والمذهبية من أول الأمر •

ولقد كان لهذه الأحداث في أرض العراق أثرهـا الخطير في حيـاته العقلية والسياسية والأدبية ؛ ذلك أن أهل العراق قد شهدوا اختلاف القوم واختصامهم واحترابهم شهوداً ، ولمسوه من كثب لمساً ، والخصام يكشف في المتخاصمين عن جوانب بشرية طبيعية تنزل بالشخصيات المقدسة عـن قدسها وتحشرها في زمرة الأناس الذين يخطئون ويصيبون ، وتقع تصرفاتهم وأعمالهم تحت طائلة النقد والتجريح •

وهكذا تجرأ أهل العراق من أول الأمر على ما لم يتجرأ عليه غيرهـم

من أهل البلاد الاسلامية الأخرى وهو شخصيات الخلفاء الراشدين والصحابة المقربين فخطأوا وصوبوا وأمعنوا في ذلك إمعاناً غير مألوف عند غيرهم من المسلمين •

ومما يوضح ذلك أن الخوارج قد ذهبوا الى الانكار على الخليفتين الثالث والرابع عثمان وعلي والاعتراف بالخليفتين الأولين أبي بكر وعمر، لأنهم شهدوا علياً يختلف ويختصم وشهدوا عثمان يتصرف فيكون تصرفه محل النقد أحياناً •

وهكذا قدر للعراق أن يكون مقر المعارضة السياسية للدولة بعد مقتل الامام علي ، وخلوص الأمر لمعاوية ، وانتقال مركز الخلافة الى الشام وكانت تتمثل في أهله الأحزاب السياسية بأجمعها ، من مؤيدين منتفعين أو معارضين مؤمنين أو محرومين • ومعلوم ان المعارضة تشحذ الاذهان وتوقد الملكات وتستحث إقبال الناس على مايأتي به المعارض من حجج يدفع بها عن رأيه أو يدفع بها في وجه خصمه •

ولقد ازدهر الشعر السياسي في العراق أيام بني أمية لأنه كان لسان الأحزاب والشيع ، والسلاح الذي كان يشهره كل منها في وجه خصومه •

يضاف الى ذلك أن العراق والبيئة العراقية كانت وارثة الحياة الجاهلية والشعر الجاهلي ، لأسباب متعددة من أهمها : أن الحياة لجاهلية قد فرت بعد الاسلام تلتمس بيئة تناسبها وتلائمها فلم تجد إلا العراق الذي تسامح الخلفاء في الابقاء على بعض مظاهر القديم فيه ، كما فعل عمر بن الخطاب بنصارى تغلب •

وكان العراق بطبيعة وقوعه في أقصى المشرق العربي ومجاورته لبلاد الأعاجم أحرص على التراث العربي القديم وأشد احتياجاً اليه وتمسكاً به ليحتفظ بمقوماته القومية ويقف بها في وجه المؤثرات الأجنبية التي كانت

ترده من فارس وخراسان وغيرها •

وكذلك كان العراق بطبيعة موقعه الجغرا في بيئة صالحة للاحتفاظ بتراث الجاهلية احتفاظاً علمياً ، لأنه كان نقطة الاتصال بين الحياة العربية القديمة في نجد واليمامة في الجنوب والجنوب الغربي والجزيرة في الشمال ، وبين الحياة العقلية الموروثة عن قدماء العراقيين ، والوافدة من بلاد فارس والهند وبيزنطة •

كان العراق مقر المعارضة السياسية في أيام بني أمية ــ كما أسلفنا ــ فلما قامت الدولة العباسية تغيرت الحال بعض الشيء ، فقد كان قيامها نصراً للهاشميين سواء منهم العباسيون والعلويون فكان العلويون من مؤيديها بادى الأمر •

وكان الخوارج قد نهكهم طول الكفاح وتشرد رجالهم في الآفاق فلم يعودوا قوة ذات بال •

أما الامويون فلم يكن لهم في العراق على وجه العموم انصار يؤمنون بهم ويتعلقون بدولتهم ، ما عدا من كانوا يطمعون منهم في منفعة أو يستعملون في ولاية أو عمل من أعمال الدولة •

ولما أحس أبو جعفر المنصور خطر مقامه في الكوفة ــ مركز الشيعة العلويين ــ وتحول الى بغداد ، أخذ يوطد دعائم خلافته ويتعقب الطامعين فيها الذين كذبوا في ما وعدوا بها وهم العلويون ، فكان أن ظهر هؤلاء في مجال السياسة بمظهر المظلوم المغصوب حقه • وبرز حزب الشيعة العلويين في الحياة السياسية بروزاً يتفاوت قوة وضعفاً بتفاوت الفرص المتاحة له •

ولم يكن للعلوين حزب سياسي بالمعنى الواضح ، فقد كان الحق الذي يدعون به وهو قربهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً ينازعهم فيه بنو العباس • فكان هذا موطن ضعف في موقفهم ، فاقتصر أمرهم في السياسة

على الشكوى والتظلم مما أصابهم من عنت الأمويين وعسف العباسيين الذين لم يراعوا صلة القربى ولم يحفظوها :

أرى أمية معذورين إن ظلموا ولا أرى لبني العباس من عذر

ولقد ألمحنا من قبل الى ان أبا جعفر المنصور كان يدرك الخطر المتربص بالدولة من جهة فارس فقضى على أبي مسلم الخراساني ، ولم يتح للاعاجم أن يقبضوا بأيديهم على شيء مهم من مقاليد الدولة .

ولكن أسرة فارسية بدأت تتسلل الى المراكز العليا في الدولة منذ أيام أبي جعفر ولكنها لم تحظ في أيامه بشيء ذي خطر ، ثم اخذت في التقدم بعد وفاته أيام أبنه محمد المهدي ، تلك هي أسرة البرامكة الذين بلغوا في عهد هرون الرشيد القمة التي آذنتهم بالانحطاط والانقراض . وكان لهم في أيامهم مجد لم يكن يقل عن مجد الخلفاء إن لم يتميز عليه في بعض الاحيان. وقد اتخذوا الصنائع في الشعراء فأغدقوا عليهم الاموال الطائلة حتى ضرب بهم المثل في السخاء والبذل[1] .

ونحن نجد في شعر من مدحهم من الشعراء ما يدل على انهم كانوا ذوي أثر بعيد في تلوين الحياة الاجتماعية باللون الاعجمي ، وفي محاولة الاستئثار بالملك والتسلط على أمره ، ولكن نقمة الرشيد عاجلتهم فلم يبلغوا في ذلك شيئاً .

ولقد أثار ذلك أمراء الجيوش من العرب فاتخذوا الصنائع في الشعراء وقربوهم مثلما فعل البرامكة ، وأغدقوا عليهم اغداقاً عظيماً فلهجوا بمدحهم وتكريمهم وأحيوا في شعرهم ما كاد ينسى من العصبية للعربية والتقاليد القديمة . أولئك امثال معن ابن زائدة الشيباني وابن اخيه يزيد بن مزيد وابي

---

(١) من طريف ما يلاحظ أن البغداديين يقولون في السخي الكريم « برمكي» حتى يومنا هذا .

دلف القاسم بن عيسى العجلي وحميد بن عبدالحميد الطوسي • ورعى هؤلاء نشاطاً اجتماعياً شعرياً كان له أثره البعيد في الحياة الاجتماعية وفي الشعر •

ونستطيع أن نجمل عناصر الحياة العباسية في العصر العباسي الاول ــ وهو ما نحن بصدد البحث فيه ــ بما يأتي :

أولا ــ العباسيون وهم أولو الامر في الدولة ، وهم بطبيعة الحال أوفر أنصاراً واكثر جمعاً • وكان للشعر في تأييدهم وفي نصرتهم فعله ، يتجلى ذلك في ما مدح به الخلفاء وما رثوا به ، وما تصدى به بعض الشعراء لاثبات حقهم في الخلافة بعد ان تكشفت الحوادث عن النزاع بينهم وبين أبناء عمهم العلويين الذين رأوا أنهم قد كذبوا في الدعوة الى الرضا من آل محمد في أول أمر الدعوة •

فصار هذا النزاع موضوعاً يطرقه الشعراء ويفيضون فيه ويحاول كل فريق منهم أن يحتج لعصبته •

ثانياً ــ العلويون • وهم كانوا أول الامر مع العباسيين يجمعهم السخط على بني امية والطموح إلى دولة هاشمية يكون لهم فيها نصيبهم الموفور ، فلما قامت الدولة واستأثر بها بنو العباس خرج عليهم فريق من العلويين مثل محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي وأخيه ابراهيم وغيرهما • وكانت الكوفة أو أغلبها شيعة لآل علي ، وبقيت كذلك زمن بني العباس حتى أن أبا جعفر تباعد عنها ــ بعد أن جرب الاقامة فيها ــ رغبة في تجنب جوار أهلها •

ولقد كان للعلويين شعراء يؤمنون بحقهم في الخلافة ويوالونهم لقرابتهم من الرسول ويحزنهم تتابع النكبات عليهم من مصرع الامام علي بن أبي طالب الى مصرع الحسين الى ما نالهم على أيدي العباسيين من اضطهاد،

ثالثاً — الامويون • وهم قوم أدبرت عنهم الدنيا وفارقهم السلطان فلم يف لهم من الناس إلا قليل ، ولقد أخذهم بنو العباس بالتقتيل والتشتيت واستأصلوا شأفتهم حتى لم يكد يبقى منهم ذو شأن • أما الشعراء فلم يبق فيهم من يدافع عن بني أمية ويظهر ولاءه لهم إلا نزر يسير بقي يعرف لهم حقهم عليه ويذكر صنائعهم فيه كأبي العباس الاعمى وأبي عطاء السندي •

وصفوة القول إنه لم تكن في دولة بني العباس معارضة كالتي كانت في دولة بني أمية وأحزاب ينطق بلسانها الشعراء • فالعلويون لم يكونوا حزباً سياسياً ذا بال من الوجهة الادبية بل كانوا جماعة أشبه بالجماعات الدينية ، إذ أنهم فقدوا بقيام الدولة العباسية جزءاً من حجتهم العظمى وهي قرابتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان بنو العباس أيضاً أبناء عم الرسول وذوي قرباه ، ولكن شعراء العلويين دأبوا على تمجيد علي وإظهار فضله وبلائه في الاسلام والتحسر على ما اصاب ذريته من المظالم من يوم أن منعوا ميراث الرسول وحيل بين علي والخلافة الى أن أصابهم ما أصابهم على ايدي العباسيين •

* * *

وكان في الحياة السياسية جانب آخر يتمثل في الاعاجم الذين تبوأوا في الدولة العباسية مكاناً فسيحاً فأصبحوا يهجون العرب ويثلبونهم — في بعض الاحيان — ويتبرأون من ولائهم ويفضلون أقوامهم عليهم •

وصحيح أن هؤلاء وجدوا من قبل أن تقوم الدولة العباسية فكان أبرزهم في العصر الاموي اسماعيل بن يسار النسائي الذي فخر في شعره بأصله الفارسي ونعى فيه على العرب ، إلا أن قيام الدولة العباسية على نصرتهم جعل نزعتهم القومية أقوى وأوضح وأرفع صوتاً •

على أن هذا الاتجاه الشعري كان ظاهرة اجتماعية أدبية بالدرجة

الاولى ، وكانت له آثاره في الحياة الإجتماعية والادبية ، ولم يقدر لـه ان يثمر في الناحية السياسية . وسبب ذلك فيما يخيل الى الباحث أمران :

الامر الاول — أن الرشيد تدارك الأمـر فقضى على نفوذ البرامكة ونكبهم وأزاحهم من الدولة فتقلص بذلك نفوذ الاعاجم وعدمت الشعوبية مجالا رحيبا كانت تتنفس فيه وتصول وتجول .

الامر الثاني — أن المعتصم اصطنع الاتراك ليخضد شـوكة الفرس ، ولم يكن في الاتراك من يشارك في الحياة السياسية والاجتماعية والادبيـة مشاركة الفرس فيها ، فكان لقادة الجيوش من العرب أن ينشطوا في الهيمنة على الجانب الاجتماعي والادبي بما التف حولهم من الشعراء يمدحونهـم ويمجدونهم ويحيون بذلـك التقاليـد العربية بعـد خمود الشـعر في ظل السياسة الجديدة .

١ ـ العباسية في الشعر

لقد قامت الدولة العباسية على دعوى أن خلافة المسلمين بعد رسـول الله صلى الله عليه وسلم حق موروث لآل بيته ، وأن صاحب هـذا الحـق بعد الرسول العباس بن عبدالمطلب لانه عمـه ووارثه وعصبته ، ولقول الله عز وجل « وأولى الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وأن النـاس غصبوا العباس هذا الحق وانتزعوه منه انتزاعاً وأن هذا الحق قد رد الـى ورثة الرسول وعصبته بخلافة علي بن ابي طالب رضي عنه ! » . وقد اجـاز العباس خلافته ورضي بها وبايعه قائلا له : « يا بن أخي هلم إلى أن أبايعـك فلا يختلف عليك اثنان[٢] » .

وقد أجاز العباسيون خلافة علي وارتضوها اقتـداء بجدهم العباس ،

---

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص١٦٧ .

وتبرأوا من ابي بكر وعمر وعثمان لانهم اخذوا الخلافة من عصبة الرسول ــ على زعمهم ــ بغير حق ، ولقد خطب داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويع ابو العباس السفاح فقال ، يخاطب أهل الكوفة : يا أهل الكوفة لم يقم فيكم امام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا علي بن ابي طالب وهذا القائم فيكم : يعني أبا العباس(٣) .

ومعلوم ان الشيعة العلويين يذهبون الى ان الخلافة حق لعلي ولابنائه من بعده لان الرسول نص على امامة علي في حديث الغدير الذي جاء فيه : «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».وبقوله صلى الله عليه وسلم لعلي : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » . وقد خلف هرون موسى في قومه بدليل قوله تعالى : « وقال موسى لاخيه هرون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » .

وههنا يلتقي العباسيون بالعلويين في إقرار خلافة علي واجازتها اتباعاً لموقف العباس من علي.ولكنهم يخالفونها في اعتقاد ان العم ــ وهو العباس ــ اولى بميراث ابن اخيه عليه الصلاة والسلام من بني بنته وابن عمه :

لكم رحم يا بني بنته ولكن بنو العم أولى بها

ويلتقي الشيعة الكيسانية بالعباسيين في أنهم يرون الامامة بعد علي في ابنه محمد بن الحنفية وان محمداً اوصى الى ابنه ابي هاشم وان ابا هاشم اوصى الى علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب وان علي بن عبدالله اوصى الى ابنه محمد بن علي وأن محمداً أوصى الى ابنه ابراهيم الامام وأن ابراهيم أوصى الى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد .(٤)

وهكذا وجدت فكرة العباسية من يعتقدها ويؤمن أن الخلافة حق

---

(٣) نفسه .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص ١٦٩ .

مغصوب يجب أن يعود الى أهله ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان قد أسلموه الى بني أمية ومنعوا تراث الرسول صلى الله عليه وسلم أعمامه .

وفي ذلك يقول منصور النمري :

لولا عدي[٥] وتيم[٦] لم تكن وصلت الـى أميـــة تمريهـا وترتضـع

ويقول السيد الحميري يخاطب المهدي :

منعـوا تـراث محمـد أعمامه وبنيـه وابنتـه عديلـة مريمـا
وتآمـروا من غير أن يستخلفوا وكفى بما فعلـوا هنالك مأثمـا

ولقد كان لما آل اليه أمر الأمويين من تشبههـم بالملوك وتصرفهم في أموال المسلمين واشتهـار بعضهم باللهو ونشدان اللذة والترف والبذخ ، كان لكل ذلك أثره في انتصار الدعوة الهاشمية التي تمخضت آخر الأمـر عن دولة بني العباس . وكان الناس يحسون بذلك ويلتمسون منه مخرجاً ، ومما يدل على ذلك ما يـروى عن سديف بن ميمون مولـى بني العبـاس وشاعرهم انه كان يقول في ايام بني أمية :

« اللهم قد صـار فيئنا دولة بعد القسمة وامارتنا غلبـة بعد المشورة وعهدنا ميراثا بعد الاختيار للأمة، واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والارمل وحكم في ابشار المسلمين أهل الذمة وتولى القيام بامورهم فاسق كل محلة. اللهم وقد استحصد زرع الباطل وبلغ نهايته واستجمع طـريده اللهم فأتح لـه من الحق يداً حاصدة تبدد شملـه وتفرق أمره ليظهر الحق في أحسن صورته وأتم نوره »[٧].

وهنا نلاحظ أن الدعوة العباسية كـانت تقوم على فكرة دينية ذات

---

(٥) يكنى بذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان من بني عدي .
(٦) يريد بذلك أبا بكر الصديق وكان من بني تيم بن مرة .
(٧) الشعر والشعراء ط . السقا ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

شقين : الأول ـ إعـادة سلطان الدين الى مكـانه من الحياة الاسلامية • والثاني ـ حق موروث يجب أن يعود الى أهله • وهكذا قامت الدولةالعباسية على اساس النص والتفويض في ولاية امور المسلمين أو ما يشبه المعـروف في أوروبـا بالحق الالهي • فكـان الشعراء لا يفتأون يعيدون في هذا المعنى ويبدئون •

واشهر من تناول هذا المعنى من الشعراء مروان بن أبي حفصة فقال في قصيدته المشهورة التي أنشدها حين مثل بين يدي محمد المهدي وأولها :

طرقتك زائرة فحـيِّ خيالهـا بيضـاء تخلـط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلهـا قاد القلوب إلـى الصبا فأمالها

حتى قال :

هل تطمسون من السماء نجومها باكفكـم أو تستـرون هلالهـا
او تجحدون مقالـة من ربكـم جبريـل بلّغهـا النبـي فقالها
شهدت من الأنفـال آخر آيـة بتراثهـم فأردتـمُ إبطالهـا[٨]

ويتفرع من هذا المعنى أيضـاً الرد على آل علي الذين يرون أنهـم أقرب الناس للرسول وأحقهم بميراثه ؛ وكان شعراء العباسيين يردون عليهـم بأن العم أولى بميراث ابن أخيه من بني بنته •

وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة للمهدي أيضاً :

يا ابن الذي ورث النبـي محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنـات وبينكم قطع الخصام فلات حـين خصام

---

(٨) يشير مروان بذلك الى قوله تعالى « وأولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله . »

ما للنساء مع الرجال فريضة　　نزلت بذلك سورة الأنعام[9]
أنى يكون وليس ذاك بكائن　　لبني البنات وراثة الأعمام

ويبدو أن بني العباس قد فطنوا الى هذه الفكرة وادعوا هذا الحق منذ أمدبعيد من قبل أن يعلنوا مسعاهم الى الخلافة في أواخر الدولة الأموية • يروي ابن قتيبة أن عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب لعلي بن أبي طالب فأتى الحسن بن علي فقال: « أنا مولاك » • فأغضب ذلك مولى لتمام بن العباس بن عبد المطلب فقال يرد عليه :

جحدت بني العباس حق أبيهم　　فما كنت في الدعوى كريم العواقب
متى كان أبناء البنات كوارث　　يحوز ويدعى والداً في المناسب[10]

ومن طرق هذا المعنى من شعراء العباسيين ــ بعد مروان ــ منصور بن سلمة النمري ، وقد فصل فيه وأفاض ، ورد على العلويين دعواهم أنهم أبناء الرسول فقال :

ألا لله در بني علي　　ودر من مقالتهم كثير
يسمون النبي أبا ويأبى　　من الأحزاب سطر بل سطور

وهو يشير بذلك الى قوله تعالى في سورة الأحزاب : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً • »

وقد أنشد منصور النمري الرشيد قصيدته التي يقول في أولها :

---

(٩) ليس في سورة الانعام ما يشير اليه من هذا المعنى بل ليس فيها اي حكم من احكام الميراث .
(١٠) الشعر والشعراء ص ٢٩٦ .

ما تنقضي حسرة مني ولا جـزع اذا ذكـرت شباباً ليس يرتجـع
ما كنت أوفي شبابي كنـه غرته حتى انقضى فاذا الدنيا لـه تبع

فتحدث فيها الرشيد فناداه بأنه ابن الأئمة والأوصياء ، وأن الخلافة ميراث جده العباس ولولا أبو بكر وعمر لما نالها بنو أمية فتحلبوا خيراتهـا وتمتعوا بثمراتها وانه ليس لآل علي مطمع في هـذا الارث لأن العم أولـى بميراث الرسول من ابن العم :

ياابن الأئمة من بعد النبي ويااب ن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا
ان الخلافة كانت إرث والدكـم من دون تيـم وعفو الله متسـع
لولا عدي وتيم لم تكن وصلت الـى أمية تمريهـا وترتضـع
وما لآل علـي في امارتكـم وما لهـم أبداً في ارثكـم طمع
يا أيـها الناس لاتعزب حلومكم ولا تضفكـم الى أكنافها البدع
العم أولى من ابن العم فاستمعوا قول النصيحـة ان الحق مستمع

ويبدو ان هذا المعنى كان قريباً الى نفوس الخلفاء يودون ان يسمعوه من الشعراء في كل مناسبة ، وكانوا يأنسون الى سماعه ويرضون بعـد السخط إذا استمعوا اليه ، روى المسعودي أن الهيثم بن عدي قال : « كنـت في مجلس المهدي فأتاه الحاجب فقال : « ابن أبي حفصة بالباب » فقـال : « لا تأذن له فانه منافق كذاب » فكلمه الحسن بن ابي عطية فيـه فأدخله ، فقال له المهدي : « يا فاسق ، ألست القائل في معن :

جبل تلـوذ به نـزار كلهـا صعب الذرى متمنع الأركان » .

قال : « بل أنا الذي أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يا ابن الذي ورث النبيّ محمدا دون الأقارب من ذوي الأرحام » .

وانشده الابيات كلها فرضي عنه واجازه[11] .

وكان هذا المعنى أيضاً مفتاح الوصول الى الخلفاء والحظوة لديهم فلذلك تداوله الشعراء وأفاضوا فيه رغبة منهم أن يقع شعرهم من الخلفاء في أحسن موقع فيصلوهم ويحظوا عندهم .

وقد عاتب أبان بن عبد الحميد البرامكة على تركهم إيصاله الى الرشيد وإيصال مديحه اليه . فقالوا له : « وما تريد من ذلك ؟ » . فقال : « أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبي حفصة » . فقال الفضل : ان لذلك مذهباً في هجاء آل أبي طالب وذمهم ، به يحظى وعليه يعطى ، فاسلكه حتى تفعل » قال : « لاأستحل ذلك » . فقال أبان :

نشدت بحق الله من كان مسلماً	أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة	لديه أم ابن العم في رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهده	ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس أحق بنسلكم	وكان علي بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه	كما العم لابن العم في الارث قد حجب

فقال الفضل : « ما يرد على امير المؤمنين أعجب من أبياتك » . فركب فأنشدها الرشيد بعد ذلك وخص به .[12]

ولقد كان لتسك خلفاء بني العباس بهذا الحق الشرعي وحرصهم عليه وعلى ان تصطبغ خلافتهم بصبغة الدين أن صار الشعراء يحلونهم في شعورهم محل التقديس ويشنون عليهم بصفات التقوى وحماية الدين والحفاظ عليه ،

---

(١١) الأغاني ج ٢٠ ص ٧٥ – ٧٦ . وليلاحظ ان مروان كان صنيعة لمعن بن زائدة وهو يمثل جانب امراء العرب المنافسين للاعاجم .

(١٢) الاغاني ج ٢٠ ص ٧٥ – ٧٦ .

وأنهم يستمدون سلطانهم من الله ويحكمون بامره ويتركون الهوى ويتبعون سبيل الحق . وفي ذلك يقول مروان بن ابي حفصة من قصيدة يمدح بها المهدي :

هو المرء : اما دينه فهو مانع ... صؤون ، وأما ماله فهو باذله
أمرّ وأحلى ما بلا الناس طعمه : ... عقاب أمير المؤمنين ونائله
أبيٌّ لما يأبى ذوو الحزم والتقى ، ... فعول إذا ما جد بالأمر فاعله
ترُوكٌ الهوى لا السخط منه ولا الرضا ... لدى موطن إلا على الحق حامله
يرى أن أمر الحق أحلى مغبة ... وأنجى ولو كانت زعافاً مناهله
فان طليق الله من هو مطلق ... وإن قتيل الله من هو قاتله
وإنك بعد الله للحَكَمُ الذي ... تصاب به من كل حق مفاصله

ويقول في مدحه أيضاً :

أحيا أمير المؤمنين محمد ... سنن النبي حرامها وحلالها

ويقول في مدح بني العباس :

أيادي بني العباس بيض سوابغ ... على كل قوم باديات عوائد
وهم يَعْدِلِ لون السَّمْكَ من قبة الهدى ... كما تعدل البيت الحرام القواعد
سواعد عز المسلمين وإنما ... تنوء بصولات الأكف السواعد

بل لقد أسرف بعض الشعراء في هذا المعنى فجعلوا الخليفة في شعرهم ظل الله على الأرض لاتقبل الأعمال عند الله الابرضاه فاذا سخط على امرىء فليس ينتفع بصلواته الخمس ، وان ارادته من ارادة الله فاذا رفع امرءاً فان الله يرفعه واذا وضع أحداً وضعه الله .

وفي ذلك يقول منصور النمري في قصيدته التي مر ذكرها من قبل وهو

يعني هرون الرشيد :

أي امرىء بات من هرون في سخط   فليس بالصلوات الخمس ينتفع
ان المكارم والمعروف أودية   أحلك الله منها حيث تتسع
اذا رفعت امرءاً فالله يرفعه   ومن وضعت من الأقوام متضع

وفي مثل هذا المعنى أيضاً يقول أبو العتاهية في قصيدة يمدح بها المهدي أولها :

ألا ما لسيدتي ما لها   أدلا فأحمل ادلالها

حتى يقول :

أتته الخلافة منقادة   اليه تجرر أذيالها
ولم تك تصلح الا له   ولم يك يصلح الا لها
ولو رامها أحد غيره   لزلزلت الارض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب   لما قبل الله أعمالها

ويقول كلثوم بن عمرو العتابي في مدح الرشيد :

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد   ناداك في الوحي تقديس وتطهير(١٣)

تلك هي أهم المعاني التي كان يلهج بها من الشعراء من تتمثل فيهم وجهة التأييد للدولة العباسية ، وهي في جملتها معان جديدة على الشعر العربي لم يكن يعرفها في مدح الخلفاء وفي تأييد سلطانهم • بل لم تكن الحياة الاسلامية قبل العباسين تعرف في الخلافة أنها حق مقدس موروث وأن للخليفة دون الناس مقاماً يعلو على مقاماتهم فالخلفاء الراشدون وهم

---

(١٣) يشير بذلك الى قوله تعالى (سورة الأحزاب « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

السابقون الأولون إنما كانوا يلون الخلافة برضا جمهور المسلمين وبيعتهم، وما كان أحد منهم يدل على الناس بأنه ظل الله على الارض ولا كان احد من الناس يخاطبهم بمثل ما مر بنا من اقوال الشعراء في خلفاء بني العباس .

ولعل في خطبة أبي بكر الصديق حين ولي الخلافة اوضح دليل واسطع برهان على ماأقول . قال يخاطب المسلمين :

« أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما اطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

وهكذا كان عمر وعثمان وعلي .

أما الامويون فقد أحالوا الخلافة ملكاً واصبحوا يمدحون بما تمدح به الملوك من شدة البأس والحلم عند الغضب وأنهم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب . وأصبح عبدالملك بن مروان يوصف بائتلاق التاج على مفرقه وبالوقار والحجب تحوطه وتحيط به . نذكر من قوله ابن قيس الرقيات فيه :

ما نقموا من بني أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا ... تصلح إلا عليهم العرب
ان الفنيق الذي أبوه أبو العـ ... ـاصي عليه الوقار والحجب
يأتلق التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

ولعل بني العباس أرادوا أن يتمثلوا في خلافتهم بعد الذي قاسوه من الحرمان قرناً أو بعض قرن من الزمان بقوله تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض فنجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » . فقد كانت دعوتهم ودعوة أبناء عمهم العلويين تلوذ بسند من الدين ، وكان

مذهبهم في الامامة والخلافة جزءاً من عقيدتهم الدينية ، فكأنهم وجدوا أن مركز خلافتهم يجب أن يقوم على عقيدة تشد أزره وتأخذ بناصره فكان شعراؤهم على العموم يعنون باستنباط معانيهم من آي القرآن الكريم مثل مروان بن أبي حفصة ومنصور بن سلمة النمري وأبي العتاهية وغيرهم ممن سلفت الاشارة الى معانيهم والكلام على شعرهم في تأييد بني العباس .

٢ ـ العلوية

أما المعارضة فكان المنتظر أن تتمثل في العلويين وفي شيعتهم ، اولئك الذين كانوا يرون الامامة والخلافة في علي وفي أبنائه من بعده ، على اعتبار أنهم أحق الناس بارث الرسول وأنهم هم الذين يستحقون أن يخلفوه في أمر المسلمين .

وقد سبق ان اشرنا الى انهم يرون امامة المسلمين وخلافتهم نصاً ورد في حديث الغدير وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » ، وقد كان هرون خليفة موسى في قومه . قال تعالى « وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » .

وقد كان شعراء العلويين في أيام بني امية يؤكدون هذا المعنى في أشعارهم ويفيضون فيه ولاسيما شاعر بني هاشم الكميت بن زيد الاسدي الذي يقول :

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
ولانتشلت عضوين منها يحابر وكان لعبدالقيس عضو مؤرب
فان هي لم تصلح لحي سواهم فان ذوي القربى أحق وأقرب

وقد مر بنا أن الدعوة العباسية كانت في أول امرها هاشمية تدعو

للرضا من آل محمد ، واتفق فيها العباسيون والعلويون على محاربة عـــدو مشترك فاجتمعت جهودهم واتحد غرضهم . وكان العلويون في اول امـــر الدعوة على اتفــاق كامل مع ابناء عمهــم العباسيين فكــان شعراء العلويين يذكرون العباس في شعرهم بالثناء والاطراء ويجعلونه صنو النبي صلى الله عليه وسلم ويذكرون ابنيه عبدالله والفضل بمثل ذلك الثناء .

يقول الكميت في بائيته التي مر ذكرها :

ولن أعزل العبـــاس صنو نبينـــا وصنوانه ممـــن أعـــد وأنـــدب
ولا ابنيه عبدالله والفضل انـــي جنيب بحـــب الهاشميين مصحب

والمعروف عن الشيعة الكيسانية انها لا ترى الامامة في ولد فاطمـــة رضي الله عنها وانما تراها في محمد بن الحنفية بعد علي ، وأن محمداً اوصى بها الى ابنه أبي هاشم وأن أبا هاشم أوصى الى علي بن عبدالله بن العبـــاس وأن علياً أوصى الى ابنـــه محمـــد وأن محمداً أوصى الى ابنه ابراهيم قتيـــل الحميمة وأن ابراهيم الامام أوصى الى أخيه أبي العباس عبدالله بن محمـــد الذي عرف فيما بعد بالسفاح أول خلفاء بني العباس .

وبهذا اصبح طائفة من الشيعة العلويين عوناً لبني العباس يـــرون أنهـــم ورثة الخلافة بالارث وبالنص في الوقت نفسه ؛ وكان قيام الدولة العباسية في نظر هؤلاء رجوع الحق الى اهله وعودة ميراث الرسول صلى الله عليـــه وسلم الى ورثته واهل الحق فيه .

وهذا يلاحظ في شعر شاعر العلويين وداعيتهم ولسانهم الناطق وهـــو السيد الحميري ، فقد كان يجاهر بتأييد بني العباس ويعلن أن خلافتهم وضع للحق في نصابه وان الخلافة باقية فيهم الى ان يسلموها الى مهدي الامـــة المنتظر وهو محمد بن الحنفية الذي يهبط عليه عيسى .

من ذلك مـا يروى أنه لما استقـام الامر لبني العبـاس قام السيـد الحميري الى أبي العباس السفاح حين نزل عن المنبر فقال له :

دونكموهـا يا بنـي هاشـم   فجددوا من عهدهـا الدارسـا
دونكموهـا لا علا كعـب مـن   كان عليكـم ملكهـا نافسـا
دونكموهـا فالبسـوا تاجهـا   لا تعدموا منكـم لـه لابسـا
لو خُيّـر المنبـر فرسانـه   ما اختـار الا منكـم فارسـا
قد ساسهـا من قبلكـم ساسة   لم يتركـوا رطبـاً ولا يابسـا
ولست من أن تملكوهـا الـى   مهبـط عيسـى فيكـم آيسـا

فسر أبو العباس بذلك وقال له : «أحسنت يا إسماعيل سلني حاجتك» قال : « تولي سليمان بن حبيب الاهواز » ففعل[١٤] .

وكان على علاقة حسنة بالخلفاء يصلهم ويصلونه ويمدحهم ويدل عليهم بانقطاعـه الى بني هاشـم . وكان لمذهبـه أثره في تلك العلاقـة الوثيقة ، فالمعروف أنه كان كيسانياً[١٥] يعتقد أن خلافة العباسيين حق مشروع ورثوه بالوصاية والنص عن محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب .

وفي شعره مما يدل على ذلك كثير ، فقد دخل على المهدي لما بايع لابنيه موسى وهرون فأنشأ يقول :

ما بـال مجرى دمعـك الساجم   أمن قـذى بات بهـا لازم
أم من هـوى أنـت لـه ساهر   صبابـة مـن قلبـك الهائـم
آليـت لا أمـدح ذا نائـل   من معشـر غـير بنـي هاشـم
أوليتهـم عندي يد المصطفـى   ذي الفضـل والمن أبي القاسـم

(١٤) الآغاني ج ٧ ص ٦ ــ ٧ .
(١٥) نفسه ص ٣ .

فانهـا بيضـــاء محمـــودة جزاؤهـا الشكر على العالـــم
جـزاؤها حفظ أبـي جعفـــر خليفــة الرحمـــن والقائـــم
وطاعــة المهـدي ثـم ابنـــه موسى على ذي الاربـة الحازم
وللرشيــد الرابع المرتضـــى مفتــرض من حقـه الـــلازم
ملكهـم خمســون معـدودة برغـم أنف الحاسـد الراغـم
ليـس علينـا مابقـوا غـيرهم في هـذه الأمـة من حاكـــم
حتـى يردوها الـى هابـــط عليـه عيســى منهـم ناجـــم

وكأن بعض هؤلاء الشعراء قد وجدوا لدى خلافة بني العباس المجال ليشفوا ما في صدورهم من الخلفاء الراشدين ، ويبدو ان بعض الخلفـــاء كانوا يجارونهم في ذلك ويقبلونه منهم ، بل أصبح بعض الشعراء العلويين يثيرون في خلفاء بني العباس التعصب لبني هاشم على سواهم من بطون قريش كبني تيم بن مرة رهط أبي بكر الصديق وبني عدي رهط عمر بن الخطـاب ويحرضونهم على حرمانهم من اعطياتهم •

جاء في كتاب الاغاني : ــ

« جلس المهدي يوماً يعطي قريشاً صلات لهم وهو ولي عهد ، فبـــدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش فجاء السيد فرفع الى الربيع رقعة مختومة وقال : « ان فيها نصيحة الامير فأوصلها اليه » • فأوصلها فاذا فيها :

قـل لابن عباس سمـي محمد لا تعطـين بنـي عـدي درهماً
احرم بني تيـــم بن مرة انهـم شر البريـة آخـراً ومقدمـــا
ان تعطهم لايشكروا لك نعمــة ويكافئـوك بأن تـذم وتشتما
وان أئتمنتهـــم او استعملتهـــم خانوك واتخذوا خراجك مغنمـا
ولئن منعتهم لقـــد بدأوكـــم بالمنـع اذ ملكوا وكانوا أظلما

منعوا تراث محمـد أعمامـه ... وبنيه وابنته عـديلة مريمـا[16]
وتأمروا من دون أن يستخلفـوا ... وكفـى بما فعلـوا هنالك مأثما
لم[17] يشكروا لمحمـد انعامـه ... أفيشكرون لغـيره ان أنعمـا
ولله مـنّ عليهـم بمحـمـد ... وهداهم وكسا الجنوب واطعما
ثـم انبـروا لوصـيه ووليـه ... بالمنكـرات فجرعـوه العلقمـا

قال : فرمى بها الى أبي عبيد الله وقال : « اقطع العطاء » ، فقطعـه وانصرف الناس ، ودخل السيد اليه فلما رآه ضحك وقال : « قد قبلنـا نصيحتك يا اسماعيل »[16] .

ومن يقرأ شعر السيد الحميري بل ما احتفظ به التاريخ من شعره يظن أن العلاقة بين العلويين والعباسيين كانت علاقة صفاء لا يشوبها كـدر ، على أن واقع الحال لم يكن كذلك على الاطلاق فقد قامت الخصومة بين العباسيين والعلويين منذ ايام أبي جعفر المنصور . فقـد قبض أبو جعفر على عبدالله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب وجمع من اهله وظهر بعـد ذلـك في المدينة ابنه محمد المعروف بالنفس الزكية ثم ظهر في البصرة ابنه الاخـر ابراهيم . فأخرج المنصور الى النفس الزكية عيسى بن موسى واتبعه محمد ابن قحطبة في جيش كثيف فقاتلوه حتى قتل .

ولما بلغ مصرعـه أخاه ابراهيم ـ وهو بـالبصرة ـ صعد المنبر فنعـاه وانشد قائلا :

أبالمنازل يا خـير الفوارس من ... يفجع بمثلك في الدنيا فقد فجعا
الله يعلـم اني لو خشيتهـم ... وأوجس القلب من خوف لهم فزعا

---

(16) يشير بذلك الى حادثة فدك وهي مشهورة .
(17) في الأغاني ج ٧ ص ٩ (لا) ولعل (لم) هي الصواب .
(18) الاغاني ج ٧ ص ٨ ـ ٩ .

لم يقتلوه ولم أسلم أخـي لهم   حتى نموت جميعا أو نعيش معا

وقد خرج مع ابراهيم بن عبدالله عيسى بن زيد بن الحسن بن علي بن الحسين واتبعهما أهل فارس والأهواز في عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة من المعتزلة فسير أبو جعفر اليهم عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم فحارب حتى قتل في الموضـع المعروف بباخمري وذلـك على ستة عشر فرسخا مـن الكوفة . وفي ذلك يقول دعبل شاعر العلويين يذكر قتلاهم :

قبـور بكوفـان وأخرى بطيبة   وأخـرى بفـخ ما لهـا صلوات
واخرى بارض الجوزجان محلهـا   وقبر بباخمرى لدى القربات[19]

ولقد اصاب العلويين من المنصور ألوان من العذاب والاذى والحبس والقتل .[20] وفي ايام المهدي خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسـن ابن علي ومعه جماعة من أهل بيته فسير اليه جيشـاً حتى قتل في الموضـع المعروف بفخ بين مكة والمدينة . وفيه يقول بعض الشعراء :

فـلأبكين على الحسيـ   ـن بعـولة وعلى الحسـن
وعلى ابـن عاتكـة الـذي   أثـووه ليـس لـه كفـن
تركـوا بفـخ غـدوة   في غـير منزلـة الوطـن
كانـوا كرامـا قتلـوا   لا طائشـين ولا جبـن
غسـلوا المذلـة عنهـم   غسل الثيـاب مـن الـدرن
هـدي العبـاد بجـدهم   فلهم على النـاس المنـن[21]

وفي أيام هرون الرشيد خرج يحيى بن عبدالله أخو محمد النفـس

(١٩) يراجع في ذلك مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢١ ــ ٢٢٣ .
(٢٠) نفسه ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ .
(٢١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩ .

الزكية فقتل [٢٢] ومات موسى بن محمد بن علي بن الحسين مسموماً [٢٣] .

وهكذا لقي العلويون من بني العباس اكثر واشد مما لقوا من بني امية حتى قال شاعرهم في ذلك :

أرى أمية معذورين ان ظلموا ولا أرى لبني العباس من عذر

وحتى ترحموا على ايام الامويين من شدة ما اصابهم على ايدي ابناء العمومة من بني العباس .

وإذا اردنا ان تتبين أهم المعاني والافكار التي كان يتداولها شعراء العلويين وجدناها تكاد تنحصر في ثلاثة معانٍ كبرى هي :

اولا — مدح علي وبيان حقه في الخلافة والتحامل على الذين غصبوه هذا الحق واستأثروا بميراث الرسول دونه .

ثانيا — رثاء آل البيت ومن اصيب منهم بأذى العباسيين وتقتيلهم وتشريدهم .

ثالثا — هجاء الخلفاء من بني العباس ورجال دولتهم .

أما الفكرة الاولى فيحمل لواءها السيد الحميري الذي سبق ان عرضنا له ولوثيق صلته ببني العباس وخلو شعره من التفجع والتوجع على ما اصاب العلويين من نكبات . ولعل مذهبه الكيساني هو الذي جعله يقف من الخلفاء العباسيين هذا الموقف وقد سبق ان ألممنا بما تذهب اليه الكيسانية في الخلافة .

وكان السيد الحميري لا يفتر عن سب بعض الصحابة والخلفاء ويكني

---

(٢٢) نفسه ص ٢٦٢ .
(٢٣) نفسه ص ٢٧٣ .

عنهما في شعره بتيم وعدي ، ومن اجل ذلك ضـــاع كثير من شعره مما لم يستحل الرواة او بعضهم الابقاء عليه والاحتفاظ به • وكان يجاهر برفضـه ولا يصطنع فيه تقية ، يعينه على ذلك رضا السلطان واصطناعه ايـاه في تأييد الخلافة •

من ذلك ما يرويه ابو الفرج عن عبدالله بن ابي بكر العتكي ان ابا الخلال العتكي دخل على عقبة بن سلم[٢٤] والسيد عنده وقد امر لـه بجائزة ، وكان ابو الخلال شيخ العشيرة وكبيرها فقال له : « ايها الامير أتعطي هذه العطايا رجلاً ما يفتر عن سب ابي بكر وعمر ؟ » فقال له عقبة : « ما علمت ذاك ولا اعطيته الا على العشرة والمودة القديمة وما يوجبه حقه وجواره ، مع ما هو عليه من موالاة قوم يلزمنا حقهم ورعايتهم » • فقال له ابو الخلال : « فمره ان كان صادقاً ان يمدح أبا بكر وعمر حتى نعرف براءته مما ينسب اليه من الرفض » فقال : « قد سمعك فان شاء فعل » فقال السيد :

اذا أنا لـم أحفظ وصاة محمد ... ولا عهـده يوم الغدير المـؤكدا
فاني كمن يشري الضلالة بالهدى ... تنصرّ من بعد التقى أو تهـوّدا
وما لي وتيـم أو عـدي وانمـا ... أولو نعمتي في الله من آل أحمدا
تتـم صلاتـي بالصلاة عليهـم ... وليست صلاتي بعد أن أتشهـدا
بكاملة ان لـم أصـل عليهـم ... وأدع لهـم ربّا كريمـاً ممجدا
بذلت لهم ودي ونصحي ونصرتي ... مدى الدهر ما سميت ياصاح سيدا
وان امرأ يلحى على صدق ودهم ... أحق وأولى فيهـم أن يفنـدا

---

(٢٤) في الاغـاني عقبـة بن سالم • والمعروف عقبـة بن سلم احد القواد العباسيين وفيه يقول بشار :

حرم الله ان تـرى كابن سلم ... عقبة الخـير مطعم الفقـراء

فان شئت فاختر عاجل الغم ضلة وإلا فأمسك كي تصان وتحمدا (٢٥)

وكان بين السيد الحميري وبين سوّار بن عبدالله قاضي البصرة ملاحاة ومخاصمة • فلم يجد ما يهجوه به الا انه عثماني من انصار عائشة ، واتخذ من ذلك ذريعته لتحريض أبي جعفر المنصور عليه فقال :

يا أمين الله يا منصـ ـسور يا خير الولاة
ان سوار بن عبد الله من شر القضاة
نعثلي[٢٦] جملي [٢٧] لكم غير مواة

فشكاه سوار الى ابي جعفر المنصور فأمره أن يصير اليه معتذراً ففعل فلم يعذره فقال يهجوه :

أتيت دعي بني العنبر أروم اعتذاراً فلم يعذر
فقلت لنفسي وعاتبتها على اللؤم في فعلها أقصري
أيعتذر الحر مما أتى الى رجل من بني العنبر
أبوك ابن سارق عنز النبي وأمك بنت ابي جحدر
ونحن على رغمك الرافضون لأهل الضلالة والمنكر (٢٨)

وهكذا كان السيد الحميري لا يفتأ يجاهر بالرفض ويعلن انه لا يوالي الا علياً وآل بيت النبي ولا يبالي بغيرهم •

واما الفكرة الثانية ، فكرة التفجع على العلويين والتوجع لما أصابهم ، فاننا نجدها عند شاعرين هما منصور بن سلمة النمري ودعبل بن علي الخزاعي• أما منصور النمري فقد سبق أن ألمنا بعلاقته بالعباسيين وبهرون

---

(٢٥) الاغاني ج ٧ ص ١٦ ـــ ١٧ .
(٢٦) نعثلي يعني عثماني .
(٢٧) يعني انه من انصار عائشة في وقعة الجمل .
(٢٨) الاغاني ج ٧ ص ١٦ .

الرشيد منهم خاصة ، وبدفاعه عن مذهبهم في الخلافة والحملة على العلويين فيما يدعون من حقهم في الخلافة ، وهو القائل يخاطب هرون الرشيد :

يد لك في رقاب بني علي ومنّ ليس بالمن اليسير
فان شكروا فقد أنعمت فيهم والا فالندامة للكفور

وكان منصور النمري يتظاهر بالميل الى العباسيين ويبطن الولاء للعلويين وكان يصطنع التقية في شعره وينافق الرشيد ويذكر هرون في شعره ومراده بذلك علي بن أبي طالب لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » وفي ذلك يقول منصور النمري :

آل الرسول خيار الناس كلهم وخير آل رسول الله هرون
رضيت حكمك لا أبغي به بدلا لأن حكمك بالتوفيق مقرون(٢٩)

ولمنصور في التفجع على العلويين ورثاء قتلاهم شعر كبير ، منه قصيدته التي يقول فيها :

شاء من الناس راتع هامل يعللون النفوس بالباطل
تقتل ذرية النبي ويرجون جنان الخلود للقاتل
ويلك يا قاتل الحسين لقد نؤت بحمل ينوء بالحامل
أي حباء حبوت أحمد في حفرته من حرارة الثاكل
بأي وجه تلقى النبي وقد دخلت في قتله مع الداخل
هلم فاطلب غدا شفاعته أولا فرِدْ حوضه مع الناهل
ما الشك عندي في حال قاتله وانما الشك في الخاذل(٣٠)

---

(٢٩) أمالي المرتضى ج ٣ ص ١٨٦ — ١٨٧ .
(٣٠) هكذا في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٨٥ . وقد رواه الشريف المرتضى في اماليه هكذ :
ما الشك عندي في كفر قاتله لكنني قد اشك في الخاذل
(ج ٣ ص ١٨٨)

وكان الشاعر الآخر وهو دعبل بن علي صريحا لايوارب ولا يظهــر غير ما يبطن وكان ابرز من رثى آل البيت وتحدث في شعره عن مصارعهم وتألم لما اصابهم • وهو الذي أنشد علي بن موسى الرضا مرثيته التي أولها :

مدارس آيات خلت من تــلاوة ومنــزل وحــي مقفر العرصات

وفيها يقول :

فآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد حفّــل القصــرات
بنات زياد في القصــور مصونة وآل رســول الله في الفلــوات

وقد ذكر فيها من قتل من العلويين بأيدي العبــاسيين كمحمد النفس الزكية وأخويه ابراهيم ويحيى وغيرهم • فيقول :

قبور بكوفان وأُخرى بطيبــة وأُخرى بفــخ ما لهــا صلوات
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وقبر بباخمــري لــدى القربات

ولدعبل شعر في رثاء الحسين بن علي منه قوله :

رأس ابن بنــت محمــد ووصيه يا للرجــال على قنــاة ترفــع
والمسلمــون بمنظــر وبمسمــع لا جــازع من ذا ولا متخشــع
أيقظت أجفانا وكنــت لها كرى وأنمت عينا لــم تكن بك تهجع

وقد بلغ من قسوة العباسيين على العلويين أن كــان من يجــرؤ على مدحهم أو رثائهم من الشعراء يتعرض للنقمة الشديدة من قبل الخلفــاء ، وهذا ابن هرمة يقول مرة في مدح آل الرسول :

ومهمــــا ألام علــى حبهــــم فانــي أحــب بنــي فاطمــه
بنــي بنت من جــاء بالمحكمــا ت والديــن والسنــة القائمــه

فاذا سئل بعد ذلك من قائلها أنكر أنه قالها وشتم قائلها • وقد انكر عليه ابنه أن سب نفسه لانه كان يعلم أنه قائل البيتين فقال له : « ان ذلك خير للمرء من ان يأخذه ابن قحطبة[٣١] » •

اما هجاء بني العباس فقد سلك سبيله من شعراء العلويين دعبل بن علي ابن رزين الخزاعي الذي لم يكد يسلم من لسانه احد من الخلفاء او رجال السلطان • وقد هجا هرون الرشيد والمأمون والمعتصم وابراهيم بن المهدي، وكان يتخذ من هجاء هؤلاء الخصوم وسيلته لمدح اوليائه من آل البيت في بعض الاحيان • من ذلك ابياته التي هجا بها هرون الرشيد بعد موته ورثى بها علي بن موسى الرضا • وفيها نعى على العباسيين ما فعلوا بآل علي وهم اولو قرباهم وابناء عمهم ، وانهم لا عذر لهم في ما اصابوا به العلويين من القتل والاذى ان كان لبني امية من عذر •

يقول فيها :

وليس حي من الاحياء نعلمه — من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
ألا وهم شركاء في دمائهم — كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة — فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا — ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس على القبر الزكي اذا — ما كنت تربع من دير على وطر
قبران في طوس خير الناس كلهم — وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قبر الزكي ولا — على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت — له يداه فخذ ماشئت أو فذر[٣٢]

وقد هجا دعبل بعد ذلك ابراهيم بن المهدي لما تولى الخلافة في بغداد في غيبة المأمون فأوجعه وأمرّه ، فمن ذلك قوله :

---

(٣١) الاغاني ج ٤ ص ١٠٩ — ١١٠ .

ان كان ابراهيم مضطلعـا بهـا ... فلتصلحن مـن بعـده لمخـارق
ولتصلحـن من بعد ذاك لزلزل ... ولتصلحـن مـن بعـده للمارق
أنى يكون ولا يكون ولم يكن ... لينال ذلك فاسق عن فاسق[٣٣]

وقد هجا دعبل المعتصم ايضا فأمضه واوجعه ومما قال فيه :

بكى لشتات الدين مكتئب صب ... وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
وقام إمـام لم يكن ذا هدايـة ... فليس لـه ديـن وليس لـه لب
وما كانت الأنباء تأتـي بمثلـه ... يملك يـوما أو تدين لـه العرب
ولكن كما قال الذين تتابعـوا ... من السلف الماضين اذ عظم الخطب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... خيار اذا عـدوا وثامنهـم كلب
واني لأعلي كلبهم عنـك رفعـة ... لأنـك ذو ذنـب وليس له ذنب

ويبدو انه لم يسلم من هجائه الا المأمون في وقت ما ، لانه كان علويا في بعض زمنه ، فجعل ولاية عهده لعلي بن موسى الرضا ، وعدل عن السواد وكان يجاهـر بتفضـيل علي بن ابي طالب ولا ينتقص مـن سـواه مـن السلف[٣٤] . على ان لدعبل في المأمون شعرا يشبه ان يكون لوما وتقريعا ولا يبلغ مبلغ الهجاء . ذلك قوله بعد ان بلغه وعيد المأمون :

ويسومني المأمـون خطة عارف ... أو ما رأى بالأمـس رأس محمد

---

(٣٢) ذكر من روى خبر دعبل مع الرشيد في الاغاني أن الرشيد كان محسناً اليه وأن دعبلا غدر به بعد وفاته قال : « والله ما بلغه ان الرشيد مـات حتى هجاه في قصيدة مدح بها اهل البيت » وذكر الابيات . وهـذا يخالف منطق الحوادث فقد مات علي بن موسى الرضا ـ وهو مرثـي في هذه الابيات ـ في خلافة المأمون فلابد ان دعبلا قال هذا الشـعر في أيام المأمون او بعدها ، وذكر الرشيد بالذم في سياق الرثاء . يراجع الاغاني ج ١٨ ص ٤٤ وما بعدها .

(٣٣) كان المأمون يقول لابراهيم اذا دخل عليه : لقد اوجعك دعبل حيث يقول ... ويذكر الابيات السالفة . تاريخ بغداد لطيفور ج ٦ ص ٢٩٧ .

توفي على هـام الخلائق مثلمـا   توفي الجبـال علي رؤوس القردد
اني من القـوم الذين سيوفهم   قتلـت أخـاك وشرفوك بمقعد
ان التـرات مسـهد طلابهـا   فاكفف لعابك عن لعاب الأسـود

ويمكن القول ـ على الاجمال ـ ان شعر المعارضة العلوية لم يكـن بالقوة التي كان عليها ايام بني امية بل ضعف في هذا العصر العباسي وهبطت قيمته ، ولذلك اسباب ألم البحث ببعضهـا في الكلام على شعر المؤيدين للخلافة العباسية . ولعل من تلك الأسباب أيضا ما يأتي :

أولا ـ أن حجة القربى من الرسول كانت نصيبا مشتركا بين العلويين والعباسيين أصحاب الدولة القائمة ولهذا كانت الحجـة أقوى عند شعراء العباسيين وأكثر تفصيلا ، بل لقد زاد فيها العباسيون أن دعوا أنهم هـم الوارثون حقا لامامـة المسلمين ، وخلافـة الرسول فيهـم لأنهم أبناء عم والعلويون أبناء بنت وبنو العم أولى . على أن العلويين قد ردوا على هذا المعنى الذي قاله مروان بن ابي حفصة :

أنـى يكون وليس ذاك بكائـن   لبني البنات وراثـة الأعمـام

قال احد شعراء العلويين وهو محمد بن يحيى بن ابي مرة التغلبي :

لم لا يكون وإن ذاك لكائـن   لبنـي البنـات وراثة الأعمـام
للبنـت نصف كامـل من مالـه   والعـم متـروك بغـير سـهام
ما للطليـق وللتـراث وانمـا   صلى الطليق مخافـة الصمصام

ثانياً ـ كان خلفـاء بني العبـاس يجتذبون اليهم الشعراء بالأموال والصنائع فكان هذا يجذب اليهم بعض المعروفين بولاء العلويين من الشعراء كمنصور بن سلمة النمري الذي رأيناه يمدح العباسيين ويؤيدهم ويرد على

(٣٤) يراجع في ذلك تاريخ بغداد لطيفور ص ٧٥ ـ ٧٩ .

العلويين وينقص مذهبهم ويبطن الولاء للعلويين ويصطنع التقية .

ثالثاً ــ ولعل قسوة بني العباس على معارضيهم وشدة بأسهم أخافت الشعراء فصاروا اذا قالوا في آل علي شعراً أسروه وتستروا عليه مخالفة البطش والتنكيل كما مر بنا في خبر ابن هرمة وبيتيه . وكما غضب الرشيد لما سمع أن منصور بن سلمة النمري قد رثى أهل البيت وانشد بعد موت منصور قوله في تلك الأبيات :

شاء من الناس راتع هامل ... يعللون النفوس بالباطل

وما بعدها وقد مرت روايتها . فقال الرشيد : « لقد هممت ان انبشه ثم احرقه »[٣٥] .

لذلك ولغيره من الاسباب ضعف شعر المعارضة العلوية ولم يعد له شأنه ايام بني امية يوم خرج الكميت بهاشمياته فأحدث حدثاً خطيراً في الشعر السياسي .

٣ ـ الاموية

اما الحزب الاموي فقد لقي من العباسيين بطبيعة الحال نكالا عظيماً حتى كاد يفنى وتندرس معالمه ، ولم يبق من رجاله من يعتد به او لم يعد التاريخ يذكر من رجال هذا الحزب ذا شأن في الحياة العامة . وقد حاول الخلفاء ان يستأصلوا شأفة القوم فلم يبقوا منهم على اثر بيّن . وقصة أبي العباس السفاح لما انشده سديف قوله في بني امية وهم مجتمعون في حضرته:

لايغرّنك ما ترى من رجال ... ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لاترى فوق ظهرها امويا

(٣٥) الشعر والشعراء ص ٢٥٨ .

هذه القصة معروفة مشهورة .

وقد تحول كثير من شعراء الأمويين بولائهم الى السلطة القائمة ، سلطة العباسيين وأصبحوا من شعرائهم الذين محضوهم الولاء وانصرفوا الى مدحهم وتأييد دولتهم كمروان بن أبي حفصة الذي كان من موالي الأمويين ومن شعرائهم المنقطعين اليهم . وتلك سنة طبيعية أن يكون الناس مع السلطة القائمة .

وقد ألمنا فيما سبق من البحث بموقف العباسيين من ابناء عمهم العلويين وذلك يكفي لتصور موقفهم من أعدائهم الأمويين الذين حرموهم مما كانوا يطمحون اليه قرناً أو بعض قرن من الزمان .

ومن أجل ذلك لانكاد نجد بين الشعراء من حافظ على ولائه للأمويين وجهر به الا النزر اليسير .

من هؤلاء أبو العباس الأعمى الذي بقي وفياً لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . وله في ذلك خبر مع أبي جعفر المنصور رواه المسعودي فقال : « حدث علي بن محمد المدائني أن المنصور قال : صحبت رجلا ضريراً الى الشام ، وكان يريد مروان بن محمد في شعر قاله فيه ، قال فسألته أن ينشدني فأنشدني :

ليت شعري أفاح رائحة المسـ ... ـك وما ان احال بالحيف أنسي
حين غابت بنو أمية عنه ... والبهاليل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فرسا ... ن عليها وقالة غير خرس
لا يعابون قائلين وان قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
وحلوم اذا الحلوم استخفت ... ووجوه مثل الدنانير ملس

قال المنصور ـ فوالله ما فرغ من شعره حتى ظننت ان العمى أدركني . وكان والله ممتع الحديث حسن الصحبة» .

قال : « وحججت سنة احدى واربعين ومائة فنزلت على الحجاز في جبلي زرود أمشي لنذر كان علي . فاذا أنا بالضرير ، فأومأت الى من كان معي : تأخروا ، ودنوت منه فأخذت بيده فسلمت عليه ، فقال : من أنت ، جعلني الله فداك ، فما اثبتك معرفة ؟ » . فقلت : « رفيقك الى الشام في أيام بني أمية وأنت متوجه الى مروان » . فسلم علي وتنفس وأنشأ يقول:

آمت نساء بني أمية منهم ... وبناتهم بمضيعة أيتام
نامت جدودهم وأسقط نجمهم ... والنجم يسقط والجدود تنام[٣٦]
خلت المنابر والأسرة منهم ... فعليهم حتى الممات سلام

فقلت له كم كان مروان أعطاك ؟ فقال : أعناني فلا اسأل أحدا بعده . فقلت : كم ؟ فقال : أربعة آلاف دينار وخلع وحملان . قلت : وأين ذاك ؟ قال : بالبصرة . قلت : أتثبتني معرفة ؟ فقال : أما معرفة الصحبة فقد ، لعمري ، وأما معرفة النسب فلا . فقلت : أنا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين. فوقع عليه الاتكاء وقال : ياأمير المؤمنين أعذر فان ابن عمك محمداً صلى الله عليه وسلم قال : « جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها » . قال أبو جعفر : فهممت والله به ثم تذكرت الحرمة والصحبة فقلت للمسيب : أطلقه ، ثم بدا لي في مسامرته رأي فأمرت بطلبه فكأن البيداء أبادته[٣٧] .

وممن ذكر بني أمية في شعره عرضاً أبو عطاء السندي الذي لم يحظ عند بني العباس فقال :

فليت جور بني مروان عاد لنا ... وليت عدل بني العباس في النار

---

(٣٦) في مروج الذهب نيام وسياق البيت يقتضي ما اثبتناه والله اعلم .
(٣٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

على أننا نجد في شعر بعض الشعراء بعد ذلك ذكـراً موجزاً لبني أمية في مقام النقد على الخلافة العباسية من أجل حوادث خاصة ليست لها دلالة على ولاء أو استمساك بهـم . مثال ذلك قول بشـار بن برد يهجو المهدي ووزيره يعقوب بن داود :

بني أمية هبـوا طال نومكـم ان الخليفـة يعقوب بـن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بـين النـاي والعـود

وقـول البحتري في أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري ومـا ناله ، وغفلة الخلافة عنه :

يا ضيعة الدنيا وضيعـة أهلهـا والمسلمـين وضيعـة الاسـلام
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يجـزى علـى الأيـام بالأيـام
نامت بنـو العباس عنه ولم تكن عنـه أميـة لـو رعـت بنيام

ولعل من اسباب انقراض الحزب الأموي أن الذين غلبوا على الحياة السياسة في العصر العبـاسي كانـوا في جمـلتهم خصومـاً ألداء للأمويين ، مشحونة صدورهم غيظاً عليهم ، مملوءة نفوسهم حقداً وموجدة ؛ إما بسبب العصبية القبلية التي اتخذها بنو أمية طابعاً يتميز به حكمهم إذ أنهم كانوا يميلون الى النزارية – في الغالب – ويتعصبون على القحطانية واليمانيـة، فكان أن اعتمد العباسيون على اليمانية في تأييد دوتهم ؛ وإما بسبب عصبيتهم للعرب – على وجـه العموم – وتعاليهم على الموالي والأعاجم وحرمانهم من مناصب الدوة والمنزلة الرفيعة فيها . فلما أفضى الأمر الى العباسيين فأحلوا هؤلاء وأولئك في موضع التأثير مـن السلطـان انتقموا مـن الأمويـين وأنصارهم فأمعنوا في الانتقام .

وقد كان يشارك العبـاسيين ومواليهم في النقمة على بني أمية الحزبُ

العلوي ، بل لعله كان من الوجهة الادبية أشد خصوم الامويين وابعدهم أثراً في ما لقيه حزبهم وانصارهم من مصير .

٤ ـ ضعف الشعر السياسي واسبابه

وهكذا نلاحظ ان الشعر السياسي قد ضعف في العصر العباسي عموماً وفي بغداد على وجه الخصوص ضعفاً بيناً ، ولم يعد له في الحياة الادبية تلك المكانة الاولى التي كان عليها في ما سبق من العصور لعدة اسباب منها :

اولاً ـ ان المعين الذي يستمد منه الشعر السياسي في العادة ، وهو الحزبية التي تتناحر وتتخاصم تأييداً ومعارضة ، قد نضب في هذا العصر الذي نحن بصدده او كاد . والمعارضة تشحذ الاذهان وتفتح القرائح ؛ وكان من اسباب ضعفها ما اشرنا اليه من ضعف العلويين واندثار الامويين على وجه التقريب ، فاقتصر الشعر السياسي في القرن الثاني الهجري على مدح الخلفاء والاشادة بحقهم في الخلافة والتحدث عن ذلك الحق المقدس الذي ورثوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . او توجع خصوم الدولة الموتورين ، من شيعة آل علي ، لما اصابهم من النكبات .

ثانياً ـ إن الحوادث السياسية الخطيرة التي تحدو بالشعراء الى قول الشعر كانت قليلة ضئيلة الخطورة في القرن الثاني . فقد كان هذا القرن فترة استقرار للدولة وتوطيد لدعائمها حتى إذا حدث بين الامين والمأمون ما حدث ، وجدنا الشعر يأخذ بنصيبه في ذلك الحدث الخطير . فوقف طائفة من الشعراء موقف الوفاء للامين ورثوه رثاء الوامق المتفجع ، وحملوا على المأمون وتنقصوا منه . نذكر من هؤلاء على سبيل المثال الحسين بن الضحاك نديم الامين وجليسه الذي تعرض من اجل ما رثاه به من الشعر لسخط المأمون عليه واعراضه عنه .

روى ابو الفرج فقال : « لما قدم المأمون من خراسان وصار الى بغداد

أمر ان يسمى له قوم من اهل الادب ليجالسوه ويسامروه ، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحاك وكان من جلساء محمد المخلوع ، فقرأ اسماءهم حتى بلغ الى اسم حسين فقال :

« أليس هو الذي يقول في محمد :

هلا بقيت لسد فاقتنا ... أبداً وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفاً سلفوا ... ولسوف يعوز بعدك الخلف

لا حاجة لي فيه ، والله لا يراني الا في الطريق[٣٨] » .

والحسين بن الضحاك هو الذي يقول في رثاء محمد الامين :

«أطلْ حَزَناً وابك الامام محمداً ... بحزن وان خفت الحسام المهندا
فلا تَمّت الأشياء بعد محمد ... ولا زال شمل الملك عنها مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ... ولازال في الدنيا طريداً مشردا[٣٩]»

على اننا لا نكاد نقع في شعر الشعراء على ما يصح ان نلحقه بالشعر السياسي الذي يلتزم الحزبية لحزب ذي مطلب معروف في السياسة فيدافع عنه ويهاجم خصومه ، وانما كان شعر الشعراء محض عواطف حزبية او شماتة بما حدث بين الاخوين الخليفتين .

وفي ايام المعتصم وقعت حوادث سياسية ذات شأن كان منها ثورة بابك الخرمي وخروج الافشين من بعده ، ثم كان فتح عمورية وما الى ذلك من حوادث الثغور ، وكل تلك احداث جسام انطقت الشعراء بالرائع القيم من الشعر فقال ابو تمام قصيدة في الافشين واولها :

---

(٣٨) الاغاني ج ٦ ص ١٦٦ .
(٣٩) وقع هذا الشعر في يد المأمون فقرأه واستمع الى غناء فيه ولم يغضب من اجله . يراجع تاريخ بغداد لطيفور ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

الحق ابلج والسيوف عوارِ فحذارِ من اسد العرين حذارِ

وبائيته الخالدة في فتح عمورية وهي التي اولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ثالثاً — ومن أهم الاسباب التي ادت الى ضعف الشعر السياسي انه اصبح لا يفي بمراد الاحزاب السياسية وفاء النثر بذلك ، وكان التقدم الذي اصابته الحياة السياسية والعقلية يستلزم اداة للتعبير اطوع واوسع حرية من الشعر ، فأصبحت رسائل الكتاب البلغاء تقوم مقام الشعر او بعض مقامه في تأييد المذاهب السياسية وفي الدفاع عنها . فصنف الجاحظ كتاباً في امامة ولد العباس احتج فيه لمذهبهم وناقش العلويين وصنف ايضا كتاب العثمانية للرد على العلويين وكتاباً آخر في امامة المروانية يؤيد امامة بني امية .

وقد نقض على الجاحظ كتبه التي مر ذكرها جماعة كأبي عيسى الوراق والحسن بن موسى النخعي ، ونقض عليه كتاب العثمانية ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكاف وهو من شيوخ المعتزلة البغداديين(٤٠) .

ولا مراء ان النثر هو المجال الرحب الذي يصلح لمثل هذه الاغراض لانه غير مقيد بقيود الشعر الفنية من وزن وقافية وطريقة خاصة في التعبير والتصوير ، فلا غرابة اذا رأيناه يغلب في هذا العصر على التعبير عن المذاهب السياسية والجدال فيها ويحل محل الشعر في ذلك الى مدى بعيد .

وثمة ظواهر اخرى قد تكون سياسية في مبعثها وفي غاياتها ولكن آثارها كانت على العموم اجتماعية ، ولعم تؤثر في الحياة السياسية تأثيرها الواضح القوي . من تلك الظواهر : حركة الشعوبية وما كان لوزراء الفرس فيها من اثر ومن توجيه وبخاصة اسرة البرامكة .

---

(٤٠) مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

ومنها ايضا العربية المناهضة للشعوبية التي قام على توجيهها وتغذيتها وإمدادها امراء الجيوش من رجالات العرب كمعن بن زائدة الشيباني وابن اخيه يزيد بن مزيد وابي دلف القاسم بن عيسى العجلي وحميد بن عبدالحميد الطومي وامثالهم .

ومنها كذلك مظاهر العصبية القبلية التي ساهم في إثارتها دعبل بن علي الخزاعي في نقضه لمذهّبة الكميت وما جرى بينه وبين ابي سعد المخزومي من المناقضة ، وما اشبه ذلك من الحوادث الجزئية التي لم تعقب آثاراً سياسية ذات شأن . ولذلك آثرت ان اضعها في صف العوامل الاجتماعية التي هي موضوع الفصل الاتي بعد .

الفصل الثاني

العـامل الاجتماعي

من المعروف ان الدولة العباسية قامت على اساس فكرة دينية مآلهـا العودة بالحكم الى الاصول الاسلامية التي يحكم فيها كتاب الله وسـنة الرسول ، وان تعود الخلافة الى ذوي الحق فيها وهم اهـل بيت الرسول وعصبته من بني هاشم •

ولقد كانت دولة بني أمية ــ التي قامت الدولة العباسية على انقاضها ــ تؤثر العرب فيها بمناصب الدولة ، النزارية منهم واليمانية ، وتحلهم فيها محلا يعلو على محل الموالي والاعاجم • وكان التفاخر بالانساب طابع تلـك الايـام يتحـدث عنه الشعراء في اشـعارهم وتقوم من اجـل ذلك مجالس المناظرات والمفاخرات • ولو رجعنا الى شعر جريـر والفرزدق والاخطـل لوجدناه يحفل بالتفاخر والاعتزاز بماضي الآباء والاجداد والادلال بمجـد القبائل والاسر ، حتى ادى ذلك الى ان تتنازع القبائل وتتطاحن ، كل يريد ان يحتجز لنفسه اكبـر نصيب من المجد ورفعة الشـأن ، وكانت السـلطة الحاكمة ترتاح لذلك وتشجع عليه وتتخذ من القبائل انصاراً يؤيدونهـا او خصوماً تناصبهم العداء ، فكان من امر العصبية بين القبائل وانحياز الخلافة الى هذا الجانب مرة والى ذلك مرة اخـرى ، حتى كان ذلك الصـراع المستمر معولا شارك في هدم الدولة •

وكان آخر من شارك في إثارة العصبية وفي تأليب القبائل بعضها علـى

بعض مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين • فكان من امر انحياز مروان الى النزارية واعتماده عليهم وإيثارهم لديه ان التمس المضطهدون المهجورون ملاذاً يركنون اليه فانحاز اليمانية والاعاجم الى صف الدعوة العباسية[1] •

وقد اختلفت الحال في دولة بني العباس ، فقد كان بنو العباس وبنو هاشم عموما نزارية بطبيعة الحال ، وكان انصارهم واعوان دولتهم من اليمانية والاعاجم على الاكثر ، فكان من الطبيعي ان لا تظهر في دولتهم أثارة من التعصب لقوم على قوم • فالنزارية قومهم وعشيرتهم واليمانية أنصارهم والاعاجم سند دولتهم •

١ - الأعاجم في الحياة العباسية

ولقد شعر اهل خراسان في الدولة العباسية انهم قد عرف لهم بلاؤهم في قيام الدولة ونصرتهم اياها ونضالهم في سبيلها ، وجاء ذلك على لسان الخلفاء وغيرهم من وجوه بني العباس • فقال المنصور لاهل خراسان : « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا • »

وأوصى أبو جعفر المنصور ابنه المهدي - قبل وفاته - خيراً بأهل خراسان فقال له : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان وتخلف من مات منهم في أهله وولده •[1] »

وقال داود بن علي لأهل الكوفة : • « يا أهل الكوفة انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح لنا شيعتنا من أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا[2] • »

---

(١) يراجع في ذلك مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣ .
(٢) العامل السياسي في ادب العصر العباسي الاول للاستاذ احمد الشايب.

ولقد تمكن بعض الاعاجم في الدولة العباسية أن يتولوا مناصب الوزارة ويتقلدوا أهم أعمال الدولة • فكان أول من وزر للعباسيين أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الذي كان وزيراً لأبي العباس السفاح وهو مولى• وتولى هذا المنصب بعده جماعة من الأعاجم كان أبرزهم وألمعهم بنو برمك الذين بلغوا في عهد هرون الرشيد ما لم يبلغه في الدولة العباسية غيرهم من التسلط والتأثير في شئون الخلافة وفي أمور الحكم وفي المجتمع العباسي بوجه عام •

والذي يعنينا في هذا الباب أن الأعاجم قد دخلوا في الحياة العامة من اوسع ابوابها ، مرفوعة رؤوسهم ، ووجدوا من الخلافة والسلطان كل تيسير وتمهيد ، وكان لهم في الحياة العباسية على اختلاف مناحيها مكانهم الذي تحيفوا به على العرب في بعض الأحيان •

ولقد كان أبو جعفر المنصور ــ وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ــ يقظاً حذراً مما قد يأتي به هذا العنصر الجديد الذي دخل في حياة الدولة الاسلامية بصورة فعالة مؤثرة ، فكان في بنائه لبغداد ما يستدل على احتياطه وتحفظه مما قد يأتيه من جهه فارس من أخطار قد تهدد كيان الدولة فجعلها ــ كما اسلفنا في أول البحث ــ متصلة من الغرب ببلاد العرب منفصلة عن فارس وبلاد العجم بنهر دجلة(٣) •

وكأنه كان يدرك بواسع حيلته ما يمكن ان يبيته الفرس والاعاجم من غدر بدولته مثل أبي مسلم الخراساني الذي استطاع المنصور ان يقضي عليه قبل استفحال أمره • وفي قصة المنصور مع خالد بن برمك ــ لما اراد ان يهدم ايوان كسرى ليبني بأنقاضه مدينته ــ ما يدل على انه لم يكن يغتر بولاء الاعاجم بل انه كان يعرف ما يساورهم من الحنين الى ماضيهم وتاريخهم البعيد •

---

(٣) لقد اسهبنا في الكلام على اسباب بناء المنصور لبغداد في الفصل الاول.

وهكذا استطاع أبو جعفر المنصور ان يأمن ما كان يحلم به بعض هؤلاء من تحويل الخلافة الى دولة كسروية ، واستطاع ان يضع للخلافة سياسة تحفظ التوازن بين عناصر الدولة فلا يطغى بعضها على بعض .

ويبدو ان الخليفة المهدي قد شعر بشيء من الاطمئنان لرسوخ قواعد الدولة واستقرار شؤونها فأخذ يقرب اليه الاعاجم تقريبا اطمعهم فيه ، ووكّل يحيى بن خالد بن برمك بتربية ابنه هرون فغلب عليه .

وفي خلافة هرون الرشيد كشف القوم القناع عن عصبيتهم العارمة على العرب بعد ان شعروا بأنهم قد ثبتت اقدامهم في الدولة الجديدة وفي جوانب حياتها العديدة فكان لهم في الادب مكانهم الواسع الرحيب كما كان لهم في السياسة نفوذهم الطاغي واثرهم البعيد .

على ان مشاركة الموالي والاعاجم في الادب وفي الشعر على وجه الخصوص لم تبدأ بقيام الدولة العباسية بل لقد بدأت منذ ان عرف الشعر سحيماً عبد بني الحسحاس ونصيب بن رباح ، وإن لم يظهر لأصلهما غير العربي في شعرهما اثر واضح وضوح ما ظهر في شعر الشعراء من بعد[٤] .

٢ ــ الشعوبية

وقد ظهرت في العصر الاموي نزعة عرفت بالنزعة الشعوبية[٥]، وكان يراد بها مقاومة ما كان يلقاه الموالي من عصبية الدولة الاموية عليهم في اول الامر ، ثم تطور امرها فأصبحت فخراً بالاعجمية وعيباً على العرب وثلباً لهم .

---

(٤) مر الكلام على هذين في الفصل الثاني من الباب الاول .

(٥) الشعوبية نزعة ترمي في أصلها الى المساواة بين الاقوام والشعوب تحقيقا لما في قوله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

ولعل من اوائل الشعراء الذين فخروا على العرب وتحدثوا قن الأكاسرة وعن حضارتهم وامجادهم اسماعيل بن يسار النسائي • فقد افتخر في شعره بأصله الفارسي واعتز به ودعا العرب ان يتركوا التفاخر على الاعاجم فقال :

رب خال متوّج لي وعم ماجد مجتدى كريم النصاب
انما سمّي الفوارس بالفر س مضاهاة رفعة الأنساب
• • • • • • • • • • • • • • • • •الخ

ولكن العصر الاموي لم يكن يتيح لمثل هذه النزعة حرية الظهور والاعلان والمجاهرة ، فبقيت ضئيلة حتى قامت دولة بني العباس وتمكن منها الاعاجم الى حد ما ، فجلجل صوتاه وقوي امرها •

وصرنا نرى من الشعراء من يرفع صوته بها في مجالس الامراء من العرب مثل بشار وأبي نواس •

أما بشار فقد كان — على رغم نشأته بين قبائل الغرب — يعتز بأصله الفارسي ويدل به • ولقد حدث عن نفسه فقال : دخلت على المهدي فقال لي : في من تعتد يا بشار ؟ فقلت : أما اللسان والزي فعربيان واما الاصل فعجمي كما قلت في شعري :

ونبئت قوماً بهم جنة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرم
نحت في المكارم بي عامر جدودي وأصلي قريش العجم
واني لأغني مقام الفتى وأصبي الفتاة فما تعتصم

ثم قال له المهدي : فمن أي العجم أصلك ؟ قال : من اكثرها في

الفرسان واشدها على الاقران أهل طخارستان[٦] .

وفخره بأصله الاعجمي كثير في شعره فمن ذلك قوله :

وهجاني معشر كلهم	حمق دام لهم ذاك الحمق
ليس من فخر ولكن ساءهم	شرفي العارض قد سد الأفق
من خراسان وبيتي في الذرى	ولدى المسعاة فرعي قد سبق

ولم يكن بشار يكتفي بأن يفخر بأصله الاعجمي بل لقد كان لا يتورع من ان يهجو العرب في بيت واحد من سراتهم . يروى[٧] أن اعرابياً دخل على مجزأة ابن ثور السدوسي – بالبصرة – وبشار عنده وعليه بزة الشعراء فقال الاعرابي : من الرجل ؟ فقالوا : شاعر . فقال : أمولى هو أم عربي ؟ فقالوا : بل مولى . فقال الأعرابي : ياللموالي والشعر . فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال لصاحب البيت : أتأذن لي ياأبا ثور ؟ قال : قل ماشئت ياأبا معاذ . فأنشد بشار :

خليلي لا أنام على افتقار	ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عني	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسبتَ بعد العري خزاً	ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع	بني الأحرار حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قراح	شركت الكلب في ولغ الاطار
تريد بخطبة كسر الموالي	وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدّريها	ولم تعقل بدراج الديار

(٦) بشار بن برد شعره واخباره لاحمد حسنين القرني ص ٨٠ – ٨١ .

وتتشح الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار

ولقد امعن بشار في شعوبيته فلم يعد في هذا العصر يعترف بولائه للعرب وبنشأته فيهم ، ولم يعد يفاخر بمواليه من بني عقيل بن كعب الذين لقنوه الفصاحة ونشأوه عليها :

أمتي من بني عقيل بن كعب موضع السيف من طلا الأعناق

بل لقد تبرأ من ولاء العرب كلها وأصبح يشعر بأنه لايحتاج اليها في قليل أو كثير ، قال :

أصبحت مولى ذي الجلال وانما مولى العريب فجد بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع الى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر

وهو في هذا يصور لنا انتقالا خطيرا في حياة الموالي وفي الحياة الاسلامية بوجه عام ، فقد اصبح للفرد قيمته في المجتمع مهما كان أصله ومهما كان منشؤه ، ولم يعد يحتاج الى ان يحتمي بمن يواليه من القبائل حتى لا يستضعف فيناله من الآخرين مايكره ، أو يستعير مفاخر تلك القبائل لنفسه فيدل بها على الناس وليس هو منها في شيء . وهذه من غير شك مزية من مزايا التحول الذي أصاب الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، وهي بحق تحقيق لما أمر به الدين من احلال المساواة بين أفراد المجتمع ، وإجهاز على بقايا التقاليد البدوية الجاهلية التي كان بنو أمية يرعونها

---

(٧) نفسه ص ٥٦ .

ويعتدون بها ويعدونها مصدر قوة لدولتهم وأساساً من الأسس التي قامت عليها سياستهم •

ولم يقف امر الشعوبية عند هذا الحد ، فلما افوي نفوذ البرامكة وهم كانوا يرعون هذه النزعة ، ويمدون الناطقين بلسانها فأصبحت الشعوبية في أيامهم تمادى في الاستهتار بالعرب ولا تبالي بالسخرية بهم وتجعل قبائلهم سخرياً وتتخذها هزواً •

واتخذت اشعوبية في تحقيق غرضها وسيلة الانتقاص من الاعراب وذم حياتهم والموازنة بينها وبين الحياة الحضرية التي وجد الناس فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين •

فكان أبو نواس يهزأ بالأعراب ويذكر معايبهم ومثالبهم ويسخر من مفاخرهم بما كانوا يفاخرون به :

اذا ما تميمي أتاك مفاخراً
فقل : عدّ عن ذا ، كيف أكلك للضب ؟

وقد اتخذت الشعوبية عند أبي نواس مظهراً جديداً يتميز بتحدى التقاليد الفنية في الشعر ، تلك التقاليد التي لزمها المحدثون واتبعوها كالوقوف على الأطلال ومساءلة الدمن والبكاء على المنازل ، وما أشبه ذلك من وصف الصحراء ونباتها ، وكان يدعوهم الى نبذ هذه التقاليد والاعراض عن هذه الأوصاف والالتفات الى مظاهر الحضارة الجديدة وما فيها من المتع التي فتنت قلب أبي نواس وملكت عليه إحساسه :

دع الأطلال تسفيها الجنوب ... وتبلي عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضاً ... تحث بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً ... ولا عيشاً فعيشهم جديب

ذر الألبــان يشـــربها أُناس رقيــق العيــش عندهــم غريب
بأرض نبتهــا عشــر وطلــح وأكثــر صيدهــا ضبع وذيب
إذا راب الحليــب فبــل عليــه ولا تحــرج فما في ذاك حــوب
فأطيــب منــه صافيــة شمول يطوف بكأسهــا ســاق أريــب

ولقد كان افتتان أبي نواس بالحضارة ومظاهرها وولوعه بالخمـر ومجالسها يدخلــه مدخل المستهتر الذي لايبالي بما يقول فتجري المثلبــة على لسانه ، لا لأنه يريدها ويقصد اليها ، ولكن لأنــه يضيق ذرعاً بمــن يجعلها مفخرة ومأثرة يقف عندهاويبكي أهلها . ومن أجل هذا كان يشتط فيحقر قبائل العرب ويصرح بالاستهزاء بهم . ها هو ذا يقول مرة :

عاج الشقي على رســم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلــد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ درّك قل لي من بنو أسد
ومن تميــم ومن قيس ولفهمــا ليس الأعاريــب عند الله من أحد
لا جفّ دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرهــا وبين باك على نــؤي ومنتضد
دع ذا عدمتــك واشربها معتقــة صفراء تفرق بين الروح والجسد
. . . . الخ

وبالرغم من كل هذا لا نكاد نجد أبا نواس يفاخر بالأعاجم أو يذكرهم في مجال المفاخرة بهم وتفضيلهم على العرب الا في موضع واحد من شــعره الذي بين ايدينا . وذلك حين يوازن بين الرسوم الداثرة التي خلفها العرب وبين ما خلف كســرى وسابور من منازه بين دجلة والفرات تنبت الشجر الجميل ولا تنبت الطلح والعشر ولا تصطاد فيها اليرابيع والوحر :

دع الرسم الذي دثرا يقاسي الريح والمطرا [٨]
وكن رجلاً أضاع العلم في اللذات والخطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والفرا ت أخصها الشجرا
لأرض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصايدها يرابيعاً ولا وحرا
. . . . الخ

ويغلب على ظن الباحث أن أبا نواس لم يكن يتخذ من الشعوبية مذهباً يجد في اعتقاده جداً ، فيعادي العرب أو يتنصل منهم كما تنصل منهم بشار ، ولم يذكر في شعره أنه أعجمي يفخر بأعجميته ، كما فعل بشار أيضاً، وإنما كان ، كما يبدو للباحث في شعره وفي سيرته ، ابن العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي نشأ فيها ، وقد كان كذلك في جزء كبير من شعره.، وثار على الشعراء الذين كانوا يعيشون بمشاعرهم وبعواطفهم في عصور غابرة وفي بيئات غريبة عنهم ، عض عليها الدهر ، وتطاول بها الزمن ، فلم يبق منها الا أخيلة وأوهاماً وتقاليد متحجرة لا حياة فيها ولا رواء وكانت طبيعته الماجنة المستهترة تدفعه الى ان يحمل على الاعراب ويثلب قبائل العرب ويهزأ بها ، لا لانه كان يشعر نحوها بشعور الغريب المتبرم بها وبأهلها ، ولكن شعور الذي كان يجد في حياته الحضرية في بيئته المتحضرة المترفة ما هو أخلق منها بأن يتغنى بها الشعراء ، واجدر ان يستمتعوا بها استمتاعاً فنيا . فلا تزدوج شخصياتهم ولا يكذبون في عواطفهم ومشاعرهم تقليداً واتباعاً .

---

(٨) روى ناشر الديوان الأبيات متشككاً في نسبتها الى ابي نواس وهي على ما يظهر ليست من طراز شعره — يراجع ديوان ابي نواس . ط . اسكندر آصاف .

وجملة الأمر أن أبا نواس كان يحمل لواء شورة على تقاليد الشعر الموروثة ليس هنا محل الكلام عليها ولا على تفاصيلها من الوجهة الفنية ، ولكنه لم يكن مدفوعاً الى تلك الثورة بدافع الشعوبية والعصبية على العرب وانما كان يدفعه اليها انطلاق وحرية في عواطفه ، واندماجه الهائل بالبيئة الجديدة ، ويحمله عليها من بعض الوجوه عصبية قبلية يمانية ، كانت مبنية على شيء من الالمام بحضارة اليمن والمعرفة بتاريخها مما سنعرض الى تفصيله في موضعه من البحث إن شاء الله . وكان يمثل وعياً حضارياً تأثر بالشعوبية من بعض الوجوه ، وتمثل دعوتها الى الاقبال على الحياة الجديدة والاعراض عن الحياة القديمة المقفرة الجديبة .

وقد ظهرت االشعوبية في هذا العصر في مظاهر أخرى لاتعنينا في هذا البحث ، فألف بعض الاعاجم كتباً في مثالب العرب وفي الطعن عليهم والازدراء بحياتهم ، مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى والهيثم بن عدي ومن على شاكلتهما .

٣ ـ اثر الشعوبية في الشعر

ولقد ادى الى اتساع الدعوة للشعوبية وتقيوتها وذيوعها وانتشار تأثيرها في الحياة الاجتماعية والادبية ، تغلغل النفوذ الفارسي والاعجمي في الحياة العباسية ، يمثله اوضح تمثيل نفوذ الاسرة البرمكية التي بدأ شأنها في الارتفاع ايام الخيلفة محمد المهدي ، وبلغ امرها ذروته في زمن هرون الرشيد ، فجمعت حولها الشعراء واغدقت عليهم الاموال فصار الشعراء يمدحون رجالها مدحاً مجيداً ويضعونهم في مصاف الخلفاء ، حتى انه لما ولي الرشيد الخلافة وعهد الى يحيى بن خالد بن برمك بالوزارة ، دخل عليه ابراهيم الموصلي فقال يهنئه :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما ولى هرون أشرق نورها

فألبست الدنيا جمالاً بوجهه فهرون واليها ويحيى وزيرها

وحتى نعتهم الشعراء بنعوت الملوك ورفعوهم في شعرهم الى منزلة لم تكن منزلة الخلفاء ارفع منها • وابتكروا في مدحهم معاني لم يكن للشعر بها عهد من قبل • كقول نصيب أبي الحجناء مولى المهدي فيهم :

عند الملوك مضرة ومنافع وأرى البرامك لا تضر ، وتنفع
إن كان شر كان غيرهم له أو كان خير فهو فيهم أجمع
إن العروق إذا استسر بها الثرى أشر النبات بها وطاب المزرع
فإذا جهلت من امرىء أعراقه وقديمه فانظر الى ما يصنع

وهكذا أصبحنا نرى الشعراء يمدحون فلا يمدحون بالنسب المجيد والاصل الشامخ والفرع الباذج وإنما يلتمسون تعليلا جميلا لمن لا تعرف أصولهم وأنسابهم فيجعلون مدار الفضل على ما يصنع المرء إن خيراً فخير وإن شراً فشر •

وحتى صرنا نرى أشجع السلمي — وهو من الشعراء الذين كانوا منقطعين الى البرامكة — يمدح جعفر بن يحيى البرمكي مدحاً جديداً فيقول فيه مثل هذه الابيات :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس
فاذا تراءته الملوك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس

بل يبالغ أشجع في مدح جعفر فيجعله فوق الملوك بما يبذل من معروفه، يريدون مداه فيقصرون عنه ويلوذون بأبوابه اذا نالهم حادث عظيم :

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع

وليس بأوسعهم في الغنى ولكنّ معروفه أوسع
تلوذ الملوك بأبوابه اذا نالها الحدث الأفظع

بل لقد بالغ بعض الشعراء في مدحهم فأسبغوا عليهم ثوباً من التقديس لم يكن معروفاً في الشعر العربي من قبل ، فجعلهم الرقاشي ــ وهو ايضا صنيعة من صنائعهم وربيب من ربائب نعمتهم ــ كالبيت الحرام والحجر الاسود يستلم ويطاف حوله . يروى[٩] ان الرقاشي اجتاز بالفضل بن يحيى مصلوباً على الجذع فوقف يبكي احرّ بكاء ثم انشأ يقول :

أما والله لولا خوف واشٍ وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

ويطول بنا الكلام لو حاولنا ان نتتبع آثار البرامكة في الحياة الاجتماعية والادبية وحسبنا من ذلك ما اسلفناه ومرادنا منه الدلالة على مقدار ما احدثوه من التأثير في اتجاه الحياة العباسية .

٤ ــ اثر الأعاجم في الحياة العباسية والشعر خاصة

ولقد كان لوجود الاعاجم في الحياة العباسية اثرها في الحياة الاجتماعية ، وكان لها صورتها الواضحة في الشعر فقد ادت الى ظواهر اجتماعية جديدة انعكست صورتها في الشعر ــ ومن اهمها :

أولاً ــ انحراف المقاييس الاجتماعية او بعبارة ادق تغيرها عما ألف الناس عند العرب ، فقد ضعف الاعتداد بالانساب والتفاخر بالاموال او كاد . ألا ترى في قول نصيب في البرامكة :

---

(٩) الاغاني ج ١٤ ص ٣٤ ــ ٣٥ .

ان العروق اذا استسر بها الثرى ... أشر النبات بها وطاب المزرع
فاذا جهلت من امرىء أعراقه ... وقديمه فانظر الى ما يصنع

وقد ادى ذلك الى تغير كبير في معاني المديح ، واتجه بها واجهة جديدة . وكذلك حدث لمعاني الهجاء ، اذ اصبحت تقوم على اساس مختلف عن القديم كما سيأتي بيانه .

ثانياً — افتتان الناس بالحياة الحضرية وما فيها من العناصر الاعجمية ، وولوعهم بما فيها من ترف باذخ في المأكل والمشرب والملبس . وقد كان لذلك صورته في الشعر فوصف الشعراء هذه الاشياء الجديدة وامعنوا في الاقبال عليها كقول ابي نواس في الخمر :

تدور علينا الراح في عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مها تدّريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرّت عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانس

وحتى نشأ — متأثراً بذلك من بعض الوجوه — فن جديد في الشعر هو وصف مجالس الشراب واللهو وغير ذلك من مظاهر الحضارة الجديدة . وحتى دخلت الالفاظ الفارسية في الشعر دليلاً على التظرف وامارة على الترف والرقة والدراية بالحضارة . ويبدو أن الالفاظ الفارسية كانت تتداول في مجالس الشراب واللهو فينقلها بعض الشعراء حين يصفون تلك المجالس ويتحدثون عنها . مثال ذلك قول اسحق الموصلي وقد تبناه اسحق بن ابراهيم المصعبي في مجلس من مجالس شرابه التي اعتاد اسحق ان يغشاها[١٠] :

---

(١٠) الاغاني ج ٥ ص ٨٠ .

لعمري لئن كان الأمير تمنّاني   بمجلس لذات ونزهة بستان
لقد زادني ما كان منه صبابة   وجدد لي شوقاً اليه وأبكاني
فيا ليت شعري هل أروحنّ مرة   اليه فيلقاني كما كان يلقاني
وهل أرين يوماً غضارة ملكه   وسلطانه لا زال في عز سلطان
وهل أسمعن ذاك المزاح الذي به   اذا جئته سليت همي وأحزاني
اذا قال لي «يامردمي خر[11]» وكرّها   علي وكناني مزاحاً بصفوان

ومن العجيب ان بعض الالفاظ الفارسية قد دخلت في فن من الشعر عريق في البداوة لا يتصور ان يتأثر بالحياة الحضرية هذا التأثر وهو الرجز. فقد قال العماني الراجز يمدح الرشيد في احدى اراجيزه :

من يلقه من بطل مسرند   في زعفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه والكرد[12]

وقال فيها ايضاً :

لما هوى بين غياض الأسد   وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد[13]

ثالثاً ــ المجون والتهتك والاقذاع ، وتلك امور لم يكن المجتمع العربي قديم العهد بها ولا كان الشعر العربي يحوم حولها او يتحدث فيها .

وكان طليعة هذه المظاهر الاجتماعية في بغداد من نزح اليها من اهل

---

(١١) معناها « يارجل اشرب النبيذ » .
(١٢) الكرد : العنق .
(١٣) آب سرد : الماء البارد . يراجع البيان والتبيين ج ١ ص ١٣١ .

الكوفة والبصرة ، وكان فيهم شعراء ألفوا ان يجتمع بعضهم الى بعض ويهجو بعضهم بعضاً هجاء فيه من الافحاش والاقذاع ما لم نألفه عند الشعراء من قبل ، وكان اغلب هؤلاء من غير العرب . من هؤلاء بشار بن برد وحماد عجرد وأبو الشمقمق ووالبة بن الحباب ومطيع بن اياس وغيرهم . وكان هؤلاء طرازاً فريداً من الشعراء يتهاجون تماجناً وتظرفاً ، ويمعنون في الهجاء حتى يخرجوا به مخرجاً يأباه العرف وتنفر منه الاخلاق ، ولكنهم ما كانوا يبالون بذلك ولا يغضب بعضهم من بعض على ما يكون في هجاء بعضهم بعضا من الافحاش وبذيء القول وانما كانت تتغلب عليهم النظرة الفنية الى ذلك الهجاء ، فيعجب المهجو بمن يهجوه ان كان في شعره معنى طريف جديد لم يسبقه اليه ، بل يحسده احياناً على ذلك المعنى وينفسه عليه ويتبناه لنفسه[١٤] .

ولقد كان من آثار التبدل الذي أشرنا اليه في المقاييس الاجتماعية ان الهجاء لم يعد عند شعراء هذا العصر انتقاصاً من كرامة الشخص المهجو والطعن فيه وفي قومه وبالغض من مكانته ومكانة قبيلته اجتماعياً وسياسياً كما كان يكون بين جرير والفرزدق والاخطل والراعي وسواهم من فحول الشعراء في العصر الاموي ، ولكنه اصبح هزؤاً بالشخص وسخرية به وعبثاً يجعله ضحكة بين الناس . ولا بأس في التفكه بالطعن في عرضه وفي شرفه طعناً لا يزيد الهجاء الا امعاناً في الاستهزاء والسخرية . وهذا يعني من الناحية الاجتماعية ان الفرد قد اصبح هو الوحدة الاجتماعية لا القبيلة كما كان الحال في ايام الجاهلية وفي عصر بني امية من بعد .

وفي اخبار بشار وحماد ما يكشف لنا عن هذه الحالة التي جدّت على المجتمع العباسي وظهرت صورتها في الشعر واضحة[١٥] .

---

(١٤) تراجع في ذلك اخبار بشار وحماد في الأغاني .
(١٥) تراجع في ذلك اخبار بشار وحماد في الأغاني .

وللكلام على هذا الموضوع مكانه في الفنون وفي المعاني التي جدت في الشعر •

وكان من آثار ذلك ايضا ما نلاحظه من الانحراف في بعض فنون الشعر كالغزل فقد عرف الشعر الغربي لاول مرة في تاريخه الطويل ما يسمى الغزل بالمذكر وهو وصف الغلمان والسقاة والندماء الذين تكونت منهم طبقة جديدة في المجتمع ، تجمع بين صفات النساء والرجال ، وتعنى بالزينة وتتخنث تخنث النساء ، ويعبث بها المجان والعابثون عبثهم بالجواري والقيان ؛ ونشأ في المجتمع العباسي ما يغلب على الظن انه ضرب من الانحراف الجنسي في علم النفس بحب الجنس Homosexualiay

وصار فن الغزل القديم غزلاً مكشوفاً ضحل العاطفة سطحيها ، يبرز فيه جانب الشهوة بروزاً لم يكن يعرف من قبل بسبب ابتذال المرأة وانحطاط قيمتها وكثرة الجواري والقيان اللواتي يسهل الوصول اليهن والتمتع منهن بما يشتهى ، وتوارت حرائر النساء من الشعر ، ولم يعد لذكرهن في الشعر وأثرهن في نفوس الشعراء ما كان لهن في العصور القديمة • ومن المعروف أن ابتذال المرأة وسهولة التمتع بما يؤدي الى اضعاف واضح لعاطفة الحب وهبوط بها الى مستوى الشهوة الجنسية •

* * *

ولسنا نزعم ان غلبة الأعاجم في الفترة الاولى من العصر العباسي هي التي أدت الى ذلك ، أو أنها كانت هي السبب الوحيد الذي نتج منه هذا التحول في الحياة الاجتماعية ، فأثر في الشعر هذا الأثر الذي نحاول ان نرصد بعض مظاهره ، وانما كانت غلبة الأعاجم هي السبب الأقوى مضافاً اليه أسباب أخرى اجتماعية واقتصادية وحضارية •

والمهم في هذا الأمر أن نقرر أن الأعاجم ومشاركتهم الواسعة الفعالة في الحياة العباسية قد نشأ عنها تحول أساسي في الحياة الاجتماعية يشبه ان يكون رد فعل لما كان عليه الحال من قبل في عصر بني أمية • ولقد اراد هؤلاء الاعاجم أن يحلوا محل امراء العرب وسادتهم في توجيه الحياة الاجتماعية والأدبية فاجتذبوا اليهم الشعراء يغدقون عليهم الأموال ويستنطقونهم بما كانوا يهوون ويريدون ، ويهيئون لهم من ألوان الحياة ما يدفعهم الى التحدث عنها ووصفها وقول الشعر فيها ، حتى لقد اغروهم بالحيلة على تقاليد الشعر القديمة والثورة عليها ففعلوا •

ومن الملاحظ أيضاً أن جانباً كبيراً من شعراء هذا العصر ــ العصر العباسي الأول ــ كانوا من غير العرب أو مشكوكاً في عروبتهم على الأقل كبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية وأبي نواس وكان هؤلاء هم طلائع التجديد في الشعر والانتقال به من حال الى حال • وأنا أعني بذلك أنهم كانوا حضريين لا تجمعهم بحياة الاعراب وشيجة متينة ولا تصلهم بقديم الشعر العربي صلة وثيقة في الغالب •

٥ ــ الروح العربي واثره في الشعر

ولم يكن مجال الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ليخلو لغير العرب ويخلو من العرب وهم مادة الدولة وعنصرها الاصيل ، فقد كان أبو جعفر المنصور مؤسس الدولة الحقيقي حريصاً على أن يحفظ التوازن بين عناصر دولته حتى لايطغى بعضها على بعض ــ كما أشرنا الى ذلك أكثر من مرة ــ ولم يكن يتيح للأعاجم أن ينفردوا بالتأثير على مصير الحياة السياسية واجتماعية فكان منه ما كان مع أبي مسلم الخراساني •

ويبدو أن الأعاجم من أنصار أبي مسلم قد أحسوا عاقبة مقتله والقضاء

عليه فثاروا بأبي جعفر وهاجموه ، وقاتلهم حتى أصبحت حياته هو في خطر منهم لولا أن انتدب لنصرته معن بن زائدة الشيباني فأبلى في مناصرته بلاء حسنا أرضى عنه أبا جعفر المنصور بعد أن كان ساخطا عليه لعلاقته بالأمويين • وقد مكن له هذا الرضا من الخليفة في الدولة العباسية وكان له ولأولاده وأهل بيته من بعده شأنهم في الدولة وأثرهم في حياتها الأدبية والاجتماعية •

وكان لمعن بن زائدة شعراء اختصوا به ووهبوه مدائحهم ووهبهم عطاياه السنية وصلاته السخية ، فكانوا يمجدون فيه أصله ونسبه ويمدحونه بشرف الأصل ورفعة النسب ويلتزمون في ذلك التقاليد العربية في الشعر•

وممن كان يختص معنا بالمدح مروان بن أبي حفصة ، وكان معن يجزل صلته ويسني له العطاء ، وقد اغضب ذلك عليه أبا جعفر المنصور حتى انه دخل عليه مرة فلما نظر اليه قال له : «هيه يا معن ، تعطي مروان أبي حفصة مائة الف درهم على قوله :

معن بن زائدة الذي زيدت به ... شرفاً على شرف بنو شيبان »

فقال : « كلا ياأمير المؤمنين ، انما أعطيته على قوله :

ما زلت يوم الهاشمية[16] معلناً ... بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان »

فقال : « أحسنت يامعن » • [17]

وقد كان معن فيما يظهر بقية من امراء العرب الذين يهتزون للمدائح

(١٦) الهاشمية : مدينة ابي جعفر المنصور قبل ان ينتقل الى بغداد .
(١٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

السنية فيثيبون عليها الثواب الجزيل . روي عن ابن الاعرابي ان مروان بن أبي حفصة أخبره أنه وفد على معن بن زائدة مرة فأنشده قوله :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في بطن خفان اشبل
هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
لهاميم في الاسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا أجابوا وان أعطوا أطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وان أحسنوا في النائبات وأجملوا

قال : فأمر لي بحلة سنية وخلع علي وحملني وزودني .

قال ابن الاعرابي : « لو أعطاه كل ما يملك لما وفاه حقه . »(١٨)

ومن اتصل بآل زائدة من الشعراء مسلم بن الوليد صريع الغواني وله في يزيد بن مزيد مدائح كثيرة منها لاميته البديعة التي يقول فيها :

موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى الى أمل

ولقد بلغت هذه الحركة الاجتماعية الادبية مبلغاً جعل الخلفاء يحسون أن أمراء الجيوش وقوادها من العرب قد اخذوا ينشئون لهم بهذا الشعر منزلة اجتماعية خطيرة ، فكانوا ينفسون عليهم مدائح الشعراء ، ويشعرون ان هؤلاء الامراء والقواد قد غصبوهم او نافسوهم في المنزلة الاجتماعية العليا التي كانوا يحسبونها . ذلك لان هؤلاء الشعراء كانوا يمدحون الامراء برفعة الانساب ويقولون عنهم أنهم مفخرة العرب وعزهم ، وتلك وأمثالها صفات يريدها الخلفاء خالصة لانفسهم من دون الناس . هذه ناحية ، وفي هذا الامر ناحية اخرى ، فقد يكون بعض المتصلين بالخلفاء من الاعاجم — وهم

---

(١٨) الاغاني ج ٩ ص ٤٣ .

كثير — كانوا يحسون خطر هؤلاء السادة العرب على نفوذهم الاجتماعي ومكانتهم في الدولة فيسعون بما كان يقوله فيهم الشعراء الى الخلفاء ليغضبوهم على أولئك الشعراء ويوغروا صدورهم عليهم وعلى ممدوحيهم. كما كان من أمر المأمون وعلي بن جبلة العكوك حين رفض مديحه ولم يرض عنه لما قاله في أبي دلف القاسم بن عيسى وفي حميد بن عبد الحميد الطوسي.

وقد روي قصة العكوك والمأمون صاحب الأغاني عن ابي نزار الضبي الشاعر قال: « قال لي علي بن جبلة، قلت لحميد بن عبدالحميد الطوسي: يا ابا غانم إني قد مدحت امير المؤمنين بمدح لا يحسن مثله أحد من اهل الارض فاذكرني له. قال: فأنشدني، فأنشدته؛ قال: أشهد أنك صادق؛ ما يحسن أحد أن يقول هكذا. واخذ المديح فأدخله الى المأمون. فقال له: يا حميد، الجواب في هذا واضح، إن شاء عفونا عنه وجعلنا ذلك ثواباً لمديحه، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي ابي دلف وبين شعره فينا، فان كان الذي قاله فيكما أجود ضربنا ظهره واطلنا حبسه، وان كان الذي فينا اجود اعطيناه لكل بيت الف درهم، وان شاء اقلناه. فقلت له: يا سيدي ومن انا ومن ابو دلف حتى يمدحنا بأجود من مديحك؟ فقال: ليس هذا الكلام من الجواب في شيء، فاعرض ما قلت لك على الرجل. فقال: أفعل. قال علي بن جبلة: « فقال لي حميد: ما ترى؟ فقلت: الاقالة احب الي؛ فأخبر المأمون بذلك فقال: هو اعلم..

ثم قال لي حميد: يا ابا الحسن، أي شيء يعني من مدائحك لي ولأبي دلف؟ فقلت: قولي فيك:

لولا حميد لم يكن — حسب يعدّ ولا نسب
يا واحد العرب الذي — عزت بعزته العرب

وقولي في أبي دلف :

انما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره
فاذا ولّى أبو دلف ... ولّت الدنيا على أثره[19] . »

ولقد كان ابو دلف وحميد بن عبدالحميد الطوسي يقرّبان اليهما الشعراء ويحسنان اليهم احساناً بلغ الغاية ، فكانت بين الشعراء وبينهما علائق حب ومودة واعجاب واكبار ، وتلك ظاهرة جديدة في الشعر بين الشاعر وممدوحه . فنحن لا نعرف قبل ابي دلف وحميد الطوسي ممدوحاً ــ في مثل المنزلة التي كانا عليها ــ يحل الشعراء في نفسه محل الأخلاّء والاحباء .

ونحن نقرأ لعلي بن جبلة العكّوك مديحاً في حميد وفي ابي دلف فنحس ان الشاعر يهوى الممدوح ويحبه ويصطفيه من دون الناس ويتخذه خليلاً . فمن ذلك قول العكّوك من قصيدة مدح بها حميداً ووصف قصره على دجلة :

ليس لي ذنب سوى ... أني اسميك خليلا
وأناديك عزيزاً ... وتناديني ذليلا
أنا أهواك وحاليْـ ... ـك صروماً ووصولا
ثق بود ليس يفنى ... وبعهد لن يحولا

* * *

جعل الله حميداً ... لبني الدنيا كفيلا
ملك لم يجعل الله له فيهم عديلا
فأقاموا في ذراه ... مطمئنين حلولا

---

(١٩) الأغاني جـ ١٨ ص ١٠٠ .

لا تـرى فيهـم مقـلاً · يسـأل المثـري فضـولا
جـاد بالأمـوال حتـى · علّـم الجـود البخيـلا
وبنـى الفخـر على الفخـ · ـر بنـاء مستطيـلا
صـار للخائـف أمنـاً · وعلـى الجـود دليـلا

ونحن نقرأ في اخباره مع ابي دلف انه كف عن زيارته حياء منه لفـرط ما يبرّه وما يصله ، فاذا ارسل اليه ابو دلف يسأله عن سـبب تلك الجفوة وهل من تقصير في حقه دعاه اليها ، اجابه العكوك بهذه الابيات :

هجرتك لم أهجرك من كفر نعمـة · وهل يرتجى نيـل الزيادة بالكفـر
ولكننـي لما أتيتـك زائـراً · فأفرطت في بري عجزت عن الشكر
فهـا انا لا آتيـك الا مسلّمـاً · أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهر
فان زدتنـي برّاً تزيـدت جفـوة · ولم تلقني طول الحياة الى الحشر[٢٠]

وقد اتصل بأبي دلف بعد ذلك وبأمثاله من سراة العرب ابو تمـام حبيب بن أوس الطائي وأصـفاهم مديحه وخلّد ذكـرهم في شعره ؛ ومن مدائحه في أبي دلف بائيته التي مطلعها :

على مثلهـا من أربـع وملاعب · أذيلت مصونات الدموع السواكب

ورثى محمد بن حميد الطوسي برائيته المعروفة التي يقول في اولها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر · فليس لعين لم يفض ماؤها عـذر

وكان لهذه الصلة بين الشعراء وسراة العرب نتائجها المهمة في الشعر ، اذ انها اقترنت بعودة الشعر الى طريقته الاولى التي كاد يهجرها عند شعراء القرن الثاني ٠

---

(٢٠) الأغاني جـ ١٨ ص ١٠٥ ٠

ويظهر أن هذه الحركة الاجتماعية قد بلغت من بعض الوجوه مبلغ المناهضة للاعاجم والضيق بهم • وقد صرح بعض الشعراء بعد ذلك بما كانوا يحسون به من التبرم بالاعاجم وبغلبتهم على الحياة السياسية والاجتماعية .• هذا دعبل بن علي الخزاعي يهجو المعتصم فيقول انه ليس أهلاً لان تدين له العرب ، وانه قد اضاع الملك والخلافة يوم حكّم فيهما وصيفاً وأشناساً ، قال في قصيدته التي أولها :

بكي لشنات الدين مكتئب صب ... وفاض بفرط الدمع من عينه غرب

الى ان يقول :

وقام امام لم يكن ذا هداية ... فليس له دين وليس له لب
وما كانت الأنباء تأتي بمثله ... تملك يوماً أو تدين له العرب

ويقول في الاتراك :

لقد ضاع ملك الناس اذ ساس ملكهم ... وصيف وأشناس[21] وقد عظم الكرب
وفضل بن مروان يسلّم ثلمه ... يظل لها الاسلام ليس له شعب

وهكذا ضاق العرب بالترك كما ضاقوا من قبل بالفرس ، ولكنهم في هذا العصر ــ القرن الثالث ــ قد وجدوا الشجاعة في التصريح بذلك الضيق ، كما فعل دعبل ، وكما قال بعض الشعراء البغداديين في الاتراك[22] وهو عارق بن آثل الطائي :

ما ان يزال ببغداد يزاحمنا ... على البراذين أشباه البراذين
أعطاهم الله أموالاً ومنزلة ... من الملوك بلا عقل ولا دين
ما شئت من بغلة شقراء ناجية ... أو من أثاث وقول غير موزون

---

(٢١) وصيف واشناس من قواد المعتصم الاتراك .
(٢٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٩٣ .

ولعل ذلك يدلنا على ان شعور العرب بالعصبية وتجمعهم وتكتلهم قد بلغ في هذا القرن مبلغاً اضطر ان ينتقل بجنده الاتراك من بغداد الى سامراء ، بل قد يكون اصطناعه الاتراك وإعراضه عن الفرس ضرباً من الاستجابة لضيق العرب بالفرس وبسيطرتهم على الحياة الاجتماعية ، وخاصة بعد ما بلغوه من المنزلة ايام اخيه المأمون الذي كان يدين لهم بانتصاره على الأمين وظفره بالخلافة الى حد بعيد .

على انه يجدر بنا ان نلاحظ ان الاتراك لم يخلفوا في الحياة الاجتماعية والادبية اثراً يذكر ، لانهم لم يكونوا ورثة حضارة كالاعاجم من الفرس ولم يكن لهم في توجيه الشعر والحياة الادبية اثر ذو بال ، ما عدا ما مدح به البحتري احد رجالهم وهو الفتح بن خاقان .

ولقد كان لهذه الظاهرة ــ ظاهرة العصبية العربية ــ اثرها في الحياة الاجتماعية وفي الشعر والحياة الادبية .

اما في الحياة الاجتماعية فقد حميت العصبية بين اليمانية والنزارية وظهرت آثارها في الشعر ، وقد كان فارسها المعلم الشاعر العلوي دعبل بن علي الخزاعي الذي يبدو انه كان يعتز بقبيلته خزاعة وما كان لها من البلاء في نصرة المأمون . وقد ادل بذلك في شعره ، فقال للمأمون ــ وقد بلغه انه توعده :

ويسومني المأمون خطة عارف	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائق مثلما	توفي الجبال على رؤوس القردد
ويحل في أكناف كل ممنع	حتى يذلل شاهقاً لم يصعد
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفوك بمقعد(٢٣)
ان التراث مسهد طلابها	فاكفف لعابك عن لعاب الأسود

(٢٣) كان طاهر بن الحسين قائد المأمون مولى لخزاعة .

وقد نقض على الكميت بن زيد الاسدي قصيدته التي هجا فيها اليمانية وافتخر فيها بالنزارية واولها :

ألا حييت عنا يا مدينا ... وهل ناس تقول مسلمينا

فقال دعبل يفتخر بقومه اليمانية ويهجو نزاراً :

أفيقي من ملامك يا ظعينا ... كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالي ... يشيبن الذوائب والقرونا
أحيي الغر من سروات قومي ... ألا حييت عنا يا مدينا
فإن يك آل إسرائيل منكم ... وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي ... مسخن مع القرود الخاسئينا

الى ان يقول :

لقد علمت نزار أن قومي ... الى نصر النبوة فاخرينا(٢٤)

وقد اجابه عليها أبو سعد المخزومي فتطاول بينهما الهجاء واشتدت بينهما المناقضة ولم يقف ابو سعد المخزومي لدعبل ولم يبلغ منه شيئاً فتبرأت منه بنو مخزوم .

ومما يبعث على الاستغراب أن دعبلا والكميت كليهما من شعراء العلويين ، وأن ولاء دعبل لآل علي ولبني هاشم عموماً لم يمنعه من هجاء النزارية وآل علي وبنو هاشم منهم ، وذلك يدل على أن العصبية قد بلغت عنده مبلغاً جعلته يغفل مذهبه الديني الذي عرف به وبدفاعه عنه واندفاعه في سبيله .

---

(٢٤) يشير في ذلك الى الاوس والخزرج انصار النبوة وهم من الازد والازد من اليمن .

على أن من حق البحث أن نشير الى أن هذه العصبية لم تظهر في القرن الثالث فجأة من دون مقدمات ، بل اننا نجد لها بوادر واصولا في القرن الثاني وعند شاعر لم نعرف عنه إلا انه حرب من بعض الوجوه على قبائل العرب يستهزىء بها ويسخر منها في شعره وهو أبو نواس .

ولأبي نواس شعر يمدح به اليمن ويهجو فيه نزاراً ويدافع فيه عن اليمن ويمجدها ، ويذكر فيه حضارتها العريقة ويمجد أبطالها ويتحدث في ذلك حديث العارف بتاريخها المطلع عليه وعلى مثالب القبائل النزارية . وهو يتناول هذه القبائل بالهجاء واحدة واحدة ويفند مفاخرها ويرد عايها . وهو يستل من بينها قريشاً كما تسل الشعرة من العجين فيذكر أنه يحبها لحب النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبو نواس في قصيدة أولها :

ليست بدار عفت وغيّرها ... ضربان من قطرها وحاصبها

الى أن قال :

فافخر بقحطان غير مكتئب ... فحاتم الجود من مناقبها
ولا ترى فارساً كفارسها ... إذ زالت الهام عن مناكبها
عمرو وقيس والأشتران وزيـ ... ـد الخيل أسد لدى ملاعبها
بل مل الى الصيد من أشاعثها[٢٥] ... والسادة الغر من مهالبها[٢٦]
... ...
أحبب قريشاً لحب أحمدها ... واعرف لها الجزل من مواهبها
ان قريشاً اذا هي انتسبت ... كان لنا الشطر من مناسبها[٢٧]

---

(٢٥) يعني آل الأشعث بن قيس الكندي .
(٢٦) يعني آل المهلب وهم من الأزد .
(٢٧) لعله يريد بذلك بني النجار من الخروج وهم اخوال عبدالله بن عبد المطلب والد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ان فاخرتنا فلا افتخار لها . ال التجارات من مكاسبها
وانها ان ذكرت مكرمة جاءت تجاراتها بغالبها
فاهج نزاراً وابر جلدتها واهتك الستر عن مثالبها
اما تميم فغير داحضة ما سلسل العبد في شواربها(٢٨)
أول مجد لها وآخره ان ذكر المجد قوس حاجبها(٢٩)

وقد كان أبو نواس يدعي النسبة الى اليمن ويزعم أنه حكمي وفي ذلك يقول له والبة بن الحباب :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم

* * *

أما أثر هذه الظاهرة ـ ظاهرة احياء العصبية العربية ـ في الشعر خاصة وفي الحياة الأدبية عامة ، فيبدو في غلبة العرب على الشعر مرة أخرى ؛ فقد صرنا نلاحظ ان الذين غزوا الشعر العربي من الموالي قد قل عددهم وضعف شأنهم في القرن الثالث على وجه العموم ، وعاود الشعر حنينه الى القديم فهجر التجديد الذي أصابه في القرن الثاني بعض الهجران ، وعاد يتمثل في اساليب الشعر الجاهلي والاسلامي صورته المثلى في الموضوع وفي الأسلوب .

ولم تكن هذه الظاهرة الاجتماعية هي السبب الوحيد لهذه النتيجة الادبية وانما كانت سبباً قوياً أضيف الى أسباب اخرى منها تدارس الشعر

(٢٨) يعني بذلك القين الذي يعير به بنو تميم . فكان جرير يهجو الفرزدق به .
(٢٩) يعني حاجب بن زرارة الذي استرهن كسرى قوسه :
فنحن بذي قار اذلت سيوفنا أنوف الذين استرهنوا قوس حاجب

القديم بالرواية ومنها عودة الدوافع القديمة للشعر ، تلك الدوافع التي ضعفت في القرن الثاني ـ قرن النهضة الحضارية في مناحيها المختلفة ـ وحل محلها التأثر بتلك الحضارة الجديدة • وأنا أعني تلك الدوافع والاحداث الخطيرة التي دأب الشعر العربي على تصويرها والحديث عنها • ولكل ذلك تفصيل نكتفي هنا بالاشارة اليه ، حتى يأتي مكانه من البحث •



الفصل الثالث

العامل الحضاري

لقد أصبح الشعر في بغداد تتضح فيه آثار الحضارة الجديدة التي دخلت في المجتمع العربي قبل تأسيس بغداد ، وصار الباحث يلاحظ في هذا العصر سلطانا للحضارة على مناحي الحياة ومنها الادب والشعر حتى كأن الحضارة لم تتغلغل في المجتمع العربي الاسلامي من قبل أو كأن الأمصار الاسلامية قبل بغداد لم تتأثر بالحضارة تأثر بغداد بها . والدليل على ذلك أن الحياة الادبية كانت بمعزل عن التبدل الذي أصاب حياة العرب بعد الاسلام وما دخلها من ألوان الترف واللهو والحياة الناعمة الرخية .

فنحن لانكاد نحس قبيل بغداد أن الشعر صار يشارك في هذا التبدل الذي طرأ على الحياة — وبخاصة في العراق — . ولعل سر ذلك أن هذا التحول لم يتغلغل أو ينفذ في نفوس الشعراء أو يلامس موطن الشعور ومنبع الاحساس فيها فبقوا ينهجون في شعرهم نهج القدماء وخلا شعرهم — الذي يعتد به نقاد الأدب ومؤرخوه — من صور الحياة الحضرية الجديدة في الغالب.

ولعل من أهم الاسباب أيضاً أن مركز الخلافة في العصر الأموي — وهو دمشق — لم يكن بيئة أدبية أو شعرية متميزة وإنما كان مقراً للحكم وتدبير الامور العامة وكان أهله في شغل بكل ذلك عن أن يستوعبوا شيئاً جديداً أو قديماً في الادب والشعر .

ولهذا نلاحظ أن البيئة الشامية قد أقفرت من النشاط الأدبي فلا تكاد

تذكر في التاريخ الأدبي بشيء متميز واضح كما تذكر مكة والمدينة والكوفة والبصرة وبغداد بعد ذلك .

ولقد بدأت مظاهر الحياة الحضرية الجديدة تظهر في الحجاز في مكة والمدينة بعد أن تخلى عنهما السلطان وبارحتهما الخلافة الاسلامية ، فكانت مجالس الغناء واللهو وكانت القيان والجواري وكانت نوادي الأدب واللهو والأنس والترف .

١ - حضارة الكوفة والبصرة

وقد انتقل بعض ذلك الى العراق في أيام الدولة الأموية . وكانت الكوفة على وجه الخصوص وارثة هذا اللون من الحياة المترفة فكان فيها القيان وكان فيها الغناء وكان فيها مجالس اللهو التي انحدرت اليها من الحجاز من مكة والمدينة والطائف وكثر في أهلها الندماء والظرفاء حتى اشتهرت بذلك شهرة بلغت مركز الخلافة وعاصمة الملك دمشق .

ولعل قرب الكوفة من الحجاز واتصالها بها من طريق نجد هو الذي أتاح لها أن تقتبس هذه الألوان من حياته ، يضاف الى هذا أنها قد ورثت حضارة الحيرة التي كانت قبل الاسلام موطناً للهو والترف والحياة الحضرية الناعمة .

ويبدو أن الكوفة قد أصبحت في أواخر العصر الأموي الموطن الأول لهذا اللون من الحياة . فكانت تعج بمجالس الغناء والشراب واللهو وكان فيها من يمتهن إعداد هذه المجالس فيهيىء فيها أسباب اللهو لمن يغشاه من الظرفاء وطلاب اللذة ورواد المتعة .

روى صاحب الأغاني عن ابن حبيب أنه قال : كان في الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين قدمها من الحجاز فكان من يسمع الغناء ويشرب

النبيذ يأتونه ويقيمون عنده مثل يحيى بن زياد الحارثي وشراعة بن الزند ومطيع بن إياس وعبد الله بن العباس المفتون وعون العبادي الحيري ومحمد ابن الأشعث الزهري المغني •

وكان ابن رامين هذا نازلا في بني أسد في جيران اسماعيل بن عمار فكان اسماعيل يغشاه ويشرب عنده ، ثم انتقل من جواره الى بني عائد فكان اسماعيل يزوره هناك على مشقة لبعد ما بينهما •

وكان لابن رامين جوار يقال لهن سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وكن من أحسن الناس غناء •

واشترى بعد ذلك محمد بن سليمان سلامة الزرقاء التي يقول فيها محمد بن الأشعث :

أمسى لسلامة الزرقاء في كبدي صدع مقيم طوال الدهر والأبد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه وكيف يشعب صدع الحب في كبدي[1]

وقد وصف اسماعيل بن عمار ، وكان مفتوناً بقيان ابن رامين ومجالس أنسه بعض تلك المجالس وتحدث عما كان يجري فيها من ألوان اللهو والطرب حديثاً فيه تحرر أهل الظرف وانطلاقهم في الشعر، من دون تكلف أو إهمال روية أو قصد الى التفنن والابداع • وصور لنا في ذلك مرحلة من مراحل تأثر الشعر بالحضارة وتحرره من تقاليده الأولى • والقصيدة طويلة نرويها دلالة على ذلك وتسجيلا لهذا التحول في الشعر العراقي — قال :

هل من شفاء لقلب لج محزون صب يغيب الى ريم ابن رامين
الى ربيحة ان الله فضلها بحسنها وسماع ذي أفانين

---

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٢٨ .

وهاج قلبي منها مضحك حسن ... ولثغة بعد رائي وفي سين
نفسي تأبّى لكم إلا طواعية ... وأنت تأبين لؤماً أن تطيعيني
أنت الطبيب لداء قد تلبس بي ... من الجوى فانفثي في فيّ وارقيني
نعم شفاؤك منها أن تقول لها ... أضنيتني يوم دير الملح فاشفيني
يا رب ان ابن رامين له بقر ... عين" وليس لنا غير البراذين[2]
لو شئت أعطيته مالاً على قدر ... يرضى به منك عين الر برب العين
لا أنس سعدة والزرقاء يوم هما ... بالباح شرقيه فوق الدكاكين
تغنيان[3] ابن رامين على طرب ... للمسجعي بتشتيت المحبين[4]

ثم يمضي على هذه الشاكلة فيصف أنسه وأنس أصحابه في بستان شورين (ولعله أحد المواضع بالكوفة) وكيف كانوا يشربون حتى يخرجوا من البستان متثاقلين من السكر فيقول :

أذاك أنعم أم يوم ظللت به ... فراشي الورد في بستان شورين
يشوي لنا الشيخ شورين دواجنه ... بالجردناج وشحاج الشعانين
نسقى طلاء لعمران يعتقه ... يمشي الأصحاء منه كالمجانين
تزلّ أقدامنا من بعد صحتها ... كأنها ثقلاً يقلعن من طين
نمشي وأرجلنا مطوية شللاً ... مشي الأوز التي تأتي من الصين
أو مشي عميان عمه لا دليل لهم ... سوى العصي الى يوم السعانين
في فتية من بني تيم لهوت بهم ... تيم بن مرة لا تيم العديين
حمر الوجوه كأنا من تحشمنا ... حسناء شمطاء وافت من فلسطين

ويبدو أن دار ابن رامين كانت ملاذاً لأهل الهوى ومنتدى لرواد اللهو

---

(٢) في الأغاني ج ١٠ ص ١٣٠ « وليس لنا الا البراذين » ولعل الصحيح ما أثبتناه .
(٣) في الأغاني « يغنيان » ولعل الصحيح ما أثبتناه .
(٤) هذا على لغة من يقول : وقد جاوزت حد الأربعين .

والأنس والمتعة حتى انه لما حج بجواريه وكان محمد بن سليمان اذ ذاك على الحجاز ساء ذلك رواد بيته وأحزنهم وافتقدوا ما كانوا يجدونه عنده . فقال اسماعيل بن عمار :

أية حال يا ابن رامين ... حال المحبين المساكين
تركتهم موتى وما موتوا ... قد جرعوا منك الأمرين
وسرت في ركب على طية ... ركب تهام ويمانين
حججت بيت الله تبغي به الـ ... ـبر ولم ترث لمحزون

فرقت قوماً لا يرى مثلهم ... ما بين كوفان الى الصين(٥)

وكان في الكوفة غير دار ابن رامين مواطن أخرى للهو الفاجر يختلف اليها جماعة من مجان الشعراء كحماد عجرد ومطيع بن اياس . فقد كان هذان يختلفان الى دار ابي عون نافع بن عون بن المقعد ويجتمعان فيها بجاريته جوهر وكان حماد عجرد يحبها ويجن بها . وهو يقول فيها :

إني لأهوى جوهرا ... ويحب قلبي قلبها
وأحب من حبي لها ... من ودها وأحبها
وأحب جارية لها ... تخفي وتكتم ذنبها
وأحب جيراناً لها ... وابن الخبيثة ربها(٦)

ويكفي دليلا على ما وصلت اليه الكوفة من توافر أسباب اللهو فيها وانصراف طائفة من ظرفائها وأدبائها اليه وتخصصهم فيه أنه كان يطلب منها الظرفاء والندماءالى سائر الأمصارالاسلامية . حتىأن الوليد بن يزيدلماأرادأن يختار جماعة من الندماء والظرفاء ينادمهم ويعاقرهم الشراب ويعاقرونه

(٥) يراجع في ذلك الاغاني ج ١٠ ص ١٢٨ – ١٣٠ .
(٦) نفسه ج ١٣ ص ٧٩ – ٨١ .

ويأنس اليهم أمر شراعة بن الزند أن يسمي له جماعة من الظرفاء من أهل الكوفة فسمى له جماعة منهم مطيع ابن اياس وحماد عجرد والمطيعي المغني فكتب في إشخاصهم اليه فأشخصوا فلم يزالوا في ندمائه ولم يفارقوه الى أن قتل فعادوا الى أوطانهم[٧] .

ولم تكن البصرة لتخلو من مثل هذه الحياة اللاهية فقد كان فيها من يقتني القيان ويخرجهن الى الناس ويعقد في بيته مجالس اللهو والشراب والغناء . وكان من هؤلاء بالبصرة أبو النضير فقد كان له جوار يغنين ويخرجن الى جلة أهل البصرة وكان أبان بن عبدالحميد اللاحقي يهجوه بذلك[٨] .

وكان للشعراء في البصرة مجالسهم ونواديهم التي يجتمع فيها بعضهم الى بعض ، يجمعهم فيا الشراب واللهو وقول الشعر ينشده بعضهم بعضا ، ذكر صاحب الاغاني رواية عن الجاحظ أنه قال : كان والبة بن الحباب ومطيع بن اياس ومنقذ بن عبدالرحمن الهلالي وحفص بن ابي وردة وابن المقفع ويونس بن ابي فروة وحماد عجرد وعلي بن الخليل وحماد بن ابي ليلى الراوية ويزيد بن الفيض وجميل بن محفوظ وبشار المرعث وأبان اللاحقي ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ويهجو بعضهم بعضا هزلا وعمدا وكلهم متهم في دينه[٩] .

وكان لبشار بالبصرة مجلسان في بيته يجلس في احدهما بالغداة ويسميه البردان ويجلس في احدهما بالعشي ويسميه الرقيق وكانت النساء تغشاه فيتحدث اليهن ويسمعهن شعره ويتغزل بهن وقد ضج من أجل ذلك فقهاء اهل البصرة وعلماؤها أمثال الحسن البصري ومالك بن دينار وقد وصف بعض ما كان يجري في مجلسه مما احتج عليه الحسن البصري .

---

(٧) نفسه ص ٧٦ .
(٨) الاغاني ج ٢٠ ص ٧٤ .
(٩) الاغاني ج ١٦ ص ١٤٣ .

فقال في نساء وردن مجلسه فتغزل فيهن وشاع أمره معهن فقال :

لما طلعن من الرقيـ ق علي بالبردان خمسا
وكأنهن أهلة تحت الثياب زففن شمسا
باكرن عطر لطيمة وغمسن في الجادي غمسا
لما طلعن حففنها وأصخن ما يهمسن همسا
ليت العيون الطارقا ت طمسن عنا اليوم طمسا
فأصبن من طرف الحديـ ـث لذاذة وخرجن قلسا
لولا تعرضهن لي ياقس[10] كنت كأنت قسا[11]

وقد كان يسقي زائراته من النساء النبيذ ويتحفهن بما لديه من لذيذ المطعم ويقول فيهن الشعر الماجن المتهتك[12].

ولقد ورثت بغداد هاتين البيئتين في حياتها الاجتماعية والعقلية والحضارية وانتقلت اليها هذه الالوان الجديدة فتأثرت بها في أدبها وفي شعرها على وجه الخصوص .

٢ ــ العناصر البغدادية في الحضارة

ولقد زادت بغداد على ما ورثته من الكوفة والبصرة أشياء أخرى ، فقد انتقل اليها من أهل هذين المصرين طائفة كبيرة وكانت تؤلف جزءاً مهماً من مجتمعها . وكانت ظروف الحياة فيها مواتية لهذا الطراز من الحياة الحضرية إذ كان جمال موقعها الطبيعي واعتدال هوائها ووفرة الانهار والبساتين فيها مدعاة لان يزهر فيها غرس الانس والمتعة واللذة . وكان

(١٠) كان بشار يلقب الحسن البصري بالقس لنسكه وورعه وتقواه .
(١١) يراجع في ذلك كتاب بشار بن برد شعره وأخباره ص ٦٨ .
(١٢) نفسه .

الرخاء ووفرة الاموال وحياة الدعة والاستقرار من الاسباب التي دعت اهل بغداد الى الاقبال على اللهو ولانس في مختلف الوانه وضروبه .

ولا ننس في هذا المقام سبباً يكاد يكون رأس هذه الاسباب وهو ان الحياة جرت في بغداد — بعد أبي جعفر المنصور وما وطّد من أركان الخلافة — رخاء هادئة ، لم تعبث بها حوادث خطيرة تصرف الناس الى الهم والغم ، وتفسد عليهم مباهج الحياة . وقد كان القرن الثاني كله كذلك على وجه العموم حتى وقع ما وقع بين الامين والمأمون فتغير وجه الحياة في بغداد .

وكأن الاقدار ارادت أن تهيىء لبغداد أسباب المتعة والانس من كل جانب ، فأوجدتها وسط تلك القرى الآرامية الجميلة التي ورثت حضارة العراق القديمة وأخذت من حضارة الفرس الساسانيين بطرف . وقد كان أهل تلك القرى يحسنون الاستمتاع بالحياة ويجيدون من ضروب اللهو والمتاع كل طريف أنيق . فكانوا يحسنون صنع النبيذ ويهيئون لمن يقصدهم من متعاطيه المكان الجميل النظيف ، ويمتعون أنظارهم بكل جميل من مناظر طبيعية وآدمية .

تحدث اسحق بن ابراهيم الموصلي فقال : قال لي أبي « كنت في شبابي الازم أصحاب قطر بل وباري وبني [13] وما أشبه هذه المنازل فأتخذ فيهم الخمار اللطيف ، فيجيئونني بالشراب ويخبئونه [14] لي فجئت الى باري يوماً فلقيني خماري فقال لي : « يا أبا اسحق عندي شيء من بابتك . وقد كنت عملت لحني هذا :

(١٣) قرى كانت قريبة من بغداد محيطة بها . يراجع في ذلك معجم البلدان لياقوت .

(١٤) في الأغاني ج ٥ ص ٢٠ بالجزم ولا وجه له .

اشرب الـراح وكـن في   شربـك الـراح وقـورا
فاشـرب الـراح رواحـاً   وظلامـاً وبكـورا

قال فدخلت بيته وبذلت دنه وجعلت أرجع الصوت فبهت ينظر الي والنبيذ يجري حتى امتلا الاناء وفاض فقلت له : ويحك شرابك قد فاض . فقال: دعني من شرابي . بالله مات لك انسان في هذه الأيام ؟ فقلت : لا . قال: فما بال حلقك (١٥) هذا حزين (١٦) ؟ »

والظاهر أن سكان هذه القرى كانوا من الآراميين كما أشرنا الى ذلك وانهم كانوا يتكلمون بالآرامية ويحافظون على علاقتهم بماضيهم ، الامر الذي يقفنا على أن في حياتهم هذه أثارة من الحضارة السامية التي نبتت في وادي الرافدين قبل أن تعرف الحضارة الفارسية طريقها الى الوجود بقرن .

وثمة خبر يدلنا على ذلك جرى لابراهيم الموصلي أيضاً . فقد خرج الرشيد ذات مرة فأخرج معه ابراهيم ، وكان به مشغوفا ففقده في بعض المنازل أياماً وطلبه فلم يخبره أحد بقصته ، ثم أتاه فقال له : « ويحك ماخبرك؟ وأين كانت غيبتك ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين حديثي عجيب . نزلنا بموضع كذا وكذا فوصف لي خمار من ظرفه ومن نظافة منزله كيت وكيت ، فتقدمت أمام ثقلي وأتيته مخفاً فوافقت أطيب منزل واوسع رجل وأطيب طعام، وأسخى نفس من شاب حسن الوجه ظريف العشرة فأقمت عنده فلما أردت اللحاق بأمير المؤمنين أقسم علي وأخرج لي من الشراب ما هو أطيب واجود ما رأيت فأقمت ثلاثاً ووهبت له دنانير كانت معي وكسوة وقلت فيه :

سقياً لمنزل خمار قصفت بـه   وسط الرصافة يوماً بعـد يومين
ما زلت أرهن أثوابي وأشربهـا   صفراء قد عتّقت في الدنّ حولين

---

(١٥) لايزال اهل بغداد يسمون اللحن حلقا فيقولون : حلق صبا وحلق حجاز ويريدون به لحن صبا ولحن حجاز .
(١٦) الأغاني جـ ٥ ص ٢٠ ــ ٢١ .

حتى إذا تهدت مني بأجمعها عاودته بالربا دناً بدنين
فقال «أزل بشينا» حين ودعني وقد لعمرك زلنا عنه بالشين

وقوله « أزل بشينا » كلمة سريانية تفسيرها « امض بسلام »[17] .

وفي هذا ما يدل على حياة الحضارة التي ازدهرت في بغداد وآتت أكلها في الشعر وفي الأدب كانت تستمد أسباب الازدهار من الميراث الحضاري الاصيل الذي انحدر الى بغداد من بقايا العراقيين القدماء ، وأن التأثير الحضاري لم يكن لحضارة الفرس فحسب كما ذهب الى ذلك فريق من أساتذة الأدب المعاصرين[18] . بل قد يكون بعض الحضارة الفارسية قبساً من حضارة وادي الرافدين تأثر به الفرس ثم ردوه بعد ذلك الى العرب في بغداد .

وقد حفلت بغداد يومئذ بالمواضع الجميلة التي كانت تتخذ مسارح للأنس واللهو ومجالس للشراب كانت تجمع بين جمال الطبيعة وجمال الوجوه . وقد وصفها الشعراء فأكثروا من وصفها وتحدثوا عما كان فيها من وسائل الاغراء والامتاع .

من ذلك قول أبي نواس :

لا تبك رسماً بجانب السند ولا تجد بالدموع للجرد
ولا تعرّج على معطلة ولا أثاث حلت ولا وتد
ومل الى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهد صففت[19] نمارقه في ظل كرم معرش خضد

---

(١٧) الأغاني ج ٥ ص ١١ .
(١٨) من هؤلاء الأستاذ نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدبي :
M. Nicholson : Literary History of the Arabs. P. 285 - 287 .
والدكتور طه حسين في حديث الأربعاء ج ٢ ص ٢٣ وما بعدها .
(١٩) في الديوان ط . صاف صفقت ولعل مااثبتناه اصوب .

قـد لحفتك الغصـون أرديـة فيومك الغض بالنعيـم نـدي
ثم اصطبح من أمـيرة حجبت عن كل عين بالصون والرصـد

ومن ذلك أيضاً قول علي بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من متنـزه الى قصر وضـاح فبركة زلـزل
مساحب أذيال القيان ومسرح الـ حسان ومثوى كل خرق معدّل
لو أن امرأ القيس بن حجر يحلها لأقصر عن ذكر الدخول فحومل

وكان هؤلاء القوم من سكان بغداد القدماء نصارى في الغالب وكانت لهم أديرة يغشـاها الشعراء وغيرهم من أهل الظـرف واللهو ليشربوا من خمرها وليتمتعوا فيها بالنظر الى حسانها . وقد تحدث عنها أبو نواس في بعض شعره أيضاً . فمن ذلك قوله في دير حنة :

يا دير حنـة من ذات الأكيـراح من يصحُ عنك فإني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لهـا يلعبـن منـا بألبـاب وأرواح

ونحن نطالع إغراء هذه المواضع ، وما كانت تفعله في نفوس الشعراء فتحملها على الامعان في اللهو والاغراق فيه والاقامة عليه ، والانصراف اليها وإلي ضروب المتاع فيها ونجد هذه الصورة في شعر أبي نواس أيضاً على وجه الخصوص . فقد حج ابو نواس وتنسك وكان يخشى على نسكه مـن مغريات هذه المرابع التي تسبي الحليم وتفتن الناسك فقال :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرى وأرجو وأخشـى طيرناباذا
أخشى قضيّب كرم أن ينازعني رأس القطار وان اسرعت إغذاذا
ما أبعد النسك من قلب تقسّمه قطربّـل فقرى بنـى فكلواذا
فان سلمت وما قلبي على ثقـة من السلامة لم أسـلم ببغـداذا

٣ ـ الغناء والشراب ، الغناء والشعر

وثمة عنصر عتيد من عناصر الحياة الحضرية ورثته بغداد عن الحجاز والكوفة فوجد فيها منبتاً طيباً وتربة خصبة فآتى أكله شهيا جنيا وهو الغناء.

ولقد مر بنا في هذا الفصل أن بعض أهل الحجاز قد رحل الى الكوفة ومعه قيان يغنين الناس في بيته يسمعون فيه الغناء ويتخذون فيه ضروباً اخرى من اللهو • ويبدو أن الكوفة قد أصبحت فيما بعد موطناً مهماً من مواطن هذا الفن •

فقد ولد في الكوفة ابراهيم الموصلي وفيها بدأ يأخذ الغناء ثم طلبه بعد ذلك في الأمصار •

وقد انتقل هذا الفن بطبيعة الحال هو وأهله الى بغداد ، فوجد في مجالس خلفائها وأمرائها الرحبة الناعمة بيئته الملائمة المساعفة فنمى وأزهر وأثمر وأصبح في بغداد أشبه شيء بالضرورة في مجالس الأنس واللهو ، ووجدت طائفة المغنين مجالا رحباً فيها ، حتى كانوا يتناوبون الحضور في مجالس الخلفاء للغناء [٢٠] •

وكان الخلفاء ومن اليهم من عليه القوم ورجال الدولة يتذوقون الغناء ويطربون عليه ، ويجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلات • بل كان بعضهم يحسن الغناء ويعرف أصوله ، ويصنع أصواتاً يغنيها هو أو يلقيها على جواريه وعلى المغنين ليغنوها • كذلك كان هرون الرشيد وكذلك كان الواثق وكذلك كان ابراهيم بن المهدي وأخته علية بنت المهدي •

فأما ابراهيم بن المهدي وهو أخو الخليفة هرون الرشيد ، فقد بلغ في الغناء منزلة المجيدين وكان صنواً لابراهيم الموصلي وابنه اسحق • وكتب الأدب واخبار حافلة بأخباره وأصواته التي كان يضعها أو

---

(٢٠) يراجع على سبيل المثال الأغاني والطبري ومروج الذهب •

يغنيها . حتى هجي بالغناء وعيّر به ، هجاه به الشعراء حين ولـى نفسه الخلافة في بغداد زمن المأمون حين فارق مقر الخلافة فقال فيه دعبل بن علي الخزاعي :

ان كان ابراهيم مضطلعاً بهـا ... فلتصلحن من بعد لمخارق[٢١]
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل[٢٢] ... ولتصلحن من بعده للمارق
أنى يكون ولا يكون ولم يكن ... لينال ذلك فاسق عن فاسق

ويروى صاحب الاغاني أن علية بنت المهدي كانت تغني وكان يعقوب يرمز لها على الغناء[٢٣] .

وكان الواثق يصنع أصواتاً في الغناء ويعرضها على اسحق بن ابراهيم الموصلي وكان اسحق يغني أصواتاً صنعها الواثق . ولقد قال فيه اسحق : ما كان بحضرة الواثق أعلم منه بالغناء[٢٤] على كثرة ما كان في حاشيته من المغنين .

وممن كان يحسن الغناء من أهل بيت الخلافة عبدالملك بن صالح العباسي ومن الوزراء جعفر بن يحيى البرمكي[٢٥] .

وكانت علية بنت المهدي تقول الشعر وتغنيه وكان اخوها هرون الرشيد يعلم بذلك وقد غنت جارية من جواريه ذات يوم :

ياموريَ الزند قد أعيت قوادحه ... اقبس إذا شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس فيعيني واسمجهم ... إذا نظرت فلم أبصرك في الناس

---

(٢١) مخارق مغن معروف .
(٢٢) زلزل ضارب على العود من معاصري ابراهيم .
(٢٣) الأغاني ج ٩ ص ٨٤ .
(٢٤) الأغاني ج ٥ ص ٩٠ — ١١٢ .
(٢٥) الأغاني ج ٩ ٨٣ — ٨٥ .

فأراد الرشيد أن يعرف الصوت فأسرت اليه الجارية انه لعلية أخته .

وروى أبو الفرج عن احمد بن زيد قال : حدثني أبي قال : كنا عند المنتصر فغناه منان لحناً من الرمل الثاني :

يا ربة المنزل بالبرك وربّة السلطان والملك
تحرجي بالله من قتلنا لسنا من الديلم والترك

فضحكت فقال لي : مم ضحكت ؟ قلت : من شرف قائل هذا الشعر وشرف من عمل اللحن فيه وشرف مستمعه . قال : وما ذاك ؟ قلت : الشعر فيه للرشيد والغناء لعلية بنت المهدي وأمير المؤمنين مستمعه[٢٦] .

وانما سقنا هذه الاخبار ليتصور مدى المكانة التي بلغها فن الغناء في المجتمع البغدادي وما كان له من أثر بعيد في حياة بغداد الاجتماعية والادبية .

وقد كان باعث النهضة الغنائية في بغداد ابراهيم بن ميمون (أو ماهان) الموصلي . فقد بدأ ابراهيم هذا يأخذ الغناء بالكوفة مسقط رأسه ـ كما سلف بيانه ـ ثم طلبه في بلاد اخرى كالموصل والري واتصل بعد ذلك بالمهدي وحظي عنده .

وكان ابراهيم يتصرف في الغناء تصرفاً فاق فيه قدماء المغنين وظهر عليهم . إذ المعروف عند أهل الفن ـ كما يقول ابو الفرج ـ ان لكل واحد من المشاهير مذهباً في الخفيف والثقيل وكان معبد ينفرد بالثقيل وابن سريج بالرمل وحكم بالهزج ولم يكن يتصرف في كل مذهب من الاغاني إلا ابن سريج وابراهيم وابنه اسحق[٢٧] .

---

(٢٦) الأغاني ج ٩ ص ٨١ ـ ٨٢ .
(٢٧) الأغاني ج ٥ ص ٣٤ .

وكان ابراهيم الموصلي حفيظاً على تراث القدماء من المغنين فكان يغني الخلفاء ما كانوا يستحسنون من اصواتهم . فقد غنى موسى الهادي لحن ابن سريج في قول أبي صخر الهذلي :

وإني لتعروني لذكراك هـــزة كما انتفض العصفور بلله القطر
.... الخ[٢٨]

وكان يعارضهم احياناً اخرى فيصنع اللحن في صوت صنعه ابن سريج وكان يقصر في ذلك بعض الاحيان فيعيبه عليه ابنه اسحق . ذكر ابو الفرج رواية عن اسحق قال : لما صنع أبي لحنه في « ليت هنداً أنجزتنا ما تعـد » خاصمته وعبته في صنعته وقلت له : أما بازائك من ينتقد أنفاسك ويعيب محاسنك وانت لا تفكر ، تجيء الى صوت قد عمل فيه ابن سريج لحنـاً فتعارضه بلحن لا يقاربه والشعر اوسع من ذلك . فدع ما قد اعتورتـه صناعة القدماء وخذ في غيره ... الخ[٢٩]

ولقد احدث ابراهيم الموصلي في الحياة الحضرية ــ فيما يتصل منها بالغناء ــ حدثاً جديداً ، ذلك ان الناس من قبله وفي زمنه كانوا يعلمـون الغناء للصفر والسود من الجواري ، وكان أول من علم الجواري الحسان الغناء ابراهيم الموصلي وبلغ بهن في الغناء كل مبلغ ، فارتفعت اقدارهـن وغلت قيمتهن . وفي ذلك يقول أبو عيينة المهلبي ، وقد كان هوي جاريـة يقال لها أمان فأغلى بها مولاها السوم ، وجعل يرددها الى ابراهيم الموصلي وابنه اسحق فتأ خذ عنهمـا ، فكلمـا زادت في الغناء زاد في سـومه ، فقال ابو عيينة :

قلت لمـا رأيت مولى أمانـا قد طغى سومه بهـا طغيانـا

---

(٢٨) نفسه ص ١٥ .
(٢٩) الأغاني جـ ٥ ص ٢١ .

لا جزى الله الموصلي أبا اسـ ـحق عنا خيراً ولا احسانا
جاءنا مرسلاً بوحي من الشيـ ـطان أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه سكرات الـ ـحب يصبي القلوب والآذانا[٣٠]

وجاء بعد ابراهيم الموصلي ابنه اسحق ، فكان ظهوره حدثاً خطيراً في تاريخ الغناء فهو الذي وضع لهذا الفن قواعده واصوله وبيّن طرائقه وميّز اصنافه بعضها عن بعض ولم يكن من قبله كذلك .

« واستخرج بطبعه علماً رسمته الاوائل ، لا يوصل الى معرفته إلا بعد علم كتاب اقليدس الاول في الهندسة[٣١] » . وقد أعانه على ذلك ذكاء ودراية ورواية وطبع شعري وذوق فني أدهش معاصريه وبهرهم .

واسحق الموصلي هو الذي اختار للرشيد ما يعرف بالاصوات المائة المختارة التي وضع أبو الفرج الاصبهاني[٣٢] فيها كتاب الاغاني . فهو اذن الذي انتقل بالغناء من فن يقوم على التلقي بالسماع من دون ضوابط وقواعد الى فن له اصوله المعروفة وقواعده الموضوعة واصنافه المسماة بأسمائها المعروفة بسماتها .

ويبدو أن ما فعله اسحق بالغناء قد جعل الغناء العربي فناً مستقلاً متميزاً ذا طابع يتبينه الحاذق في انغامه فلا تختلط عليه بغيرها بل يستطيع ان يتبينها ويميزها عما سواها . وقد كان اسحق يمتحن في هذا فيدس له الصوت الاجنبي في ثنايا الغناء فيستطيع أن يدل على مكانه .. ويبدو انه كان على معرفة بالغناء الاجنبي ايضا . روى ابو الفرج بسنده عن اسحق ابن ابراهيم الطاهري قال : حدثتني مخارق مولاتنا قالت : كان لمولاي الذي علمني الغناء فراش رومي وكان يغني بالرومية صوتاً مليح اللحن فقال لي

(٣٠) الأغاني ج ٥ ص ٨ — ٩ .
(٣١) الأغاني ج ٥ ص ٤٩ — ٥٠ .
(٣٢) يراجع الجزء الاول من كتاب الأغاني ص ١ وما بعدها .

مولاي : يا مخارق خذي هذا اللحن الرومي فانقليه الى شعر من اصواتك العربية حتى امتحن به اسحق الموصلي فأعلم اين يقع من معرفته • ففعلت ذلك • وصار اليه اسحق فاحتبسه مولاي فأقام وبعث إلي مولاي ان ادخلي اللحن الرومي في وسط غناءك • فغنيته اياه في درج اصوات مرت قبله فأصغى اليه اسحق وجعل يتفهمه ويقسمه ويتفقد اوزانه ومقاطعه ويوقع عليه بيده ثم اقبل على مولاي فقال • هذا صوت رومي اللحن فمن اين وقع اليك •••• الخ[٣٣] •

ولقد كثرت من اجل ذلك مجالس اللهو والانس في بغداد فكانت في بيوت الخلفاء مجالس للغناء والشراب يتبارى فيها المغنون في إطراب الخلفاء وفي اتحافهم بكل صوت جيد حسن الصنعة ، فأخبار هذه المجالس تحفل بها كتب الأدب والتاريخ ، ولاتكاد سيرة واحد من الخلفاء بعد المنصور تخلو من أخبار وافرة عن مجالس أنسه وشرابه ، وما كان يجتمع لديه من المغنين وأخباره معهم • نذكر من ذلك على سبيل المثال ما تحدث به ابراهيم الموصلي عن هرون الرشيد فقال:جمع الرشيد ذات يوم المغنين فلم يبق احد من الرؤساء الا حضر وكنت فيهم وحضر معنا مسكين المدني ويعرف بأبي صدقة وكان يوقع بالقضيب مطبوعاً حاذقاً طيب العشرة مليح البادرة • فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النبيذ صوتاً فأمر صاحب الستارة ابن جامع ان يغنيه ففعل فلم يطرب عليه ثم فعل ذلك بجماعة ممن حضر فلم يحرك منه أحد • فقال صاحب الستارة لمسكين المدني : يأمرك أمير المؤمنين ان كنت تحسن هذا الصوت فغنه • قال ابراهيم : فاندفع فغناه فأمسكنا جميعاً متعجبين من جرأة مثله على الغناء بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة قال ابراهيم : فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول : يامسكين أعده • فأعاده بقوة ونشاط ، فقال : أحسنت وأجملت • ورفعت الستارة

(٣٣) الاغاني جـ ٥ ص ٥٣ ـ ٥٤ .

بيننا وبينه[٣٤] •

وكان في بغداد الى جانب مجالس الخلفاء والوزراء مواضع ومنازل يتخذها أصحابها نوادي للغناء واللهو فيها القيان اللواتي يحسن الغناء وفيها غير ذلك من وسائل اللهو وكان يغشاهـا الفتيان الظرفاء فيأخذون بأطراف من اللذة وأفانين من المتعة يستعمون فيها الى الغناء ويغازلون القيان ويشربون ويلهون • وقد وصف لنا بعض هذه المنازل علي بن الجهم وقد كان يعاشر جماعة من فتيان بغداد وكانوا يغشون منزلا لأحد المغنين بالكرخ يقال لـه المفضل • قال :

نزلنا بباب الكـرخ أطيب منزل ... على محسنات من قيان المفضـل
فلابن سريج والغريض ومعبـد ... بدائع في أسـماعنا لم تبـدل

ويصف القيان فيقول فيهن :

أوانس ما للضيف منهن حشـمة ... ولا ربهن بالجليل المبجـل

ثم يصف صاحب المنزل ، وكيف كانوا يطمعونه بالهدايا الكثيرة من نبيذ معسل وغير ذلك ثم يفعلون بعد ذلك ما شاء لهم المجون وما شاءت لهم الخلاعة أن يفعلوا فيقول :

يُسر اذا ما الضيف قـل حياؤه ... ويغفل عنـه وهو غـير مغفـّل
ويكثر من ذم الوقار وأهـله ... اذا الضيف لم يأنس ولم يتبذل
ولا يدفع الايدي المريبة غـيرة ... اذا نال حظاً من لبوس ومأكـل
ويطرق اطراق الشجاع مهابـة ... ليطلق طـرف الناظـر المتأمـل
أشر بيد واغمز بطـرف ولا تخف ... رقيباً اذا ما كنت غير مُبخـّل
وأعرض عن المصباح والهج بمثله ... فان خمد المصباح فادن وقبـّل
وسل غير ممنوع وقل غير مسكت ... ونم غير مذعور وقم غير معجـل
لك البيت ما دامت هداياك جمة ... وكنت ملياً بالنبيـذ المعسـّل

---

(٣٤) يراجع في ذلك المروج ج ٣ ص ٢٧٨ وما بعدها .

٤ آثار الحضارة العامة في الشعر

أما علاقة الشعر بالغناء وتأثره به فأمر هو أوضح من أن يدل عليه ، اذ الغناء لايكون الا بالشعر والمغنون يختارون لانغامهم من الشعر ألصقه بالعواطف وأقربه الى النفوس وأحلاه لدى الاسماع ، ولشيوع الغناء وذيوعه الاثر الاكبر في الاهتمام بموسيقى الشعر من حيث الاوزان وتناسق الالفاظ وانسجامها وتناسب موسيقاها .

ويجدر بنا أن نتذكر هنا أثر الغناء في شعر الحجاز فقد برّأه من ثقيل اللفظ وغريبه ونزّهه من متنافره ومستكرهه .

ويتأتى تأثر الشعر بالغناء من طريقين أحدهما أن الغناء والموسيقى يهذبان أذواق الشعراء فيتخيرون الالفاظ والاوزان مما تلذه االاسماع وتعلق به القلوب ، والاخر انهم يجتهدون في التقرب من اذواق المغنين والموسيقيين ليحملوهم على اختيار اشعارهم للغناء فيقصدون الى المعاني والاغراض التي تصلح للغناء ويحاولون ان يجوّدوا فيها .

تلك أهم آثار الغناء في الشعر من الوجهة العامة .

وقد كان للغناء في بغداد أثر آخر في الشعر ، ذلك ان الخلفاء والوزراء والرؤساء كانوا يستحبون ان يسمعوا الشعر غناء اكثر مما يحبون ان يسمعوه إنشاداً ، فكان الشعراء اذا ارادوا أن يبلغوا بشعرهم من الخليفة أو غيره مكاناً لطيفاً قريباً من نفسه ، فانهم كانوا يدفعون بالشعر الى المغنين ليغنوه في حضرة الخليفة . فقد كان مصعب بن عبدالله الزبيري يروي شعره فليح ابن ابي العوراء ليغني مدائحه للمهدي[٣٥] .

ولما ولي الرشيد الخلافة وجلس للشرب بعد فراغه من احكام الامور ودخل عليه المغنون كان اول من غناه ابراهيم الموصلي بشعره فيه وهو :

---

(٣٥) الاغاني ج ٤ ص ٩٩ .

اذا ظلم البـلاد تجللتنـا فهـارون الامـام لهـا ضـياء
بهـارون استقام العدل فينـا وغـاض الجور وانفسح الرجاء
رأيت الناس قـد سكنوا اليـه كما سكنت الى الحرم الظبـاء
تبعت من الرسول سبيل حـق فشأنك في الامور به اقتداء(٣٦)

وكان الخلفاء اذا سمعوا الشعر فاستحسنوه يأمرون المغنين ان يضعوا فيه اللحن ويغنوه ليستكملوا بذلك تلذذهم به وتذوقهم إياه • تحدث أسحق الموصلي فقال : لما ولي المعتصم دخلت اليه في جملة الجلساء والشعراء فهنأه القوم نظماً ونثراً وهو ينظر الي مستنطقاً فأنشدته :

لاح بالمفـرق منـك القتير وذوى غصـن الشباب النضـير
هزئت أسـماء منـي وقالـت أنت يا ابـن الموصـلي كبـير

الى أن قال :

يا بنـي العبـاس أنتم شـفاء وضـياء للقلـوب ونـور
وأبو اسـحق خـير إمـام مـا لـه في العالمـين نظـير
... ... الـخ

ثم أمرني أن أصنع فيه لحناً فصنعت وغنيته(٣٧) •

وكان ابراهيم الموصلي اذا عنّت له حاجة يريد قضاءها قالها شعراً وصنع للشعر لحناً ثم لقنه أحد أصحابه وأرسل به الى من يرجوه لقضاء تلك الحاجة • كما فعل مع يحيى بن خالد البرمكي وابنيه الفضل وجعفر •

وكان من آثار ذلك في الشعر أنه أصبح أداة للغناء الى مدى بعيد وتحول عن أن يكون إنشاداً في محفل الى أن يصبح مغنى في مجلس ، فلم

---

(٣٦) الأغاني جـ ٥ ص ٢٣ .
(٣٧) الأغاني جـ ٥ ص ٦٤ ــ ٦٥ .

يعد يستحسن فيه القصائد الطوال وما كانت تشتمل عليه من موضوعات متعددة من النسيب الى وصف الناقة والصحراء التي تقطعها الى الممدوح ، أو نحو ذلك من المعاني بل لقد استحال جزء كبير من شعر هذا العصر مقطعات قصيرة يقصد فيها قائلها الى ان تصلح ليغنيها احد المغنين ، فتقع من نفس الممدوح او المرجو في موقعها الذي يريده الشاعر •

ولا مراء بعد ذلك أن الشعراء أخلق بأن يألفوا المغنين وأن يتلذذوا بغنائهم ويتذوقوا فنهم ، ولقد كانوا فعلا أحرص الناس عليهم في هذا العصر وأشدهم تعلقاً بهم ، يشفقون إذا أصابهم مكروه ، ويحزنون لهم إذا ألمت بهم نازلة • وقد حبس المهدي ابراهيم لأنه كان نديماً لابنيه موسى وهرون يشاركهما في الشراب واللهو ، فحزن الشعراء لذلك فقال أبو العتاهية يخاطب سلما الخاسر :

سلم يا سلم ليس دونك سر ... حبس الموصلي فالعيش مر
ما استطاب اللذات مذ سكن المط ... بق رأس اللذات والله حر
ترك الموصلي من خلق الله ... جميعاً وعيشهم مقشعر

وقال أيضاً يتوجع لما أصابه :

أيا غمي لغمك يا خليلي ... ويا ويلي عليك ويا عويلي
يعز علي أنك لا تراني ... وأني لا أراك ولا رسولي
وأنك في محل أذى وضنك ... وليس الى لقائك من سبيل
وأني لست أملك عنك دفعاً ... وقد فوجئت بالخطب الجليل

وهذا الصلة العاطفية بين المغنين والشعراء تمهد للتجاوب النفسي والاتصال الفني والتأثر الذي وقع ، فأحدث في الشعر معاني جديدة وأظهر فيه فنوياً أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة • بعد أن قضت ظروف الحياة في تلك الحقبة وأعني بها الشطر الأكبر من القرن الثاني أن تضعف في الشعر

فنون تضاءلت دواعيها أو انحرف مجراها وحل محلها جديد يوائم طبيعة تلك الحياة السياسية والاجتماعية والحضرية •

وكانت آثار الحضارة في شعر بغداد على شاكلتين : الأولى يلتقي فيها الشعر بسائر مظاهر النشاط الاجتماعي في حياة المجتمع البغدادي وأظهر ما فيها تخلص الشعر من طبيعة البداوة الى حد كبير ، تلك التي لم تكن تعني إلا بالتعبير الفصيح عن أغراضها ومشاعرها ، وأصبح الشعر في بغداد حضرياً الى حد كبير يعنى بمظاهر الحضارة من رقة في الطبع وأناقة في المظهر وتناسق بين الأجزاء • وصارت الصناعة واعمال الفن في الشعر والروية والعناية بالاخراج الفني عنصراً من أهم عناصر الشعر ، بل صار أهم عنصر فيه عند من تشربوا روح الحضارة واندمجوا فيها واصبحوا جزءاً منها •

على أن هذا التأثر بالحضارة لم يؤت ثماره دفعة واحدة وإنما بدأ عند بعض الشعراء ثورة على القديم جامحة تريد أن ينسلخ منه الشعر جملة واحدة فيعرض عن المعاني الموروثة التي يتناقلها الشعراء تقليداً للأسلاف من دون أن يحسوا بها وأن يشعروا بها ، ولم يقيض لتلك الثورة الجامحة أن تحقق ماتريد ولكنها لفتت الشعراء الى الحياة الحضرية الجديدة وجذبتهم اليها شيئاً فشيئاً ، فكان أن أقبلوا عليها يستمدون منها أغراضهم ومعانيهم ثم أخذ الشعر يمثل الحضارة شيئاً فشيئاً ، ويأخذ منها ما يلائمه ويقتبس ما يوافقه من الوجهة الفنية ، وهو يحتفظ في الوقت نفسه بما يجد أن لامناص من الاحتفاظ به من القديم • حتى أصبح الشعر وهو يحمل طابع الحضارة في الذوق وفي المظهر والصورة ، ولم يعد يكفي من الشعر عند الشعراء والنقاد التعبير الموجز الفصيح عن الأفكار والمشاعر ، بل أخذوا يتلمسون من مظاهر الأناقة في الشعر القديم مايتخذونه أساساً لتجميل الشعر والابداع فيه • وهكذا كان البديع هو الثمرة الحقيقية التي تنتجها الحضارة في الشعر ، وكانت التربة التي أنبتتها هي بغداد •

اما الجانب الثاني من تأثر الشعر بالحضارة فيتجلى في شيوع الرقة والدماثة والحس المرهف الدقيق • وظهر ذلك في أسلوب الشعر وفي أفكاره ومعانيه ، فأما الأسلوب فقد تبرأ من الغريب ومال الى اليسر والعذوبة والسلاسة ، وجانَبَ اكثر ما ورثه الشعر من آثار البداوة في التراكيب وفي صور التعابير • وأما في المعاني والافكار فقد اصبح الشعر حاجة حضارية ان جاز هذا التعبير ، تحتاج اليها النفوس المنعمة المترفة لتستكمل بها مظاهر النعمة وتستقيم بها وجوه اللذة والمتعة • وأصبح في مجالس الشراب والغناء والأنس أشبه شيء بالنقل الشهي والريحان العطر • فمن أمثلة ذلك ما يروى عن الرشيد أنه كان في مجلس غناء يسمع ويطرب اذا بوصيفة أقبلت على المجلس ومعها تفاحة مكتوب عليها بغالية :

سرورك ألهاك عن موعدي فصيرت تفاحتي تذكره

فأخذ الرشيد تفاحته وكتب عليها بغالية :

تقاصيت وعدي ولم أنسه فتفاحتي هذه معذره

ثم قال لأحد ندمائه ــ وهو خالد بن يزيد الكاتب ــ ياخالد قل في هذا شيئاً • فقال :

تفاحة خرجت بالدرّ من فيها أشهى الي من الدنيا ومن فيها
بيضاء من حمرة علت بغالية كأنما قطفت من خد مهديها

وقد حملت الحضارة طائفة كبيرة من الشعراء على أن تقول الشعر في موضوعات وأغراض قريبة المنال هي أدنى الى الهزل والعبث والترويح عن النفس ــ في نظر النقاد القدماء على الأقل ــ • من ذلك غرام طائفة من الشعراء بالأوصاف لذاتها من دون أن تكون وسيلة الى غرض آخر • كما كان حالها في القديم ، فأصبحوا يصفون ماتقع عليه حواسهم من الحيوان والجماد من غير أن يتقيدوا بطريقة القدماء في الوصف • فبينما كان القدماء

يعنون بوصف الناقة والفرس وبقر الوحش ونحو ذلك من حيوان الصحراء أصبح شعراء بغداد يصفون اليمامة وما اليها من الحيوان الأليف في المدينة .

ومن أجمل ذلك مارواه المسعودي لبعض الشعراء في وصف حمامة :

هتفـــت هـــاتفـــــه آ ذنهـــا إلـــف يبـــين
ذات طـــوق مثـــل عطـــف النون أقنـــى الطـــرفين
وترى ناظـــــرةً نحـــ ـــوك مـــن ياقوتتـــين
ترجـــع الأنفـــاس مـــن ثقـ ـــبين كاللـــؤلـــؤتـــين
وتـــــرى مثـــل البســـــاتـــين لهـــا قادمتـــين
ولهـــــا ســـــاقان حمـــرا وان مـــثـــل الـــوردتين
نســـجت فـــوق جناحيـــ ـــها لهـــا برنوســـتين
.... الخ

والوصف تصوير ، والتصوير يحتاج الى أداة تعرض بها الصور عرضاً مؤثراً جميلا ، وأعسر مايكون التصوير الدقيق بالألفاظ . ومن أجل ذلك كان الشعراء يجتهدون في تقريب الأوصـــاف من أخيلة السامعين والقارئين فيلجأون الى التشبيه ، ويلجأون الى المجاز ، ومن هنا أيضاً شاعت الصور البيانية في شعر الوصف على وجه الخصوص ، وعرف الوصافون بالاكثار منها حتى لقد وضع أحدهم قواعد هذا الفن الذي أغرم به في شعره الوصفي، وذلك هو ابن المعتز في كتابه البديع .

ومما أحدثته الحضارة في معاني الشعر أن بعض أغراضه القديمة قـــد أصابها تحول ظاهر واضح من جراء الحضارة ، فدخلت المعاني الحضاريةفي الرثاء ، فصرنا نرى رثاء المغنين وأهل اللهو تشيع فيه معان لم يعهدها الرثاء في الشعر العربي . فبينما كان يرثى قديما بصفات النجدة والمروءة والكرم والشجاعة وما الى ذلك من الصفات أصبح بعض الناس في بغداد يرثى بمثل مارثى به بعض الشعراء ابراهيم الموصلي فقال :

تولى الموصلي فقد تولت بشاشات المزاهر والقيان
وأي بشاشة بقيت فتبقى حياة الموصلي على الزمان
ستبكيه المزاهر والملاهي وتسعدهن عاتقة الدنان

وبينما كان يرثى الميت بأنه بكته الخيل والسيوف والجفان والأضياف أصبح يبكيه الهوى والشراب والعود ومن يضرب عليه :

اصبح اللهو تحت عفر التراب ثاويـاً في محلة الاحباب
اذ ثوى الموصلي فانقرض اللهـ ـو بخير الاخوان والاصحاب
بكت المسمعات حزناً علـه وبكاه الهوى وصفو الشراب
وبكت آلة المجالس حتى رحم العود دمعة المضراب

وفي الحق أن رثاء المغنين وأهل اللهو يصور لنا جانبا من تأثر الشعر بالحياة الحضرية الجديدة ، حتى نحار في ذلك الرثاء أيقصد فيه قائلوه الى الهزل والعبث والمجنون ، أم يقصدون به الى الحزن والبكاء بحق ؟ والظاهر أن مثل هذا الشعر لم يكن حزناً كله بل كانت طائفة منه مجوناً وهزلا . من ذلك قول اسحق الموصلي يرثي هشيمة الخمارة وكانت جارته :

أضحت هشيمة في القبور مقيمة وخلت منازلها من الفتيان
كانت اذا هجر المحب حبيبه دبت لـه في السر والاعلان
حتى يلين لما تريد قياده ويصير سيؤه الى الاحسان

وكان بعضه حزنا لاشك فيه كقول جارية زلزل ترثيه :

أقفر من أوتاره العود فالعود للاوتار معمود
وأوحش المزمار من صوته فما لـه بعدك تغريد
من للمزامير وعيدانها وعامر اللذات مفقود
الخمر تبكي في أباريقها والقينة الخمصانة الرود

وحسبنا هذا دليلا على أثر الحضارة في الشعر أشاعت فيه المرح والبشاشة وملأته بصورها المشرقة البهيجة حتى لم يكد يفارقها حتى في مواطن الجد والحزن والبكاء .

* * *

وجملة الأمر أن الشعر قد خضع في بغداد لعامل الحضارة وتأثر به تأثراً واضحاً لم يكد الشعر العربي يعرفه من قبل ، وكانت مظاهر هذا التأثر ــ التي أشرنا ما استطعنا أن نستدل عليه منها ــ ليست سواء في البقاء والاستمرار ، فكان بعضها آنياً لم يكتب له الامتداد في حياة الشعر ، كالمعاني التي استحدثتها الحضارة في الشعر من وصف لمجالس الأنس والشراب ، وغير ذلك من مظاهر الترف والنعمة ، وكالذي أشرنا اليه قريباً من المعاني الجديدة في الرثاء وما أشبه ذلك من الهزل والعبث والمرح في الشعر .

ولعل السر في عدم استمرارها أنها كانت آثاراً قريبة لم تتغول في طبيعة الشعر ولم تبلغ قرارته ، بل لم تجاوز منه الشكل والمظهر ، اما الاثر الباقي من آثار الحضارة فهذا الذوق الذي اشاعته الحضارة في الشعر ، فجعلته فناً يقصد فيه الى الجمال والابداع ، ولا يكتفى فيه بالصراحة والاستقامة والوضوح وسلامة التعبير من آفة التعقيد والاضطراب .

وقد بقي هذا الذوق الحضاري في الشعر لانه أثر بعيد من آثار الحضارة ، بل هو خلاصتها وزبدتها ، فبعد ان مخض الشعر كل ما تركته الحضارة فيه من آثار استخلص منها ذوقها وروحها فاحتفظ به وحافظ عليه . ويدلنا على ذلك ان ذلك لم يظهر في الشعر مبكرا كغيره من مظاهر الحضارة ، وانما انتظر ان يتمثل الشعر الحضارة ويطوّعها وينقاد لها ، ولم يتم ذلك الا في اواخر القرن الثاني واوائل القرن الثالث للهجرة .

الفصل الرابع

العــامل العقلي

لقد اصاب العراق في اواخر العصر الاموي تطورا في الحياة الاجتماعية والفكرية والادبية مهد لما شهدته بغداد ـ باعتبارها مركز الخلافة ـ من ازدهار في الادب والعلم . وكان لابتعاد العراق عن الحكم من بعض الوجوه اثره في هذا التطور ، كما كان لموقعه قريبا من بلاد الاعاجم أثره في ذلك ايضا .

وكأن انشاء بغداد كان هو واليقظة العلمية الجبارة على ميعاد ، ففي هذه الحقبة ـ اواخر النصف الثاني من القرن الاول ـ اتجه العلماء الى تمييز العلوم بعضها عن بعض ، ولم الشتيت منها الى شتيته ، واخذوا في تدوين العلوم ، فدونت كتب العربية واللغة والتاريخ وايام الناس والفقه والتشريع[1] كما سبق ان اشرنا الى ذلك في اول هذا البحث[2] .

١ ـ تراث البصرة والكوفة

وقد ورثت بغداد البيئتين العلميتين الكبريين بيئة الكوفة وبيئة البصرة، وقد كان لكل منهما لون من الثقافة متميز ، وطريق في العلم يختلف عن الاخرى ، إذ كانت الكوفة على طرف الصحراء اقرب ما تكون الى جزيرة

---

(١) يراجع في ذلك ضحى الاسلام ج ٢ ص ١١ .
(٢) يراجع الفصل الثاني من الباب الاول .

العرب ، وكان محصولها من تراث الجاهلية وافرا عظيما ، وكانت الى جانب ذلك وارثة الحيرة عاصمة المناذرة ، وهي بيئة من بيئات الجاهلية الحضرية التي تأثرت بالفرس حلفائها من ناحية وبالحضارة القديمة ـ على ما يرجح ـ من ناحية اخرى ، وخلفت من اجل ذلك في الادب ذكرا وأثرا واضحا •

ويظهر أن الكوفة قد أصبحت في أواخر العصر الاموي هي المرجع في الرواية ، فكان فيها حماد الراوية والمفضل الضبي وغيرهما ممن حفظوا تراث الجاهلية ، حتى لقد كان رواتها هم المرجع الاول لمن يريد أن يقف على شيء من الشعر القديم • وحسبنا أن الوليد بن يزيد لما أراد أن يقف على قصيدة عدي بن زيد العبادي التي يقول فيها :

بكر العاذلون في وضح الصبـ ـح يقولون لي ألا تستفيق

لم يجد بداً من أن يبعث في طلب حماد الراوية من الكوفة لينشده هذه القصيدة •

وثمة أمر آخر أحسب أن له حظه من الخطر وهو أن الكوفة تقع قريبة من بابل عاصمة العموريين والكلدانيين من بعدهم ، والبابليون قوم سبقوا الى الحضارة وعرف عنهم التاريخ أنهم أقدم من وضع الشرائع وسن القوانين ، وفي الكوفة ولد أبو حنيفة وهو أول من صنف في الفقه والرأي وقال بالقياس •

وليس من المستبعد أن تكون آثار الحضارة العراقية قد وصلت الى الكوفة في صورة من الصور ، فتأثر بها أهلها تأثراً كان بعض القدماء يلحظه فيهم • حتى إن أبا عمرو بن العلاء المازني التميمي ـ وهو من علماء البصرة ورواتها ـ كان يقول لاهل الكوفة موازناً بينهم وبين اهل البصرة : لكم حذلقة النبط وصلفهم ولنا دهاء فارس واحلامهم[٣] وليس النبط

---

(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٨٩ .

الا خليطاً من سكان العراق القدماء والعرب ممن سكن السواد وفيهم قطعاً أثارة من حضارة العراق القديمة .

والبيئة العقلية الاخرى كانت بيئة البصرة وهي تختلف في تكوينها وفي طابعها عن بيئة الكوفة ، انها كانت أقل احتفالا بالرواية والاخذ عن القدماء ، واحفى بالافكار الجديدة التي طرأت على البلاد الاسلامية بعد ان شارك غير العرب في الحياة الاسلامية .

ولم تكن البصرة في الحقيقة اقل اتصالا بالجزيرة من الكوفة ، ولم تكن في ماضيها أقل شأناً منها في الحفاظ على التراث الجاهلي في الشعر ، وبحسبها انها بيئة الفرزدق وجرير وأمثالهما من فحول الشعر . وإنما الذي ميزها عن الكوفة هذا التمييز انها كانت بحكم موقعها ملتقى اقوام واجناس مختلفة ، وكان هذا يشحن اليها وفراً من الافكار والعقائد والنزعات . هذه ناحية ولعل الناحية الاخرى اهم منها واخطر ، ذلك انها كانت من اول امرها مصطرعاً للآراء وموطناً لاختلاف المذاهب والخصومات بين الرعيل الاول من حملة الاسلام وصحابة الرسول كعلي وعائشة وطلحة والزبير ، وكانت المنبت الاول للخوارج الذين لم يرتضوا احداً من المتخاصمين علي ومعاوية ، وكان الجدل والخصام وتضارب الآراء بين اصحاب المذاهب المختلفة سبباً ودافعاً قوياً بعثهم على السعي الى كل ما يمكن ان يستخدموه في دفاع كل منهم عن مذهبه وما يدين به ، والرد على خصومه والاحتجاج عليهم .

وهكذا تسربت الى البصرة الافكار الاجنبية لحاجة الفرق المختصمة اليها ، وكان طابع البصرة في ثقافتها يغلب عليه جانب العقل والدراية ويضعف فيه جانب النقل والرواية . على انه كان فيها من جلة الرواة امثال ابي عمرو ابن العلاء والخليل بن احمد وسواهما .

ومن اجل ذلك ازدهر في البصرة علم الكلام وقوي واشتد عوده ، وقد كان للمعتزلة الذين اتخذوا البصرة معقلا لمذهبهم الاثر الاقوى في ذلك،

فكان فيها واصل بن عطاء وابراهيم النظام ونحوهما من أئمة المعتزلة ومتكلميهم .

وظهرت في البصرة من اول الامر الافكار الدخيلة والعقائد المناوئة للاسلام كالزندقة والمانوية وما الى ذلك . يروي صاحب الاغاني انه كان بالبصرة ستة من اصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الاعمى وصالح بن عبدالقدوس وعبدالكريم بن ابي العوجاء ورجل من الازد ... فكانوا يجتمعون في منزل الازدي ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال واما عبدالكريم وصالح فصمما التوبة(٤) واما بشار فبقي متحيراً مخلطاً ، واما الازدي فمال الى قول السمنية وهو مذهب من مذاهب الهند وبقي ظاهره على ما كان عليه(٥) .

وهذا يدل على ان القوم قد اخذوا يجولون بأفكارهم ويطوفون فيها بين العقائد المختلفة والافكار الجديدة ، وان طائفة منهم قد أغريت بالآراء والعقائد الاجنبية من الهند وفارس وغير ذلك .

ولم يكن هذا النشاط العقلي الذي يتميز بالاقتباس من الأفكار الغريبة ونبذ التقليد في العقيدة قاصراً على البصرة ، بل كان له في الكوفة شبيه مقارب وإن لم يبلغ مداه الاتساع والقوة والشمول .

ومما يدل على ذلك ما روي عن ابن المعتز أنه قال : كان بالكوفة ثلاثة

---

(٤) هكذا في الاغاني طبعة الساسي ونقلها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مقدمته لديوان بشار « فصمما على الثنوية » ولا علاقة لها بالسياق. ولكن المعروف ان صالحاً وعبدالكريم قتلا لامر يتصل بالعقيدة . وفي عبد الكريم يقول بشار :

قلت عبدالكريم يا ابن ابي العو ... جاء بعت الاسلام بالكفر موقا
لا تصلي ولا تصوم فان صمـ ... ـت فبعض النهار صوماً رقيقا
لا تبالي اذا أصبت من الخمـ ... ـر عتيقاً ان لا يكون عتيقا

(٥) الاغاني جـ ٣ ص ٢٤ ـ ٢٥ .

نفر يقال لهم الحمادون • حماد عجرد وحماد الراوية وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة وكانوا كأنهم نفس واحدة يرمون نالزندقة جميعاً وأشهرهم فيها حماد عجرد[٦] •

٢ ـ عناصر الحياة العقلية في بغداد

وصفوة القول أن بغداد قد ورثت بيئتين كانتا على جانب عظيم من النشاط الفكري الذي أثر في الدين فكان الاعتزال وكان علم الكلام ، وكان لكل ذلك أثره في الادب وفي الشعر على وجه الخصوص • وكان الشعراء ، بوصفهم جزءاً مهماً من طبقة أهل الفكر ، يشاركون في هذه الافكار ، وكانوا أسرع ما يكونون الى تقبل الأفكار الطارئة التي تلقى هوى في نفوسهم الميالة الى التحلل من القيود والانطلاق والتحرر •

ولقد سبق لنا أن ألمعنا الى ظاهرة جديرة بالتأمل ، وهي أن شعراء القرن الثاني كان فيهم طائفة كبيرة من غير العرب ، ممن لم تصغ الى الاسلام أفئدتهم ، ولم يدخل الايمان في قلوبهم ، فكان هؤلاء مادة ما عرف في هذا القرن بالزندقة والشعوبية ، وهؤلاء الذين ذكرتهم رواية الأغاني منهم •

ولقد انتقل ميراث هاتين البيئتين ، أو انتقل معظم مافيه الى بغداد ، فكانت ملتقى الأفكار وانصب اليها التراث العقلي من كل جانب • ويستطيع الباحث أنيجمل عناصر الحياة العقلية في بغداد بما يأتي :

أولا ــ ميراث البصرة والكوفة ، وهو تراث يكمل بعضه بعضاً ، فبينما كانت عناية أهل الكوفة متجهة الى الرواية والنقل ، وكان طابع الثقافة

---

(٦) الاغاني ج ١٣ ص ٧٠ •

الكوفية عربياً أو أقرب الى العربية بعبارة أدق ، كان الغالب في ثقافة البصرة عناصر أصيلة من علم الكلام والجدل ، والبحث في أمور الدين والعقائـــد وعناصر مقتبسة من أفكار الامـم الاخرى كالفرس والهند . وكانت الدولة أميل الى جانب الكوفة لأسباب ألمنا بأهمهـا فيمـا سبق من البحث[٧] ، ونذكر منها الآن أن السلطان ، على وجه العموم ، قلما تروق له حياة الصراع الفكري والنشاط العقلي بما فيه من أفكار قد تستهدف هدم الدولة ، كما كان شأن الشعوبية والزنادقة .

ولقد اتخذ العباسيون من علماء الكوفـة حاشيتهم ومؤدبي أولادهم كالمفضل الضبي والكسائي ، وغلب على البيئة البغدادية علوم أهل الكوفة فكان مؤسس المذهب البغدادي في النحو أبـو العبـاس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب . ولم يحظ عند الخلفاء العباسيين أحد من علماء البصرة علـى مايظهر وقصة سيبويـه والكسـائي عند الرشيد مشـهورة معروفة[٨] .

على أن هذا لايعني أن أثر الثقافة البصرية ، وما فيها من أصالة وتغليب لجانب الفكر والمنطق والقياس ، قد حيل بينهـا وبين التأثير في حياة بغداد الفكرية على الاطلاق . فقد كانت طبيعة التقدم العلمي والفكري تقتضي أن يحدث ذلك التأثير ، وقد حدث بالفعل ولا سيما في القرن الثالث حين تغلب مذهب الاعتزال فاتخذه المأمون مذهباً للخلافة وفرضه على سـائر أمصار الدولة الاسلامية .

وكانت آثار الثقافة الكوفيـة واضحة في الخلفاء والشعراء ، فكـان الرشيد مثلا يروي شعر ذي الرمة ويعجب به ولا يعدل به أحداً من الشعراء.

وكان أبو نواس عالماً باللغة ، راوياً للحديث والأخبار ، أخذ اللغة عن

---

(٧) يراجع الفصل الثاني من الباب الأول .
(٨) ضحى الاسلام جـ ٢ ص ٣٤ .

الأعراب وروى الحديث عن العلماء ، وخرج الى البادية في طلب اللغة فأقام بها سنة[٩] .وقد قال فيه الجاحظ : « مارأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ، ولا افصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة الاستكراه[١٠] » .

وفي أبي نواس أيضاً يتضح أثر الثقافة البصرية ، وتشيع في شعره بعض المعاني المقتبسة من مذاهب علم الكلام والفلسفة مما سنذكر امثلة منه في ما بعد .

ثانياً ــ ميراث الثقافة العراقية القديمة . فان موقع بغداد قريب من بقايا مدينة سومرية قديمة تركت آثاراً علمية على جانب عظيم من الخطورة في العلوم الرياضية على الخصوص ، وقد كشفت التنقيبات الاثرية حديثاً أن القوم قد توصلوا الى بعض النظريات في الهندسة من قبل أقليدس بسبعة عشر قرناً[١١] .

وليس من شك في أن عناصر الثقافة العراقية القديمة السامية وغير السامية قد تسربت على صورة من الصور الى بغداد ، تسربت بطريق السريان الذين كانوا ينقلون الى العربية علوم الأوائل ، وهم الذين أصبحوا في الحقيقة ورثة أسلافهم من قدماء الساميين ، وفيهم تلاقت معارف اليونان بالموروث من معارف البابليين والآشوريين وغيرهم من سكان العراق الاقدمين ، وهم الذين انشأوا مدرسة جنديسابور التي كان اثرها في الطب والحكمة وكان رأسها جبريل بن بختيشوع الطبيب النسطوري الذي استدعاه ابو جعفر المنصور لمداواته من مرض ألم به[١٢] .

---

(٩) اخبار ابي نواس لابن منظور ، السفر الأول ص ١٢ .
(١٠) نفسه ص ٦ .
(١١) نشرت ابحاث هذه التنقيات في مجلة سومر ونشر الاستاذ طه باقر بحثاً بهذا العنوان في مجلة دار المعامين العالية المجلد الاول السنة الثالثة الصادر في حزيران سنة ١٩٥١ .
(١٢) ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ج ٢ ص ١٢ .

ثالثاً ـ علوم اليونان وفلسفتهم • وقد ازدهرت ترجمتها في بغـداد وحظيت من الخلفاء بالرعاية ، ولاسيماالمأمون الذي كان على جانب من العلم والفقه والشغف بالمعرفة • ومن المهم أن نلاحظ في الترجمة أن الذين كانوا يقومون بها اكثرهم من عناصر عراقية قديمة ، فالنساطرة وغيرهم من السريان كالعباديين من أهل الحيرة ومنهم حنين بن اسحق • وعند هؤلاء امتزجـت معارف اليونان بالموروث من المعارف السامية القديمة ، وغيرهم تلتمسآثار الأوائل •

وحسبنا هذه الاشارة الموجزة الى عناصر الحياة الفكرية في بغداد وقد استكملت في عصر المأمون وبلغت فيه الأوج والقمة • والذي يهمنا في هذا البحث هو أن نلم بآثار ذلك في الشعر وأن نعرض لتأثره بهذه الحياة الفكرية الجديدة •

٣ ـ مشاركة الشعراء في الحيـاة العقليـة

لقد شارك الشعراء في الحياة الفكرية مشاركة تليق بمكانهم في الحياة الاجتماعية ، اذ كانوا جزءاً من الطبقة المفكّرة في المجتمع ، وأخذوا بأطراف من الافكار الجديدة ، وانغمروا في لجج الصراع العقلي ، فكانوا بطبيعة مقام الشعر في الحياة العربية دعاة العقائد والمذاهب وروادها والالسنة الطليقة في التعبير عنها ، ولا سيما اذا لاحظنا ان النثر لم يكن قد اخذ مكانه في الحياة الادبية في القرن الثاني فيما عدا الخطب والرسائل التي حفظتها كتب التاريخ•

واول من يلفت الباحث من هؤلاء الشعراء بشار بن برد الذي نشأ في البصرة واتصل بالحركة الفكرية فيها اتصالا وثيقا ، فكان من اصحاب واصل ابن عطاء شيخ المعتزلة وامامها ، وكان معجبا به في اول الامر فكان يمدحه ويثني عليه بالفصاحة والقدرة على البيان قدرة فائقة • وقد ذكر في شـعره انه خطب خطبة جانب فيها الراء لانه كان ألثغ فيها فقال :

تكلف القول والاقوام قد حفلوا   وخبّروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلاً تغلي بداهته   كمرجل القين لما حُفّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد   قبل التفصح والاغراق في الطلب

ثم اختلفت بينهما المسالك فأعرض عنه وانقلب عليه وهجاه قائلا :

مالي أشايع غزالاً له عنق   كنقنق الدوّ إن ولّى وان مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم   لم تكفرون رجالاً اكفروا رجلا

ويبدو ان عقيدة الاعتزال ، وهي التي تعد المرء مسؤولا عن مقارفة المعاصي وارتكاب المخالفات ، لم تصادف هوى في نفس بشار وهو الماجن المتهتك ، فانقلب جبريا لا يرى لنفسه قدرة على الاختيار ، وانما هو مسيّر في ما يأخذ وفي ما يدع وفي ما يقارف من الذنوب ، وهو يعبر عن عقيدته الجبرية فيقول :

طبعت على ما فيّ غير مخيّر   هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد   وقصّر علمي أن أنال المغيبا
وأصرف عن قصدي وعلمي مقصر   وأمسي وما اعقبت الا التعجبا

ويظهر ان بشاراً لم يقف في حيرته عند حد ، ولم يجنح في تخليطه الى جانب يطمئن اليه ، فقال بعد ذلك بالثنوية وبمذهب النور والظلمة ، وفضل النار على الارض :

الارض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

وقد أسلمه تفضيل النار على الارض الى تفضيل ابليس على آدم فقال :

ابليس خير من أبيكم آدم   فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة   والارض لا تسمو سموّ النار

وكانت بينه وبين حماد عجرد مهاجاة فكان حمـاد يرميه بالزندقة(١٣) ويحرف له شعراً هجاه به وهو قوله يتبرأ من الزندقة :

يا ابن نهبـى رأس عليَّ ثقيـل واحتمال الـرؤوس خطب جليل
ادع غيري الى عبـادة الاثنيـ ـن فاني بواحـد مشـغول
يا ابن نهبى برئت منـك الى الله جهـاراً وذاك منـي قليـل

وقد جعل حماد البيت الثاني هكذا :

ادع غيري الى عبـادة الاثنيـ ـن فاني عن واحـد مشـغول

وأشاعه بين الناس ليشتهر كفر بشار ٠

على ان في هجاء بشار لحماد ما يدل على انه لم يكن يؤمن بالثنوية ، بل لقد رمى بها حماداً فقال يهجوه بعد موته ويذكر فيها صاحباً كان لحمـاد اسمه حريب :

بكـى حـريب فوقـره بتعزية مات ابن نهبى وقد كانا شريكين
... ...
امسى حريب بما اسدى له غيرا كراكب اثنين يرجو قـوة اثنين
حتى اذا أخذا في غير وجههمـا تفرّقا وهـوى بين الطـريقين

وكان حماد عجرد ، وهو كوفي المنشأ يرمى بالزندقة ، بل كان في رأي معاصريه اماماً من أئمة الزنادقة والمقدمين فيهم ٠ روى صاحب الأغاني بسنده

---

(١٣) الزندقة في عرف ذلك العصر اعتقاد بعض مذاهب الفرس كالمانويـة والثنوية وما الى ذلك من هذه العقائد الفارسية القديمة . وقد توسع في مدلولها حتى اخذ بها البريء وحتى ادعاهـا بعضهم تظرفاً ، كمـا في قول بعض الشعراء :

يا ابن زيـاد يا ابـا جعفـر اظهرت دينـاً غير ما تخفي
ما كنت زنديقـاً ولكنمـا اردت أن توسـم بالظـرف

عن أبي نواس قال : كنت أتوهم أن حماد عجرد انما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حبست في حبس الزنادقة فاذا حماد عجرد امام من أئمتهم، واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم[14] .

وقد أثار بشار بما قاله تفضيل النار على الأرض ، وتفضيل ابليس على آدم ، فريقاً من الشعراء تصدوا للرد عليه ، واثبات الفضل للأرض بأنها أصل النار ، وأن النار موجودة فيها القوة . وأن في الأرض عناصر عديدة وأعاجيب لاتحصى من المعادن والنبات والعناصر .

فمن ذلك قصيدة طويلة لصفوان الانصاري رواها الجاحظ[15] وفيها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً ... وفي الارض تحيا بالحجارة والزند
ويخلق في ارحامها وأرومها ... أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفي القعر من لج البحار منافع ... من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الارض في البحر كله ... وفي الغيضة الغناء والجبل الصلد
... ...
وفي الحرة الرجلاء تلقى معادناً ... لهن مغارات تبجس بالنقد
من الذهب الابريز والفضة التي ... تروق وتسبي ذا القناعة والزهد
وكل فلزّ من نحاس وآنك ... ومن زئبق حي ونوشادر يسدي
وفيها زرانيخ ومكر ومرتك ... ومن مرقشيشا غير كاب ولا مكدي
وفيها ضروب القار والشب والنهى ... واصناف كبريت مطاولة الوقد
ترى العرق منها في المقاطع لائحاً ... كما قدت الحسناء حاشية البرد
ومن اثمد جون وكلس وفضة ... ومن توتياء في معادنه هندي

الى أن يقول :

---

(١٤) الاغاني جـ ١٣ ص ٧١ .
(١٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٨ ـ ٤١ .

وفيها مقام الخل[١٦] والركن والصفا[١٧] ومستلم الحجاج من جنة الخلد[١٨]
وفي صخرة الخضر[١٩] التي عند حوتها وفي الحجر المهمى لموسى على عمد[٢٠]
وفي الصخرة الصماء تصدع آية لأم فصيل ذي رغاء وذي وجد[٢١]
فذلك تدبير ونفع وحكمة واوضح برهان على الواحد الفرد

وقال سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد يرد على بشار أيضاً ويذكر كرم الأرض ويفضلها على النار[٢٢] :

لابد للارض ان طابت وان خبثت من أن تحيل اليها كل مغروس
وتربة الارض إن جيدت وان قحطت فحملها أبداً في إثر منفوس
وبطنها بفلز الارض ذو خبر بكل جوهرة في الارض مرموس
وكل آنية عمت مرافقها وكل منتقد فيها وملبوس
وكل ما عونها كالملح مرفقة وكل مضحك من قول ابليس

وهكذا ظهر تأثر الشعر بالحياة العقلية ، وشارك فيها ، فصار يستوعب بعض حقائق العلوم التي عرفت في ذلك العصر ، ويتخذ وسيلة للدعوة الى العقائد والمذاهب الجديدة والمنافحة عنها . وتلك بعض آثار الحياة العقلية فيه .

٤ ـ آثارها

وقد كانت هذه الظاهرة إيذاناً بما عرف بالشعر التعليمي ، وهو نظم الحقائق العلمية في قصائد تخلو ـ في الغالب ـ من المقومات الفنية للشعر

---

(١٦) مقام ابراهيم .
(١٧) الصفا والمروة .
(١٨) البيت الحرام والحجر الاسود .
(١٩) يشير الى قوله تعالى في حكاية موسى والخضر : (قال ارايت اذ أوينا الى الصخرة) .. الخ الآية .
(٢٠) يشير الى قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله ..) الخ الآية .
(٢١) يشير بذلك الى ناقة صالح .
(٢٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤١ ـ ٤٣ .

كالخيال والأسلوب الطلي الجميل ، وكان الباعث عليه في أول الأمر أن الشعراء ـ وهم يفتنون بكل جديد ـ قد أخذوا يضمنون شعرهم مسائل علمية وتاريخية وقصصية إظهاراً للبراعة ودلالة على الابتكار والتجويد ، وتدليلا على أن لهم من المعارف الجديدة نصيباً ، فاستخدموها في الشعر ، وممن أخذ من هذا الفن بطرف السيد الحميري الذي كان يكتب مايروى من أخبار علي بن أبي طالب فينظمها شعراً[٢٣] . وبشر بن المعتمر الذي استخدم هذا الطراز من الشعر في تعضيد عقيدته في الاعتزال . ثم جاء أبان بن عبد الحميد اللاحقي فنقل للبرامكة كتاب كليلة ودمنة شعراً قال في أوله :

هذا كتاب أدب ومحنه ... وهو الذي يدعى كليلة دمنه

فيه احتيالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند

وعمل أيضاً قصيدته المسماة ذات الحلل وهي التي ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئاً من المنطق[٢٤] ولم نجد لها ذكراً في كتب الأدب التي بين أيدينا .

وممن نظم في الشعر التعليمي أبو العباس الناشيء وابراهيم الفزاري، وقد نظم الأول قصيدة ذكر فيها الملل وعقائدها[٢٥] ، ونظم الثاني قصيدة في الفلك والنجوم[٢٦] . وسنعرض للكلام على ذلك في الفنون التي جدت في الشعر في موضعه من البحث .

٥ ـ تمثل الشعر للثقافة الجديدة

وكلما تقدمت الحياة الفكرية وانتشرت المعرفة وعمت الثقافة ، وجدنا الشعر يزداد بها تأثراً فيستوعبها ويجدد بها في معانيه وفي أسلوبه .

---

(٢٣) الاغاني ج ٧ ص ١٤ وما بعدها .
(٢٤) الاغاني ج ٢٠ ص ٧٣ .
(٢٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦١ .
(٢٦)
O'Leary : How Greek Science Passed to the Arabs, P. 152 .

وقد كانت المرحلة الثانيــة من مراحل تــأثر الشعر بالمعارف الجديدة تطويع المعاني العلمية والفلسفية لأسلوب الشعر ، حتى تصبح جزءاً مقبولا مستساغاً مستحسن الموقع لاينبو مكانه ولا يستكره ، ولا يستثقل فيــه السرد والتعــداد والحشد الذي لاوجود للفن الشعري فيه ، كما في شعر صفوان وسليمان الذي مر ذكره .

وصار بعض الشعراء يتملحون بألفاظ الفلاسفة والمتكلمين والفقهــاء ويستخدمونها في شعرهم استخداماً موفقاً لايقدح في فن الشعر ، بل يزيده طرافة ويضفي عليه رونقاً ورواء من طراز غير مألوف حقاً .

فمن ذلك قول أبي نواس في الهجاء :

قــل لزهــير إذا حــدا رشــدا — أقلــل أو اكثــر فأنــت مهذار
سخنت من شدة البــرودة حتى — صــرت عنــدي كأنــك النــار
لا يعجب الســامعون من صفتي — كذلــك الثلــج بــارد حــار

وهذا معنى أخذه أبو نواس من بعض حكماء الهند ، فانهم يقولون ان الشيء إذا أفرط في البرودة انقلب حاراً(٢٧) .

واستخدم أبو نواس المذهب الكلامي في شعره ، وهذا المذهب مــن ضروب البديع التي عدها ابن المعتز ضمن الخمســة الأشياء التي جدت في الشعر العربي(٢٨) .

ومن ذلك قوله في الغزل :

وذات خــدّ مــورّد — قوهيّــة المتجــرد
تــأمــل العــين منهــا — محاســناً ليــس تنفــد

(٢٧) اخبار ابي نواس لابن منظور السفر الاول ص ١٤ .
(٢٨) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامة ص ١٠٦ — ١٠٧ .

فبعضها قد تناهى   وبعضها يتولد
والحسن في كل عضو   منها معاد مردد

وقوله في الغزل أيضاً :

يا عاقد القلب مني   هلا تذكرت حلا
تركت قلبي قليلاً   من القليل أقلا
يكاد لا يتجزا   أقل في اللفظ من لا

ومن ذلك أيضاً استخدام بعض الشعراء والشواعر ألفاظ الفقهاء والاصوليين استخداماً فيه شيء غير قليل من الطرافة والجمال كقول علية بنت المهدي :

ليس أمر الهوى يدبر بالرأ   ي ولا بالقياس والتفكير

ومنه أيضاً قولها في الغزل :

بني الحب على الجور فلو   أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى   عاشق يحسن تأليف الحجج
لا تعيبن من محب ذلة   ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفاً خالصاً   لك خير من كثير قد مزج

* * *

ولقد كان من بين الشعراء في هذه الحقبة من شارك في الحياة العقلية مشاركة فعلية ، كأبي العتاهية الذي تعلم الفلسفة وأخذ من معارف عصره بنصيب وكان له مذهب في العقيدة عرف به ، ومذهبه القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم ان الله بنى العالم هذه البنية .

وهو يذهب أيضا الى أن العالم حديث العين والصنعة . لا محدث له إلا الله وأن الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً .

ومذهبه في المعرفة أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستلال طباعاً .

وكان ابو العتاهية يذهب مذهب الاجبار ، ويقول في الوقت نفسه بخلق القرآن . وقد سئل مرة : القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال لسائله: أسألتني عن الله أم عن غير الله ؟ قال له سائله : عن غير الله . فأمسك[٢٩] .

وكان سلم الخاسر تلميذ بشار الذي خرج عليه وتشبه بأبي العتاهة يشتغل بالكيمياء ويذهب ماله فيها ويصاحب من يشتغلون بها[٣٠] .

وكان من آثار اشتغال أبي العتاهية بالفلسفة أن أكثر في شعره من الموضوعات الفلسفية والعقلية كالحكمة والزهد والوعظ والتذكير بالموت وبما بعد الموت . وبرزت الأفكار الفلسفية في شعره بحيث أصبحت تدل على نفسها وتنبىء عن اطلاعه على كلام الفلاسفة :

فمن ذلك قوله لما وقف على قبر صديقه علي بن ثابت يبكيه ويرثيه :

ألا من لي بأنسك يا اخيا ... ومن لي أن ابثك ما لديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر ... كذاك خطوبه نشراً وطيا
بكيتك يا علي بدمع عيني ... فلم يغن البكاء عليك شيا
وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقد أشار صاحب الاغاني الى أبا العتاهية قد أخذ البيت الاخير من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الاسكندر[٣١] .

---

(٢٩) الأغاني ج ٣ ص ١٢٤ - ١٢٥ وليلاحظ أن القائلين بخلق القرآن هم المعتزلة وهم القدرية الذين يذهبون الى أن المرء مختار فيما يفعل، مجزي بعمله ، ان خيراً فخير وان شراً فشر .

(٣٠) الأغاني ج ٢١ ص ٧٨ .

(٣١) الأغاني ج ٣ ص ١٤٢ .

٦ ـ آثارها البعيدة

تلك بعض الآثار القريبة التي خلفتها الحياة العقلية في الشعر وهي آثار يمكن أن نصفها بأنها آثار ظاهرة فحسب . أما الآثار البعيدة التي غاصت في كيان الشعر وتغولت فيه فأحدثت فيه تطوراً محسوساً ، فهي آثار سلبية لا ايجابية ، كان بعضها تمهيداً لما أعقبه وجاء بعده .

وأول هذه الآثار وأسبقها كان في أسلوب الشعر وفي تراكيبه وفي صوره التعبيرية .

وبيان ذلك أن التطور الذي أصاب الحياة العقلية فأدخل فيها أفكارا جديدة وأحدث فيها نشاطاً جديداً وحركة سريعة ، قد جعل الشعر ، باسلوبه القديم وطرائقه الفنية المألوفة في التعبير ، أعجز من أن يتحمل التعبير عن الأفكار الجديدة وأن يجاريها في حركتها النشطة السريعة ، فناء بها ، والتمس لنفسه وسيلة يلائم بها بين طبيعته الفنية وبين اصراره على المشاركة الفعالة في الحياة العقلية ، فهبط أسلوبه وتحلل من قيودة الفنية وجنح الى التضحية بصوره التعبيرية الجميلة وأخذ وقاره يتضاءل عند المشتغلين بالأفكار الجديدة من شعراء القرن الثاني .

ثم إن الشعر قد يئس ــ على ما يظهر ــ من فلاحه في أن يكون أداة طيعة للتعبير عن الفلسفة والأفكار الجديدة ، فعاف ذلك فترة من الزمن في القرن الثالث ــ أو عافته هي والتمست في النثر مجالها الحيوي الرحيب الذي لا يصلح لها غيره ، وأخذ الشعر يعود الى قديمه شيئاً فشيئاً ويستعيد عند أغلب الشعراء أسلوبه الفني الأول وصوره التعبيرية الأولى ، وهجر هذا الجديد الطارىء على أسلوبه هجراناً بائناً إلا عند شاعر واحد هو ابن الرومي .

وليس من شك في ان تأثير الافكار الجديدة في الشعر ومسايرته للتطور في المعارف والعلوم امر لابد منه ولا مناص ، الا ان الشعر ــ بطبيعته الفنية

المحافظة وبعلاقته الوثقى بالعاطفة ــ بطيء التطور والتأثر بالجديد لا يسرع اليه ولا يعجل ، وانما يأخذه على مهل شيئا فشيئا ، حتى يستوعبه ويتمثله ويطوعه لمقاييسه الفنية فيجعله جزءاً منه .

وهذا هو الذي حدث في الشعر العربي في الحقبة التي تتحدث عنها . فلم تظهر فيه آثار الفلسفة ولم تتضح فيه آثار التطور الفكري اتضاحا فنيا الا في النصف الثاني من القرن الثالث ، ثم في القرنين الرابع والخامس عند ابي تمام وعند المتنبي ثم عند ابي العلاء المعري في اوضح صورة وأجلاها .

ولم يكن اسراع الشعر الى الفلسفة والمعارف الجديدة ــ في القرن الثاني ــ وافتتانه بها الا اثارة من طبيعة الشعر العربي التي سبق الكلام عليها[٣٢]. اذ انه يعد نفسه جماع الفكر واداته الوحيدة التي عرفها العرب للتعبير عما يختلج في قلوبهم وفي عقولهم في وقت معاً . ولكن فرقاً لا ينكر بين التعبير عن الافكار التي تنشأ من الخبرات والتجارب الانسانية ، فتقلبها الحياة ظهراً لبطن ، تنفذ الى نفس الشاعر نفوذ الماء في الارض الصلدة على مهل وروية وأناة ، فتغوص في قرارتها ولا تتبدد ، وبين الافكار التي يستنبطها العلم والفلسفة ، ولا تزال تتجمع وتحتشد وتسرع في الحركة، حتى يضيق بها الشعر المقيد ذو التقاليد الفنية الثابتة المستقرة ، ثم لا تلبث أن تحمله على قلب كيانه وتكسير قيوده ،حتى اذا فعل ذلك لم يجده شيئاً ، فتعود تلتمس لها المجال الرحيب الفسيح : مجال النثر.

أما الامر الثاني فهو يتصل بموضوعات الشعر وبعلاقتها بالوحدة الفنية في القصيدة . فقد أخذت الموضوعات والاغراض ، ولا سيما الجديد منها يستقل كل منها بمقطوعة أو قصيدة لا يشركه فيها موضوع آخر .

---

(٣٢) الباب الثاني ــ الشعر في طريقه الى بغداد .

فظهرت مقطوعات الهجاء ، وان كانت سابقة في ظهورها لقيام بغداد ، واستقل بعض القصائد بالخمر ووصفها ، واستقل بعضها الآخر بالحكمة والزهد ، ولم نعد نشهد في القصيدة الواحدة فنوناً وموضوعات لاتجمع بينها إلا وحــدة الوزن والقافية ، بل صار للوحــدة مكانها في الفن الشعري • وذلك ، وإن يكن قد عرف في الشعر من قبل على مدى محدود ، في غزل الحجازيين ، إلا أنه اتضح في هذا العصر وتأكد ؛ وهو بالطبع متأت من تأثر الشعــر بالحياة العلمية التي عرفت التبويب والتصنيف في العلوم وجمع المتشابه منها بعضــه الى بعض •

تلك إشارة مجملــة الى ما أمكن أن يلم به البحث مما أعقبته الحيــاة العقلية والعلمية في الشعر من الآثــار في الموضوع وفي الصورة ، وهي آثار لها قيمتها في تاريخ الشعر العــربي على وجــه العموم ، ولها مكانهــا من استجابته لتبدل الظروف والأحوال وتمثله لما أحاط به من مؤثرات ، صمــد لبعضها فلم يلن له ، ولان لبعضها واستجاب له، أو ألانه واستغله واستخدمه•

وعلى كل حال فــان للكــلام على أسلوب الشعر وأغراضه ومعــانيه موضعه من البحث سيأتي إن شاء الله •

* * *

الباب الرابع

الشعر بين القديم والجديد

تمهيـــــد

كان انتقال الحياة الادبية الى بغداد حدثاً جديداً في تاريخ الادب العربي لم يعرف له من قبل مثيلا . فقد كانت مراكز الخلافة من قبل بغداد في شغل عن الحياة الادبية ، ولم تكن تعنى من الادب إلا بالقدر الذي يتصل بسياسة الحكم وتأييد الحاكمين ومدح الخلفاء واستخدام الادب في أمور الدولة ، من كتابة رسائل ، أو تأييد سياسة ، وما أشبه ذلك .

ونحن لو تتبعنا هذا الامر قبل بغداد ، وجدنا أن أول مراكز الدولـة الاسلامية وهو المدينة ، لم يكن في ايام الرسول صلى الله عليه وسلم يفرغ لغير الدعوة الاسلامية ونشر الدين وتثبيت دعائم الاسلام ، وهكذا كانت المدينة في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة . فقد كـان إشتغالهم بالفتوحـات وتدبير أمور الدولة الواسعة هو الشغل الشاغل لهم وللمجتمع في عاصمة الخلافة .

وعندما انتقلت الخلافة الى الكوفـة في عهد علي بن أبي طالب ، لـم يكن الحال يختلف فيها عما كان عليـه في المدينة ، بل لقد زاد في تعقيد الامور واضطرابها ان امر الخلافة لم يصفُ لعلي ولم يستقر ، فكان عليه أن يقاوم خصماً أبى أن يقر له وأن يبايعه ، وهو معاوية بن ابي سفيان .

ثم انقضى زمن الكوفة وانتقل مركز الخلافة الى دمشق بعد انتصـار معاوية ، وتم للامويين ما كانوا يريدون من استقرار ، ومضت فترة التوطيـد والتهدئة والقضاء على الخصوم . ولكن دمشق لم تحتضن الادب ، ولم يعرف لها التاريخ أنها اصبحت بيئة شعر وفن ادبي متميز يعرف بها وتعرف به .

بل ان من الغريب ان نلاحظ ان الامصار الاسلامية لم يكن لها شأن في تاريخ الادب وفي الشعر بصفة خاصة إلا بعد ان هجرتها مقاليد الحكم وتخلى عنها سلطانه . هكذا كان شأن مكة والمدينة بعد ان انتقلت منهما الخلافة الى دمشق ، وهكذا كان شأن الكوفة في عصر بني امية كما اسلفنا.

وكأن الفنون ، ولاسيما الشعر ، كانت في تلك العصور ضروباً من الهزل لا يصح ان يجتمع الى جد الحكم ورصانته ووقاره ، وانما يلزمه ان يلتمس لنفسه مجتمعاً فارغاً من مشاغل العمل الجدي الى حد كبير ، منصرفاً الى ناحية اخرى من نواحي الحياة .

لقد كان النشاط الادبي ، والشعري منه على وجه الخصوص ، والتفرغ اليه والانصراف عما سواه في البيئات التي عرفت به . ونحن لو تتبعنا ظاهرة النشاط والتجديد في الشعر من اول الامر وجدناها نبتت اول ما نبتت في الحجاز بعد أن تخلى عنه السلطان ، فقامت فيه حياة جديدة شاع فيها الغناء واللهو والطرب ، فكان أن ظهرت في ظل هذه الحياة الجديدة بواكير التجديد في الشعر ، ونشأت فيه مذاهب فنية جديدة في الغزل ، وأصبح الشعر فناً ذاتياً يقوم على العاطفة والمشاعر .

ونحن نشهد في العصر الاموي بيئة اخرى ورثت شيئاً من تراث الحجاز في الفن وفي حياة اللهو ، وزادت عليه شيئاً من تراث حضري قديم كان في الجاهلية متميزاً عما سواه معروفاً برقة الحضارة ونعومة المدنية ، وهو تراث الحيرة ، وكانت هذه البيئة هي بيئة الكوفة . وثمة بيئة عراقية اخرى جمعت بين مظاهر الحضارة المترفة وبين مظاهر النشاط الفكري المستمد من القديم العربي قليلا ومن الجديد الاجنبي كثيرا ، فكانت مصدرا من مصادر الحيوية في الشعر في ايام بني امية وهي البصرة .

مرة اخرى نعود فنقول ان انتقال الحياة الأدبية الى بغداد كان إيذاناً بحدث جديد في تاريخ الادب العربي لم يسبق اليه . فقد كانت بغداد مركز

الخلافة ومقر الحكم ثم أصبحت بعد فترة من الزمان هي المركز الأول والمصب الذي كانت ترفده البيئات الأدبية الاخرى كالبصرة والكوفة بعد انتقال طائفة كبيرة من أهل هذين المصرين اليه ـ كما سلف بيانه ـ • ثم مالبث هذا المركز الجديد أن طغى وارتفع ، حتى انفرد بالمقام الأول في الادب ، وصار موطن التجديد والابداع والابتكار وأصبح مصدر الاشعاع في الحياة الأدبية لسائر أمصار الدولة الاسلامية • واجتمع لبغداد في العصر العباسي وفي الحقبة التي نبحث فيها على الخصوص زعامة الأمصار الاسلامية في كل شيء في الحكم والسياسة وفي العلم والأدب •

ولقد اسلفنا في الفصول الماضية الكلام على العوامل الجديدة التي توافرت لبغداد ، فأثرت في الشعر وغيرت في السبيل التي سلكها بعد ان تأتى له ان ينبت في تربتها ويزدهر ، ونرى في هذا المقام ان نعلل انتقال الشعر اليها خلافا لما ألفناه في عواصم الخلافة الاسلامية من قبلها •

ولعل اهم الاسباب التي ادت الى ذلك سببان :

الاول ـ ان الخلافة العباسية قد قامت في اول امرها بالكوفة وهي احدى امهات البيئات الادبية والشعرية خاصة • وقد كانت الكوفة هاشمية النزعة فانتقل اليها المغتبطون بأن آل الامر الى بني هاشم من البصرة ومن غيرها ثم انتقلت الخلافة بعد ذلك الى بغداد ، وتوافدت عليها عناصر العلم والادب والشعر من الكوفة ، راغبة في القرب من مركز الحكم بعد ان حرمت منه حقبة طويلة • واذن فقد تهيأ لبغداد عناصر التكوين الادبي قبل انشائها، وكأنما اعدت لها الكوفة بناءها في الناحية العلمية والادبية فنقلته اليها على وجه يقرب من التمام •

الثاني ـ ان بغداد كانت ارضاً بكراً ، وكانت لحداثة انشائها وتكوينها صالحة لاستيعاب كل جديد يطرأ عليها ويستقر بها ، ولم يكن فيها من الناس من يضفون على حياتها الاجتماعية والادبية صيغة خاصة قد ينفر منها بعض

الناس كالطبع الذي عرف به اهل الشام وبعض الصفات الاخرى في اهل السواد • يضاف الى ذلك انها كانت من الوجهة الطبيعية جميلة المناظر معتدلة الهواء موفورة فيها الارزاق • ومن اجل ذلك أقبل الناس على سكناها واستطابوا المقام فيها ووجد الادب والشعر فيها تربة خصبة غرس فيها بلا عناء فأثمر غراسه •

وهكذا قامت في بغداد حياة جديدة سبق لنا ان عرضنا المؤثرات السياسية والاجتماعية والحضارية فيها • واخذ الشعر يتأثر بهذه المؤثرات شيئاً فشيئاً واتخذ سبيله فيها سرباً بين قديم ورثه عن عصوره المتطاولة في القدم ، وجديد اقتضته ظروف التجديد في حياة بغداد •

وكانت عوامل التجديد في الشعر تستمد من تلك المؤثرات التي اشرنا اليها في السياسة وفي الاجتماع وفي الحضارة وفي التطور الفكري • وكانت ثمار هذه العوامل تختلف قوة وضعفاً ويتفاوت اوان ظهورها تبعاً للظروف •

على ان عوامل التجديد لم تكن تنفرد بالتأثير على الشعر والادب ببغداد بل كان القديم ــ بطبيعة الحال ــ يفعل فعله في المحافظة على نفسه ، وفي الابقاء على كيانه ، وكانت الحرب بين القديم والجديد سجالا • فمرة يظهر الجديد على القديم ، ويطغى ، وتارة ينخذل ويتوارى ، وقد كانت نتيجة ذلك الصراع مذهباً في الشعر وسطاً ، فيه من القديم كيانه الذي لم تنل منه ظروف الحياة الجديدة ، وفيه من هذه الحياة مظاهر وألوان جديدة •

وثمة أمر لا يصح اغفاله بل يجدر بالباحث ان يتنبه اليه ، وهو أن القديم والجديد كليهما كانا على جانب من القوة لا يستهان به، ولهذا كتب لهما أن يعيشا في صعيد واحد ولا يتغلب أحدهما على الأخر فيقضي عليه أو يطويه في مطاوي النيسان ، ولعل سر القوة في القديم أن العراق كان بعد الاسلام وارث الجاهلية في شعرها وفي بعض تقاليدها الاجتماعية ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ • فقد كان في العراق رواة الشعر الجاهلي الذين

احتفظوا به وتلقنوه بعد أن تغير وجه الحياة في الحجاز ، وكانت فيه بقية غير قليلة من البداوة في بادية البصرة وفي الجزيرة وفيما حول الكوفة ، وكان فيه فحول الشعراء الذين يعتبرهم مؤرخو الشعر العربي بحق امتداداً للشعر الجاهلي كجرير والفرزدق والأخطل والراعي • فكأن العراق هو الذي احتفظ بالصلة بينه وبين الجاهلية قائمة مترابطة الحلقات ، لم تنفصم عراها كما انفصمت في الحجاز بعد الاسلام ، فأدى ذلك فيه الى أن يتغلب الجديد من الشعر على القديم أو يكاد •

وكان من أسباب القوة في القديم أنه يتمثل في البيئة الكوفية التي عرفت في تاريخ الأدب وفي تاريخ علوم العربية باعتمادها على الرواية والنقل وبكثرة الرواية فيها • ومعلوم أن الخلفاء العباسيين كانوا يؤثرون أهل الكوفة فاتخذوا منهم مؤدبي أولادهم ومساميرهم في مجالسهم ، وأهملوا العلماء من أهل البصرة حتى لم يكد أحد منهم يحظى عند الخلفاء حظوة علماء الكوفة • وقد أشرنا الى بعض ما يمكن اعتداده علّة لهذا الايثار في ما سلف من البحث • واستند القديم في صراعه وفي تشبثه بالبقاء بالحركة العلمية في الرواية وفي تدوين الأدب ، تلك الحركة التي قامت على احياء القديم والاعتداد به واعتباره المثل الأعلى في الشعر •

ومما أمد القديم بالقوة ومنحه القدرة على البقاء روح الحكم ويقظة الخلفاء العباسيين للمحافظة على العروبة في الدولة والمجتمع كما سلف بيان ذلك في الكلام على تأسيس بغداد واسبابه • ومن ذلك ايضا ان طائفة كبيرة من الخلفاء العباسيين كانت على حظ غير قليل من رواية الشعر وتذوقه وتقديره ، فقد كان هرون الرشيد يروي شعر ذي الرمة ويتذوقه ويعجب به ، وكان ابنه المأمون ناقداً ذواقاً للشعر من طراز عال ، وكان أغلب الخلفاء يقول الشعر بقلة ، ويعرف من مقاييسه الفنية التي توارثها عن القديم شيئاً غير قليل •

كانت هذه الأسباب كلها تأخذ بناصر القديم وتعينه على البقاء ، وتخفف

من فورة التجديد العارمة التي كانت تحاول أن تطغى عليه ، وكانت هذه الأسباب في الوقت نفسه تميل بالتجديد الى شيء من الاعتدال وتريه أنه أهل لأن يصول في ميدانه مما كانت تقتضيه ظروف الحياة الجديدة ، وأنه ليس أهلا لأن يحل محل ما توارثته الأجيال من تقاليد فنية في الشعر .

ولعل هذا يفسر لنا ظاهرة تذبذب المجددين من الشعراء بين القديم والجديد ، وأننا لا نجد أحداً منهم التزم التجديد ، أو لزم هجر القديم في كل غرض من أغراض الشعر وفي كل فن من فنونه ، بل نلاحظ وجود الضربين كليهما يصدران عن المجددين الثائرين على القديم كأبي نواس .

أما السر في قوة الجديد فهو أنه لم يكن وليد الحياة الجديدة في بغداد فحسب ، وإنما كان أحيانا وليد التحول الذي طرأ على الحياة في بعض الأمصار الاسلامية من قبل أن تنشأ بغداد وأن تصبح بيئة للشعر تؤثر فيه وتتحكم في مجرى حياته . لقد كان جزء كبير من ذلك الجديد استجابة لظروف الحياة في البصرة والكوفة ، أو كانت أصوله — على وجه الدقة — قد أخذت تنبت في تلك البيئات ، وقد مر بعضها بأطوار الكفاح من اجل البقاء في تلك البيئات حتى تلقفته بغداد وأنزلته فيها منزلا مكن له في النماء والازدهار تارة ، وعرضه للانهزام في معركة البقاء تارة أخرى .

وكان بعض هذا الجديد يستمد قوته من السلطان ويستند اليه السلطان الذي لم يكن في يد العرب الى مدى بعيد ، اذ كان الأعاجم ولا سيما البرامكة وأمثالهم هم المهيمنين على دفة الحياة السياسية والاجتماعية في غالب الأحيان ، فاندفع الجديد يتخذ مكانه من الحياة الأدبية قوياً مرضياً عنه من السلطان ، ممهدة سبله لا حبة طرائقه ومسالكه ، وسنتبين تفصيل ذلك عند الكلام على الثورة على القديم وما يتصل بها من موضوعات الشعر ، وعلى سهولة الاسلوب وتفككه في موضع هذه المسائل من البحث .

❊ ❊ ❊

هكذا كان القديم والجديد في الشعر يتصارعان في بغداد ، ويتنافسان تنافسا اجدى على الشعر كثيرا ، وامده بثروة قيمة تذكر في تاريخ الشعر العربي .

ولعل من اعظم مزايا بغداد انها كانت ـ وقت ان صارت اليها الزعامة الادبية ـ حفيظة على الشعر القديم ، حريصة على بقائه ، وهي في الوقت ذاته مجال فسيح للجديد يخرج من فنونه ما يشاء ويختار .



الفصل الاول

عوامل التجـديد

عرضنا في الباب السـابق للعوامل التي توافرت في بغـداد فأثرت في الشعر تأثيراً يتفاوت بين التجديد الثائر على القديم ، وبين التطور الـذي يأخذ من الجديد بقدر معلوم ، او المحافظة ، التي تأبى على الشعر ان يخرج على قديمه او يفارق اصوله الاولى .

ونريد في هذا الفصل ان نستخلص منها تلك العوامل التي بعثت التجديد في الشعر وأدت اليه ، وان نتلمسها من بين العوامل التي اسلفنا الكلام عليها.

ويمكن القول إن هذا الفصل خلاصة لما سبق ، وتشخيص الآثار التي تكلمنا على مسبباتها في الفصول الماضية ، ومن اجل ذلك فلا مندوحة مـن اعادة الاشارة الى بعض ما سبقت الاشارة اليه والكـلام فيه مرة ثانية لان سياق البحث يفرضه ويقتضيه .

وقد كانت عوامل التجديد يختلف بعضها عن بعض في الاصول التـي نشأت منها وفي الاثر الذي خلفته في الشعر سلباً او إيجاباً ، وكان بعضهـا نبات البيئـة البغدادية الجديدة بتكوينهـا الطبيعي والسياسي والاجتماعي والثقافي والحضاري ، وكان بعضها اثراً من آثار الحياة العامة في الدولـة العباسية ، قدّر لبغداد ان تكون مجالا لاستجلاء آثاره ، بوصفها مركـز الخلافة وعاصمة الدولة .

ويمكن ان نحصر عوامل التجديد في الشعر فيما يأتي :

١ — السياسة

فقد كان للسياسة تأثير سلبي في حياة الشعر ، وقد مر بنا في الكلام على العامل السياسي ان الشعر السياسي قد ضعف في هذا العصر وفي هذه البيئة ضعفاً واضحاً ، لان الدولة العباسية لم تشهد معارضة سياسية يعتد بها ، ولم يقم فيها من الاحزاب السياسية ما يتخذ الشعر وسيلته للكفاح السياسي والدعوة الى مذهبه ومعارضة خصومه ، وقد حاولنا بسط الكلام في اسباب ذلك فلا محل له هنا .

وكان من آثار هذا الضعف في الشعر السياسي ان دفع الشعر الى ان يلتمس بنفسه مجالا في جوانب الحياة الاخرى ، بل قد يكون اقرب الى الصواب ان نقول إن جوانب الحياة الاخرى هي التي تلقفت الشعر فأحلته فيها على الرحب والسعة، وافسحت له فيها مكاناً عوضه عما فقد في السياسة. وهكذا فرغ الشعر من السياسة الى ألوان اخرى من الحياة الاجتماعية كانت في واقع الامر اقرب الى طبيعته الفنية واولى به من الجدل والمناقشة وايراد الحجيج ، وما اشبه ذلك من معاني الشعر السياسي .

وكان لهذا التحول في الشعر — تحوله عن السياسة الى حد كبير — ما قد نستطيع ان نصفه بأنه اجهاز او بعض اجهاز على الطبيعة الموضوعية التي تميز بها الشعر العربي في اغلب عصور ازدهاره ، وبخاصة في العصر الجاهلي والعصر الاموي . لقد كان الشاعر — يشبه الى حد كبير — جندي الميدان الذي يكلف ويؤمر فيمتثل ويطيع ، إذا هوجم قومه او حمل عليهم خصومهم ، فلا بد ان يكون على اهبة الاستعداد لصد الهجوم ودرء العدوان . وقلما كان الشاعر يرسل نفسه على سجيتها تستجيب لدواعي الشعر من عاطفة ذاتية واحساس شخصي بلا تكلف ولا ارهاق ولا تصنع .

ويبدو ان الفرزدق — وهو واحد من فحول الشعراء الذين وصفنا

حالهم آنفاً ـ كان يحس بهذا الارهاق ويشعر به حيث يقول : « أنه اشعر تميم عند تميم وقلع ضرسه أهون عليه احياناً من قول الشعر » .

ولعل هذا القول يدل على ان الرجل كان يتكلف قول الشعر في بعض الاحيان استجابة لدواع غير ذاتية ـ ان صح التعبير ـ فيجد في ذلك عنتاً ورهقاً . وكان امثاله من شعراء القبائل الذين يحامون عن مجدها ، ويردون العدوان عنها ، يحسون بمثل ما احس به ، كجرير والراعي النميري والبعيث وغيرهم .

ولقد لازم هذا المظهر ـ واعني به الموضوعية ـ الشعر العربي فلم يكد يفارقه ، وكان من مواطن الضعف البادية حتى عصرنا الحاضر . وحسبنا بشعر المناسبات وما يجري مجراه دليلا ساطعا على ذلك .

وقد اتاحت الحياة الجديدة للشعراء ان ينسلخوا بعض الشيء من هذه الطبيعية في شعرهم ، ويقبلوا على الوان الحياة الجديدة فيستمتعوا بها ويشعروا بها ويستجيبوا الى دواعيها فيعبروا عن ذلك في شعر نستطيع ان تتلمس فيه مشاعرهم الذاتية ، ونحس فيه خوالج نفوسهم وعواطفهم ،وهذا بلا شك ضرب من الحرية اللازمة للفن .

لقد اقبل الشعراء في بغداد يملأون نفوسهم من الوان الحياة الجديدة ويشاركون فيها مشاركة وجدانية تمثلت في اغراض الشعر الجديدة التي نشأت في بغداد ، وفي التطور الواسع الذي اصاب بعض الاغراض القديمة .واعرض الشعر الى حد ما عن الوجهة الموضوعية التي اشرنا اليها آنفا وتخلى عنها وعما هو بسببها من الاغراض والمعاني ـ الى النثر الذي بدأ يتخذ مكانه في الحياة الادبية ببغداد .

وفي هذا ايضا ظاهرة جديرة بالتسجيل حرية بالالتفات ، وذلك ان الشعر باعراضه عن بعض ما كان يعتبر من اغراضه الاولى ، في ما سبق من عصور الحياة العربية قد سجل للادب العربي انه عرف التفريق بين

الفنون الادبية ، وما يصطلح له كل منها من الاغراض والموضوعات ، واخذ الشعر يتخصص بعض التخصص بما هو ادنى الى طبيعته الشعورية العاطفية، وتسلم منه النثر ما هو اصلح له واقرب اليه من اغراض وموضوعات تستلزم حرية في طريقة التعبير ومجالا فنيا اوسع للأخذ والرد والمناظرة وإيراد الحجج وقد كان فاتحة ذلك ـ على ما نحسب ـ الرسائل التي وضعت في تأييد بعض الاحزاب السياسية على بعض .

وصحيح ان الشعر العربي قد سبق له ـ وقتاً ما ـ ان التزم التعبير عن العاطفة وتفرغ له ، واعرض عما سوى ذلك من الاغراض التي تربطه بالحياة العامة ، وقد لا يصلح لها الشعر ، وكان ذلك في شعر الحجازيين ايام بني امية ، إلا ان هذا الموقف كان موقفاً سلبياً وقفه الشعر ـ إن جاز هذا التعبير ـ وان الحياة العامة هي التي هجرته وتخلت عنه ، فعكف على العواطف والمشاعر وتخلى عن مكانه في التعبير عن غير ذلك من الاغراض وعن المشاركة في الحياة العامة ، والفرق واضح بين الحالين على كل حال .

وثمة امر آخر يصح ان يعتبر من آثار السياسة في الشعر ، وهو ان الخلفاء ورجال الدولة واصحاب السلطان ـ وهم مصدر الرزق الاول للشعراء ـ قد اصبح مطلبهم في الشعر يختلف اختلافاً واضحاً عما كان يطلبه الخلفاء الامويون ومن اليهم من اصحاب السلطان . فبينما كان هؤلاء يطلبون من الشعراء ان يمدحوهم ويهجوا خصومهم ، ويرضوا غرورهم بما شاءوا من التمجيد والتعظيم وتحقير الخصوم ، اصبح الخلفاء العباسيون ومن اليهم يتطلبون في الشعر اشياء اخرى ، كأن يمر الواحد منهم بحالة نفسية معينة ، فيرغب الى الشعراء ان يقولوا فيها ، فمن اصاب ما في نفسه كان جديرا بصلته وبماله . وكأن يجلس الواحد منهم مجلس اللهو والشراب فيعجبه ان يستمع الى غناء في معنى بعينه من معاني الشعر ، فمن استطاع ان يحدس ما في نفس الخليفة او الامير فيقول فيه شعراً يقع موقع الاعجاب

نال من الخليفة او الامير ما يطمع فيه من الجوائز والصلات •

ومن هذا القبيل ما يروى عن الخليفة محمد المهدي وبشار ، فقد بعث المهدي الى بشار ذات يوم فقال له : « قل في الحب شعراً ولا تطل ، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسم احداً » فقال بشار :

اجعل الحب بين حبي وبيني ... قاضياً انني به اليوم راض
فاجتمعنا فقلت يا حب نفسي ... إن عيني قليلة الاغماض
أنت عذبتني وأنحلت جسمي ... فارحم اليوم دائم الامراض
قال لي لا يحل حكمي عليها ... انت أولى بالسقم والامراض
قلت لما أجابني بهواها ... شمل الجور في الهوى كل قاض

فبعث اليه المهدي : « حكمت علينا ووافقنا ذلك » وأمر لم بألف دينار[1] •

ومثل هذه القصة كثير في كتب الادب والاخبار ، يدل على ان مطلب الخلفاء والامراء من الشعر لم يعد يقتصر على جانب السياسة من مدح وتأييد وما الى ذلك مما كان وكدهم ومطلبهم في العصور السابقة •

وصفوة القول ان ضعف الدواعي السياسة في الشعر قد اجدى عليه قوة في نواح اخرى ، وصرفه الى اغراض جديدة تتصل بمطالب الحياة الجديدة في الاجتماع وفي الثقافة وفي الحياة الحضرية المترفة ، ومهد للشعر سبيل التحرر من بعض التقاليد الموروثة فيه ، واتاح لبعض النقاد والشعراء ان يغيروا في المعايير الفنية ويتطلبوا فيها ان تلائم تطور الحياة وما جد فيها ، وسيأتي تفصيل الكلام على هذه الامور في ما بعد •

---

(١) بشار بن برد ، شعره واخباره ، لاحمد حسنين القرني ٦٩ — ٧٠ •

٢ ـ الأعاجم

ومن عوامل التجديد في بغداد وجود الاعاجم على الحياة الاجتماعية، وصيرورتهم عنصراً اساسياً من عناصر التوجيه الاجتماعي، فانطبع المجتمع العباسي في كثير من نواحي حياته بطابع غير عربي، وعرف الترف والبذخ، واصبح اللهو والشراب والأنس أشبه بالضرورة اللازمة في الحياة . وكان فوق ذلك ما أشرنا اليه آنفاً من تزلزل بعض القيم الاجتماعية التي سار عليها المجتمع الاسلامي محتفظا بالتقاليد العربية الجاهلية من فخر بالأنساب ودفاع عن الأعراض ونحو ذلك . وكان من نتائج ذلك افحاش الشعراء في الهجاء وافراطهم في قذف بعضهم بعضاً، وسلوك طائفة منهم في كل ذلك سبيلا ينبو عنها الذوق وتأباها الكرامة .

وحدث من جراء ذلك أيضاً أن أعان القوم على تسرب الحضارة الفارسية الى الحياة العربية[1]، ودخول الأفكار الغريبة والعقائد الأجنبية التي اتضح أن من أغراضها ومراميها زلزلة العقيدة الاسلامية، ومهاجمة الدين، الذي حمله العرب، في عقر داره .

على ان ذلك لم يكن شراً كله بل لقد كان فيه الى جانب ضرره البالغ نفع، وفتح للشعراء مجال الاطلاع على الثقافة والأفكار الأجنبية فجنى منه الشعر أطيب الثمرات .

ولم يقتصر أثر الأعاجم وغلبتهم على الحياة الاجتماعية على الجديد في بعض فنون الشعر وتوجيه بعضها الآخر وجهة جديدة، بل كان له أثره في أسلوب الشعر وطريقته في التعبير . فقد جنح أسلوب الشعر الى السهولة ونبذ الغريب من اجل الاعاجم، لانهم لم يكونوا يفهمونه أو يتذوقونه بطبيعة الحال، فأخذ الشعراء يتجنبونه ويتعمدون أن يتبسطوا في لأسلوب ويتحللوا من الطريقة

---

(١) العامل السياسي في أدب العصر العباسي الأول للاستاذ احمد الشايب ص ٢٥ .

الفنية المألوفة في التعبير ، حتى انحط بعضهم بأسلوبه الى العامية • على أن لهذه الظاهرة سبباً آخر سنعرض للكلام فيه عند البحث في سهولة الأسلوب •

ولقد كان من آثار الأعاجم في حياة الشعر أن تغير معيار الشاعر واختلف تقويمه ، فأصبحت خفة الطبع ، وقرب المأخذ ، وسهولة الأسلوب ، هي الأمور التي بها يقاس تجويد الشاعر وتقدمه ، وبها يحظى عند الأمراء ورجال الدولة من الأعاجم خاصة •

وقد خلف لنا أحد الشعراء الذين خطف أبصارهم بريق المال والجاه عند البرامكة صورة لما ينبغي أن يكون عليه الشاعر حتى يستحق أن يكون في خدمة هؤلاء الامراء وفي جملة حاشيتهم • ذلك هو أبان بن عبد الحميد اللاجقي ، فقد وصف نفسه في أبيات بعث بها الى أحد رجال البرامكة يرجو أن يكون في خدمته ويرشح نفسه لذلك فقال :

شاعر مفلق أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح
لي في النحو فطنة واتقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروي من ابن سيرين للعلم بقول منوّر الافصاح
ثم أروي من ابن سيرين للشعر وقول النسيب والامداح
وظريف الحديث من كل فن ... ويسير بترهات الملاح
كم وكم قد خبّأت عندي حديثاً ... هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو ... وتناجي في الشكل والاقداح
أيمن الناس طائراً يوم صيد ... لغدو دعيت او لرواح
أبصر الناس بالجوارح والنحيـ ... ـل وبالخرّد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله ... على انني ظريف المزاح
لو رمى بي الامير أصلحه الله ... رماحاً ثلمت حدّ الرماح

ما انـا واهـن ولا مسـتكين لسوى أمر سـيدي ذي السماح
لست بالضخم يا اميري ولا الفد م ولا بالمجحـدر الدحـداح
لحيـة جعـدة ووجـه صـبيح واتقـاد كالشـعلة المصباح
ان دعـاني الامـير عاين منـي شـمرياً كالبلبـل الصيـاح

هذه الأبيات في معناها وفي أسلوبها تدلنا على نظرة القوم الى الشاعروالنديم ورأيهم فيه ، وما يجب أن يكون عليـه ، وكيف أثرت الحضارة في تقديره ، فأصبح شخصه وهيئته ومظهره يدخل في حساب من يصطنعه ويقربه مـن رجال الدولة واهل السلطان • أما أسلوب هذه الأبيات ، فهو أشبه بأسلوب النثر المترسل الخالي من التفنن منـه بالشعر ومـا فيه من الخيال والصور الفنية في التعبير •

وكان من آثار الأعاجم في الحياة الأدبية والفكرية ، أنهم أعانوا على نقل طائفة من الكتب الفارسية وغيرها الى العربية ، مثل كتاب كليلة ودمنة وكتابي الأدب الكبير والأدب الصغير ، وقد نقلها الى العربية عبدالله بـن المقفع • على اننا لانعلم ان كان قد نقل شيء من الشعر الفارسي الى العربية ، والظاهر الراجح انه لم ينقـل • وقد كان من آثـار هذه الكتب أن زودت الشعراء بمعان جديدة ، وأن أحدثت نشاطاً فكرياً لاشك في جدواه علـى الشعر • ويبدو أنه كان لهذه الكتب أثر لاينكر في شعر الحكمة والزهـد وفي نشأة ما عرف بالشعر التعليمي •

ولا ننسى أن النزعة الشعوبية التي وجدت في كنف هؤلاء الأمراء ــ الأعاجم رعاية وحماية ــ قد أتاحت للشعراء من غير العرب أن يحملوا علـى العرب ويثلبوهم وينتقصوهـم ، وبالتالي أن يدعو بعضهم الى الثورة على تقاليدالشعرالعربي دعوةفيها سخريةوفيها أيضاًشيء لاينكر منالواقعيةالفنية التي تدعو الـى التحرر من قيـود القديم والاستجابة الى دواعي الحيـاة الحضارية الماثلة في الواقع •

٣ ـ شيوع الحياة الحضرية

ومن عوامل التجديد أيضاً شيوع الحياة الحضرية بما فيها من ترف في المأكل والمشرب والملبس ، واقبال الناس على التمتع بالجانب المرح اللاهي من الحياة بسبب حالة الاستقرار والهدوء التي كانت طابع الحياة في العصر العباسي الأول ، بعدالجهود الجبارة التي صرفها أبو جعفر المنصور في القضاء على كل ما كان يتهدد الدولة من أخطار • وهكذا خلا الناس الى أنفسهم ، يلتمسون لها المتعة من كل لون ، ويبحثون لها عن مطالب الأنس واللهو •

وكان الشعراء بطبيعة الحال طليعة من طلائع هذا التحول في الحياة ، فكانت صورته في شعرهم واضحة جلية فقد انصرفوا الى مجالس اللهو والانس والشراب يملأون منها نفوسهم، ويشحذون بها عواطفهم ومشاعرهم، حتى لقد فني بعضهم فيها فصار يعبر عنها تعبيراً فيه امعان وفيه اغراق ، وفيه ما يشبه حالة الفناء في التصوف ، ففني أبو نواس في الخمر واتخذها دمية يتعبد لها ويتبتل في حضرتها ، ويأتي فيوصفها بالعجب العجاب ، مما لم يعرف له الشعر العربي من قبل مثيلا ، وكان يقارنه في هذه السبيل شعراء آخرون كالحسين بن الضحاك وغيره • لقد عرف وصف الخمر وما يتصل بها من وصف مجالس الشراب في الشعر العربي ولكنه كان لمحة خاطفة والمامة عابرة، لايلبث أن يتحول عنها الى غيرها ، ثم أصبح ، هذا العصر غرضاً أساسياً عند شعراء هذا العصر ، لا وسيلة الى أغراض أخرى ولا غرضاً جزئياً يلمون به ثم يتجاوزونه الى سواه •

وقد كانت المرأة منذ القديم هي الملهم الأول للشعراء ، والمعين الذي يستقون منه الحب حلوه ومره ، وكانت لها المكانة الأولى في الشعر العربي ، فلم تخل من ذكرها قصيدة مهما كان غرضها ومهما كان موضوعها • واتجه

اليها الشعراء بكل مـا في نفوسهم من اعجـاب واكبار فوصفوها ووصفوا تعلقهم بها وعاطفتم نحوها •

كانت المرأة العربية في موضع من الاحترام لا يدانى ، لأنها في الأغلب قريبة أو جارة أو نحو ذلك ، لا ينالها العاشق الا بجهد ولا يبلغها الا بعناء ، هكذا كانت في العصر الجاهلي ، ثم جاء الاسلام فزاد مكانتها وأعلى قدرها وجعلها ندا للرجل في اكثر الحقوق ، وأنزلها في المجتمع منزلا كريما ، فحلت من اجـل ذلك في الشـعر محلا ارفع ، بل صـارت تنفـرد بشـعر بعض الشعراء فلا يشاركها فيه امر من امور الحياة مهما بلغ من الخطر •

واصبحت بعد الاسلام على جانب من العلم والفقه بشـؤون الحياة ، ومنها الادب ، فكانت تعقد المجالس والندوات وتجمع الشعراء لتسمع منهم وتنتقد شعرهم وتحكم لبعضهم على بعض ، وما امر سكينة بنت الحسـين عنا ببعيد •

ولقد جاءت الحضارة فكثر الجواري وبلغ عددهن في بيوت الاغنيـاء والموسرين مبلغا عظيما ، وصرن يتخذن للغناء واللهو والعبث ، فهبط شـأن المرأة في الشعر واصبح الحديث عنها عند اكثر الشعراء ضرباً من اللهـو والعبث والمجون ، ولم تعد المرأة تثير في النفوس تلك المعاني العميقة او تلك العواطف المشبوبة ، بل صار الحديث عنها ــ كما قلنا ــ جزءاً من الحديـث عن مجالس اللهو والغناء والشراب في الغالب ، فتوصف الخمر وكؤوسها ، ويوصف مجلسها وما فيه من اسـباب المتعـة والانس ، وتوصف المـرأة باعتبارها آلة من آلاته •

لهذا السبب ولبعض الاسباب الاجتماعية الاخرى ، هبط فن الغـزل من عليائه عند اغلب الشعراء ، ولم نعد نعرف فيهم عاشقاً خالط العشـق قلبه ، ونفذ الى قرارة نفسه الا قليلا ، كالعباس بن الاحنف ، واصـبح

الغزل في جملته تعبيراً عن لذة عابرة وشهوة طارئة ، لا تصل الى طوايا النفس ولا تثبت على حال .

واتجه الغزل من ناحية اخرى الى الغلمان ، فأصبح غزلا بالمذكر يتخذ موضوعه من السقاة والغلمان الذين كانوا يتشبهون في مظاهرهم بالنساء ويتخنثون ليتصدوا لعبث الشعراء ومجونهم .

وهكذا كانت الحضارة جناية من بعض الوجوه على الغزل ، وتلك فيما احسب ظاهرة تقارن الحياة الحضرية المترفة في اوان بدايتها ، اذ يطلق فيها الناس العنان للغرائز والشهوات ، فلا يعود للتسامي واعلاء الغرائز فيها مكان ، يضاف الى ذلك ان ابتذال المرأة ووجدانها في كل مكان وفي كل حين بحيث يسهل الوصول اليها والتمتع بها ، انما يفقدها مزية من اهم مزاياها . وهي تربية العواطف وتهذيب المشاعر ، والسمو بالمتعة واللذة وتحويلها من الناحية المادية العابرة الطارئة الى ناحية نفسية معنوية تجلو انسانية المجتمع ، وتظهرها في اجمل صورة وابهى مظهر .

وكأن المرأة لم ترض بهذا الدرك التي انحدرت اليه مكانتها في هذا العصر ، فالتمست لنفسها مجالات اخرى ، تفرض بها على المجتمع منزلتها ، فاتجهت طائفة من النساء الى التعليم ، وشاركن في الحياة العقلية والادبية والفنية ، فكان منهن الشاعرات والروايات والآخذات من معارف عصرهن بطرف . وقد عاد ذلك على الشعر خاصة بنتائج تاريخية وفنية قيمة ، فنحن لم نكن نقف من قبل شواعر بغداد على عاطفة المرأة تجاه الرجل وعن شعورها بالحب نحوه ، ولا نكاد نجد في شعر الخنساء وليلى الاخيلية صراحة في التعبير عن عاطفة الحب كالتي نجدها في شعر علية بنت المهدي وفضل ومحبوبة . وتلك احدى مظاهر التجديد القيمة الخطيرة في الشعر .

ومن آثار الحضارة في الشعر انها جعلته فناً يقصد فيه الى الجمال ،

ولا يقتصر فيه على محض التعبير عن المشاعر من دون ان يلتفت الشاعر الى صورة ذلك التعبير وان يعمد فيها الى التزويق والتنميق والتفنن • وانتقل الشعر من جمال البداوة الساذج البسيط الى جمال الحضارة المعقد ذي التهاويل والتفاصيل ، فجعلت الشعراء يقصدون في شعرهم الى الصور التعبيرية قصداً ولا يأتونها عفواً من غير تعمد ، كما كان اسلافهم يفعلون •

وقد كان جمال الشعر من قبل يقوم على صدق التعبير عن المعنى ومطابقته للغرض الذي قيل فيه ، وفصاحة لفظه ، واستقامة عموده ، اما الحضارة فلا يكفيها ذلك من الفن شعراً كان او غيره ، وإنما يهمها ، الى ابعد حد ، ان تكون الصورة جميلة تلفت النظر وان يكون المظهر براقا يذهب بالابصار • وكم نراها تضفي على المعدن الرخيص المبتذل ما يوهم انه المعدن النفيس • وقطعة النحاس البراقة المصوغة بدقة وعناية اجمل واقوم في نظر الحضارة من قطعة الذهب التي لم تمسها يد الصناع الماهر •

وصفوة القول ان الذوق ـ واعني به معناه اللغوي ـ اصل من اصول الحضارة ، مهما كان الشيء المذوق خالياً من الغذاء ، قليل النفع والغناء ، ولهذا يكون جمال المظهر فيه طاغياً على اصالة المخبر • ومن اجل ذلك نجد الشعر في العصر العباسي ـ وفي بغداد خاصة ـ قد نحا نحو تجميل الصورة وتزويقها ، وبذل المجهود في ذلك الى حد كبير ، ونشأ في هذا العصر ، او اتخذ صناعة في الشعر ، ما يعرف بفن البديع واعني به ما كان يعمد اليه الشاعر ويتكلفه ويصنعه ، واصبح عند الشعراء او عند بعضهم مذهباً فنياً يلتزمونه ويلحون عليه •

٤ ـ التقدم العقلي

ومن العوامل التي اثرت في الشعر واعانت على التجديد فيه ، ذلك التقدم الذي اصابته الحياة العقلية في بغداد إذ بدأ فيها تنظيم المعارف

وتدوينها وتفتحت امام المجتمع العباسي آفاق جديدة في المعرفة ، فاطلع القوم على طائفة من الآثار الاجنبية في العلوم والفلسفة ، وبخاصة آثار اليونان والهند وفارس فأدى ذلك الى حركة نشاط وافر في الشعر •

وكان لهذه النهضة العلمية آثارها في موضوعات الشعر وفي صورته واسلوبه •

اما الموضوعات فقد جد فيها ما لم يكن معروفاً قبل اتصال هذا المجتمع بالافكار الاجنبية كالشعر التعليمي ، وتطورت بعض الاغراض واستقلت بالقصائد كشعر الحكمة والزهد واصبح الشعر يعبر عن بعض الموضوعات البعيدة عن طبيعته محاولة منه لمجاراة الحياة العقلية والمشاركة فيها • وتأثرت الموضوعات القديمة بالحياة العقلية ، فأدخل الشعراء فيها معاني جديدة احسنوا استخدامها •

وافتتن بعضهم بالمعارف الجديدة حتى كادوا يفسدون بها طبيعة الشعر، فأمعنوا في استخدام المنطق وتكلفوا حدوده ، حتى ضج من ذلك المحافظون كالبحتري ومن على شاكلته ، فقال البحتري :

كلفتمونا حدود منطقكم	والشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ	ـمنطق ما اصله ؟ وما سببه ؟
والشعر لمح تكفي إشارته	وليس بالنثر طوّلت خطبه

اما الاسلوب فقد ادى به ذلك الى شيء من التحلل والتفكك والبساطة ، ليستطيع استيعاب الاغراض والموضوعات الجديدة ، فأصبح اسلوب الشعر اقرب الى النثر في بساطته وخلوه من الصور التعبيرية المألوفة في الشعر •

* * *

ومن المهم ان نلاحظ في هذا المقام ان عوامل التجديد لم تخلق كلها في بغداد ، ولم تظهر فيها فجأة بلا مقدمات ، فذلك امر يخالف سنة الحياة

وطبيعة التطور في الفنون وفي سواها من اوجه النشاط الحيوي . وانما كان بعض تلك العوامل موجوداً من قبل البيئات الادبية التي سبقت بغداد . وقد اشرنا في اثناء الكلام على هـذه العوامل الى ما كان شبيهاً لها في البيئة الحجازية مثلا وما كان اصلا لها في بيئة الكوفة وبيئة البصرة ، وما ظهرت بواكيره في الشام على يد الوليد بن يزيد . ونقول هنا مرة اخرى إن الشعر قد اتخذ سبيله في التطور الواضح البعيد الاثر في تاريخه منذ أن نشأت في الحجاز مدارس الغـزل ، وانصرف الشعـراء الى نفوسهم وعكـفوا على مشاعرهم ، ثم قامت في الحجاز تلك النهضة الغنائية الفنية التي أحدثت في الشعر وفي الشعراء إدراكاً جديداً لوظيفة الشعر وصـرفته الى وجهـة في الحياة يحقق فيها تلك الوظيفة .

على أن هذا الادراك الجديد كان ادراكـاً قسرياً — إن جاز لنا مثـل هذا الوصف — لأن الشعر والشعراء قد أرغموا عليه ، بعد أن أريد للحجاز أن يعتزل الحياة العامة ويخلو الى ما يشاء مما سواها . ولم يكن أهل العراق آنئذ يعترفون بهذا الشعر ولا يقيمون له وزناً ، بل كانوا يجدونه أقرب الى الهزل وأدنى الى العبث .

ولذلك قال الفرزدق في عمر بن أبي ربيعة : ما زال هذا الفتى القرشي يهذي حتى قال الشعر . ونحن نلاحـظ ان كتب طبقات الشعراء لم تصـف من شعراء الحجاز أحداً منهم بالفحول المقدمين .

ثم أصبح لهذا الادراك الجديد لوظيفة الشعر مكانه في العراق ، بعـد أن تأثرت الكوفة بحياة الحجاز وانتقل اليها ألوان منها .

وإذا كان لبغداد من فضل في تاريـخ الشعر العربي وفي ماأصابه من التجديد ، فهو أنها قد جمعت بين تلك المؤثرات وقرنت بين تلك العوامل ، وأعدت لها كل ما أتاح لهـا أسباب النماء والازدهار ، وأضافت اليها مـا استطاعت ، وخلقت من كل ذلك مزاجاً نتج منه هـذا الذي قد نستطيع أن ندعوه جديد الشعر في بغداد ، وسنبحث في تفاصيله فيما يأتي ان شاالله .

الفصل الثاني

الشعر والشعراء بين التجديد والتقليد

الاتجاهات الفنية في الشعر

لقد أصبحت بغداد في منتصف القرن الثاني للهجرة على وجه التقريب مركز الحياة في البلاد الاسلامية المترامية الأطراف ، وانتهت اليها زعامة الأدب العربي والفكر العربي ، فأقبل اليها العلم والأدب والحضارة من كل مكان. وأصبحت بالنسبة لتلك البلاد أشبه بالقلب الذي منه تصدر أمارات الحياة ومنه تتوزع مادتها الى سائر أنحاء الجسم ، واجتمع لها كل ما كان معروفاً من ألوان الحياة على تعددها وتنوعها في ذلك الحين .

وكانت عوامل التجديد والمحافظة في الشعر تفعل فعلها وتؤتي أكلها في بغداد ، وكانت مظاهر تأثيرها في الشعر أن تقسمته اتجاهات ثلاثة :

الأول ــ اندفاع في التجديد وافتتان بالحضارة وبالحياة الجديدة ، ومحاولة جاهدة للتخلص من القديم والانفلات مما يصل به من العرى ، وحاول أن يتحكم في الشعر وأن يخضعه له في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وهو بالنسبة لبغداد أشبه بأيام الصبا وما فيها من الخفة والنزق والاندفاع . وكانت هذه الوجهة في الشعر تستمد قوتها من ماض قريب عاشته في الكوفة وفي البصرة أواخر العصر الأموي ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ثم انتقلت الى بغداد بعد أن انتقلت اليها الحياة في السياسة وفي الشعر وفي غير ذلك ، ووجدت في مركز الخلافة وما جمع من ألوان الحياة الجديدة

مجالا تقوت فيه وازدهرت . وقد اعانها على البقاء ومكن لها في ارض بغداد بغداد ـ غلبة الاعاجم في الحياة الاجتماعية وصيرورتهم سادة الموقف في الدولة الجديدة كما يقال ، وامدتهم الحياة العقلية بمزيد من الافكار الجديدة التي كانت تستهويهم في الكوفة وفي البصرة فأتاحت لهم الحضارة المادية وما كان فيها من متاع فني ان ينصرفوا اليها ويتخذوها الموجه الاول في الشعر ، والوحي الجدير بالاستجابة والانقياد والتأثر .

وكانت اهم الخصائص التي تتميز بها هذه الوجهة الفنية في الشعر هي الآتية :

اولا ـ انها اقتحمت بالشعر مجالات جديدة فاشتركت به في الحياة العقلية وتأثرت بها والزمت نفسها ان تعبر عنها ، فاستحدثت فنونا جديدة كالشعر التعليمي ، وادخلت في الشعر التعبير عن المعارف الجديدة ، فاستخدمت اساليب المتكلمين وملأت شعرها بمصطلحات الفلسفة والعلوم. واتجهت ببعض الاغراض القديمة في الشعر وجهة جديدة متأثرة بما اصابت من المعرفة ، فجعلت الحكمة وتجارب الحياة العامة موضوعات تستقل بالقصيدة لا يشركها فيها موضوع آخر .

ثانياً ـ انها تحللت من وقار الشعر وتحررت من بعض القيم الاجتماعية فأمعنت في الهجاء وأسفَّت فيه ، ثم اتخذت منه في النهاية فناً يقوم على الهزء والسخرية والاضحاك ، بعد ان كان يقوم على الايلام والايجاع . وتقدمت به حتى جعلته فناً يعمد فيه الى الرمز والايحاء بعد ان كان خصاماً صريحاً وعراكاً مكشوفاً .

ثالثاً ـ انها اقبلت على الجانب الذاتي في الشعر فجعلت همها ووكدها فيها ، فأكثرت من وصف الخمر ، ومن الحديث عن الشهوة في الغزل ، ومن الانحراف به الى الغزل بالمذكر .

رابعاً — انها تحولت بالقصيدة من نظامها القديم في تعدد موضوعاتها الى ان حاولت ان تجعلها واحدة الموضوع في الغالب ، وتبع ذلك ان قصرت القصيدة ولم تطل ، واصبحت لاتصلح للانشاد والالقاء في المحافل ، وانما هي اخلق بمجالس اللهو والغناء والهزل والعبث •

خامساً — انها حاولت ان تتحلل من اسلوب الشعر الذي الفه وعرف به ، وان تصل اسلوب الشعر ولغته بأسلوب الحياة ولغتها ، فجنحت الى السهولة والبساطة ، واعرضت عن الاسلوب القديم عجزاً او انسياقاً في تيار الحياة الجديدة في الثقافة وفي المعرفة •

اما الاتجاه الثاني فكان تأثراً معتدلا بالحضارة يأخذ منها بمقدار ، ولم يندفع في التجديد الثائر اندفاع السابق • وكان هذا الاتجاه يحظى برضا السلطان ويتمتع بالتأييد الروحي من الخلافة ، لانه كان في حقيقة امره محافظة على التقاليد العربية التي كان الخلفاء العباسيون لايرغبون أن يفرطوا فيها ، وهو في الوقت ذاته مجاراة للحياة الحضرية في ذوقها وفي الذي يتميز بجمال المظهر وتناسقه وترفه ورونقه • وكان هذا الاتجاه أيضاً ثمرة الاتباع والمدارسة لقديم الشعر ومأثوره ، والتنقيب عن مواطن التجميل الذي يوائم حياة الحضارة فيه •

ومما يلاحظ في هذه الوجهة أنها لم تظهر ولم تتغلب على الشعر في بداية القرن الثالث على وجه التقريب ، حيث عادت الحياة في الدولة العباسية وفي بغداد على وجه الخصوص الى شيء من الجد يشبه الحياة العربية قبلها، وحيث تغلب الطابع العربي على الطابع الأعجمي • وقد كان الأخير هو الذي يرعى وجهة التجديد المندفع في الأغلب ، بينما نشأت هذه الوجهة في كنف النفوذ العربي الى حد بعيد •

وكان أهم ما تتميز به هذه الوجهة الفنية في الشعر ما يأتي :

أولا ــ أنها عادت بالشعر الى القديم في الطريقــة وفي الموضوعات ، وحاولت أن تتناسى أو تتجاهل ما استجد في الشعر مما اعقبته الوجهة الاولى، فضاعت وحدة الموضوع في القصائد أو كادت ، وعاد الأسلوب الى ما كان عليه من الجزالة والفخامة .

ثانياً ــ أنها هجرت الأغراض الجديدة وتركتها تستسلم لفن آخر مــن فنون التعبير هو النثر ، وتمثلت المعاني الجديدة التي اقتبسها الشعر مـــن المعارف الجديدة ، وطوعتها للشعر ، واستخدمتها من دون أن تخل بطبيعة الشعر وأن تجور على أسلوبه وطبيعته الفنية .

ثالثاً ــ أنها عنيت بالتفنن في أسلوب الشعر ، فاستخدمت الصورة في التعبير عن المعنى ، وعنيت بتقسيم العبارة وتزويقها وترصيعها بالمحسنات اللفظية .

وأما الاتجــاه الثالث فكــان تقليداً للقديم واتباعاً له في الموضـــوع والأسلوب تقليداً مبعثه إما العجز عن مجاراة الحياة الجديدة واما الاعجاب المفرط بالقديم والاستسلام لذلك الاعجاب .

طوائف الشعراء

وقد جمعت بغداد بين ظهرانيها طوائف الشعراء الذين كانوا يختلفون في تأثرهم بالحيــاة الجديدة من بين متأثر بها مندفع في تيارها ، أو متحفظ يأخذ منها بقدر ، أو محافظ لا يريد أو لا يستطيع أن يجاري تيارها العارم القوي .

وصار الباحــث في الشعر يحس أن الشعراء قد تقسمــوا طوائف ، واختلفوا مذاهب وطرائق ، منها ما انغمر في لج الحضارة الجديدة انغماراً ، والتمس في التحول الذي أصاب الحيــاة مجالا للتجديــد والابداع ونبذ

القديم والاستهانة به ، واختط لنفسه في الشعر نهجاً جديداً غير مألوف من قبل • ومنها ما وقف من الحضارة الجديدة موقفاً يشبه أن يكون موقف الواعي المدرك ، الذي يفقه من الفن أن ليس كل جديد فيه مستحسن وكل قديم مستهجن ، فتأثر بالحياة الجديدة على قدر ، وأخذ منها بمقدار ، ولم يفارق أصول الفن الشعري وقواعده الثابتة التي ورثها الشعر عن قديم متطاول في القدم • ومنها ما لم تتسع نفسه للجديد الذي أصاب الحياة ، ولم يستطع بحكم ظروفه الزمانية والمكانية ان يفارق القديم وان يعيش في عصر غير عصره ، أو ان اعجابه بالقديم بلغ به كل مبلغ فالتزمه واتبع سبيله •

وربما جاز للباحث ان يقسم الشعراء في بغداد في هذه الحقبة ثلاث طوائف •

١ ـ المجددون

طائفة غلب عليها الهزل والمجون ، وتميزت بالتحلل ، ولم تكن تبالي بشيء او تلتزم حدوداً في عقيدة او خلق • وقد سلكت في فنها الشعري على وجه العموم مسلك الثورة على القديم والتحرر من قيوده قدر المستطاع ، وحاولت ان تخرج على قواعد الفن في اسلوب الشعر وان تجدد في موضوعاته ما شاء لها تحللها او تحررها أن تفعل • وكان على رأس هذه الطائفة بشار بن برد ومن قارنه كحماد عجرد وأبي الشمقمق وسواهما من اهل المجون والتهتك الذين كانت نشأتهم الاولى في البصرة والكوفة • وكان من هذا القبيل ايضاً مطيع بن اياس ووالبة بن الحباب وابو نواس والحسين بن الضحاك وابو العتاهية •

ولقد كانت هذه الطائفة من الشعراء تمثل في شعرها وفي اسلوب حياتها ثورة عارمة تدعو الى التحلل من القديم صراحة او سراً • وكان معظم افرادها يدينون بعقائد غريبة دخيلة ، ويمارسون حياة ماجنة خليعة

يأباها الدين وتنكرها الاوضاع الاجتماعية • وكان غالب افرادها يتهمون بالزندقة ، ويتهاجون في ما بينهم بهجاء مقذع مفحش ، ينبو عنه الذوق وتأباه المروءة ، ويتحدثون في شعرهم عن حياة التبذل والتهتك والمجون التي كانوا يحيونها ، حديثاً صريحاً •

وكان هؤلاء الشعراء ثمرة من ثمار التفسخ والتحلل الذي اصاب الحياة في البلاد الأسلامية والعراق خاصة — في اواخر العصر الأموي — وكان طليعته ورائده الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الذي جاهر بالفجور وأعلن المجون والتهتك حتى قضى بذلك على نفسه ، والزم الحجة خصومه الذين تذرعوا بذلك الى خلعه وقتله •

ويبدو ان الامويين قد اهملوا في اواخر عهودهم الاهتمام بالبصرة والكوفة يأسا من الانتفاع بهما وبأهلهما ، فتركوهما نهباً لهزل الحياة مادام اهلوها من علويين وخوارج وزبيرية لا يشتغلون بالامور الجدية التي تقض مضجع الخليفة في دمشق او تهدد سلامة الدولة •

وعجيب هذا التجاوب النفسي بين الوليد بن يزيد وبين هذه الطوائف من أهل الظرف والمجون في الكوفة • الا نرى انه قد ضاقت عليه البلاد الاسلامية بما رحبت ، فلم يجد بغيته من الندماء الا في مجان اهل الكوفة امثال مطيع بن اياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية •

والظاهر ان القوم قد احسوا ان انقضاء ايام الامويين اذن لهم بمجال واسع ، يمارسون فيه الحياة العامة ، وقد كانوا محرومين من ذلك ، لان اغلبهم من الموالي ، ولكن ابا جعفر المنصور رماهم بخيبة الامل ، فرحلوا في ايامه عن بغداد طلباً للرزق فخرج يحيى بن زياد الى محمد بن العباس فمضى الى البصرة ، وخرج حماد عجرد اليها معه ، وعاد حماد الراوية الى الكوفة • ولم يقم في بغداد منهم الا مطيع بن اياس لانه كان يهوى فيها جارية لبعض النخاسين يقال لها ريم • وفي ذلك يقول :

لـولا مكانـك في مدينتهـم لظعنت في صحبي الألـى ظعنوا
اوطنـت بغـداداً بحبكـم وبغـيرها لولاكـم الـوطن[1]

وقد كان ابو جعفر المنصور ــ كما اشرنا الى ذلك من قبل ــ يقظـاً لما يحتمل ان يهدد دولته من الاخطار ، فلم يقـرب اليـه احداً مـن هذه الطائفة ، فانحاز بعضها الى الثائرين عليه ، فعل بشار بن برد الذي هجاه في القصيدة التي بعث بهما الى ابراهيم بن عبدالله بن الحسن . وقال فيها :

أبا جعفر[2] ما طول عيش بدائم ولا سـالم عمـا قليـل بسالم
على الملك الجبار يقتحـم الردى ويصرعـه في المـأزق المتلاحـم
كأنـك لم تسمع بقتل متـوج عظيم ولم تسمع بفتك الاعاجـم

الى ان يقول له :

فرم وزراً ينجيك يابن سلامة[3] فلسـت بناج من مضيم وضائم
لحـى الله قومـاً رأسوك عليهم وما زلت مرؤوساً خبيث المطاعم

ثم يقول في ابراهيم :

اقول لبسّـام عليه جـلالة غدا اريحياً عاشـقاً للمكـارم
من الفاطميين الدعاة الى الهدى جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم
... ...
اذا بلغ الرأي المشورة فاسـتعن بحـزم نصيح أو نصيحة حازم
ولاتجعل الشورى عليكغضاضةً فريـش الخوافي قوة للقـوادم

---

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٨٧ .
(٢ و (٣)وقد غير هذه القصيدة بعد انتصار ابي جعفر على ابراهيم فجعلها في هجاء ابي مسـلم الخراساني وجعل مكان « ابـا جعفر » (البيت الأول « أبا مسلم الخ . وجعل مكان « يابن سلامة » وهي أم ابي جعفر «يابن وشيكة» وهي أمابي مسلم .وحذف منها قوله «من لفاطميين»الخ.

ثم تنفس هؤلاء الصعداء بعد وفاة أبي جعفر المنصور ، ووجـدوا في عهد المهدي بعض الحرية ، فأقبلوا وأقبل غيرهم على بغداد يمتدحون الخليفة وينالون صلاته ، ويتمتعون في بغداد بألوان الحياة الجديدة التي لم يتحـرج المهدي ان يأخذ منها بنصيب وافر .

وقد كان من أمر هذه الطائفة من الشعراء ان اقلع بعضها عن المجون ، واتخذ لنفسه مسلكاً آخر لا يحرمه رضا الخلفاء كأبي العتاهية ، وانـــزوى بعضهم فخمل ذكره كحماد عجرد . واقام بعضهم على مجونه وتهتكه وفحشه كبشار بن برد في غالب احواله .

وقد كان للمهدي مع بشار خطوب ، فقد نهاه عن الغزل والتعـــرض للنساء بعد ان اشتكى اليه جماعة من اهل الدين ما كان يفعله من لقاء النساء في بيته وحديثه عن بعض علاقاته بالنساء ، حديثاً ماجناً خليعاً لا حياء فيه ولا تذمم ، ورووا له قصيدته الرائية التي يقول في اولها :

قد لامنـــي في خليلتـــي عمـــر   واللـــوم في غـــير كنهه ضجـــر
قال: أفق . قلت :لا ، فقال : بلى   قد شاع في الناس منكمـــا الخبر

ورائيته الاخرى التي اولها :

عجبـــت فطمـــة من نعتـــي لهـــا   أيجيـــد النعت مكفـــوف البصر
بنـــت عشـــر وثلاث قســـمت   بـــين غصـــن وكثيب وقمـــر

وهو يقص فيهمـــا حوادث فيها اغـــراء للنســـاء ، وفيهـــا تحـــريض على الخلاعة والمجون .

ثم بلغ المهدي انه زنديق ، وروي له من شعره في الزندقة ، فتعقبـــه ، وكأن بشاراً قد ضاق بذلك من المهدي ، بينما كان يرى غيره من الشـــعراء كمروان بن أبي حفصة وأبي العتاهية يحظون عنده وينالون العطاء الجزيل ، فهجاه هجاءً مقذعاً نمي اليه . فمن ذلك قوله فيه :

بنـــي أميـــة هبوا طال نومكـــم ان الخليفـــة يعقوب بـــن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين النـــاي والعـــود

ثم اتبع ذلك بهجاء فاحش قبيح نمسك عن روايته ، فيقال ان المهـــدي قصد البصرة ليقتله فقتله •

اما ابو العتاهية فقد كان اول امره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين ، ثـــم تطور به الامر شيئاً فشيئاً حتى نسك واتبع سبيل الزهاد ، وصار يقـــول الشعر في الحكمة والزهد وتذكير الناس بالموت وما بعده •

ويظهر انه كان بارعاً يتقن فن الحياة ، ويلبس لكل حال لبوسها ، فاتخذ لنفسه صنعة الزهد والنســـك وتستر بها ، وتـــرك ما كان عليه من التخنث والمجون ليحظى عند الخلفاء • ويدلنا على ذلك انه كان غنياً حريصـــاً على المال ، بخيلا شديد البخل مقتراً على عياله .•

واما ابو نواس فكانت شخصيته ذات وجهين ، فهو قد كان يحيا حياته الخاصة ماجناً خليعاً يتبتل للخمر ويتخنث لها ، ويأتي من ضروب اللذة مـــا يشاء • وكان في صلته بالخلفاء محافظاً يسلك سبيل المتقدمين من الشـــعراء ولا يفارق طريقتهم المألوفة في الشعر ، ما خلا علاقته بالامين وامتزاجـــه بـــه امتزاج ود وصفاء ، وهو في جانب آخر من شعره ثائر على القدماء ، يســـخر منهم ويستهزىء بهم ، ويدعو الى هجران طرائقهم واساليبهم في الشعر •

وقد كان ابو نواس خاتمة الفحول من هذه الطائفة ــ طائفة المجددين ــ ويبدو ان الحياة العباسية لم تعد تتسع لظهور غيره • ولعل من اســـباب ذلك ما يأتي :

اولاً ــ ان الخلاف الذي دب في البيت العباسي بين الامين والمأمـــون فانتهى بمقتل الامين قد خلع على الحياة مسحة من الجـــد والانقباض ، وان الحرب التي قامت بين الاخوين وما صحبها من اراقة للدماء وتخريب لمعـــالم

العمران في بغداد – قد ختمت عهد اللهو والمجون فيها الى حد بعيد او ضيقت من نطاقه تضييقاً كبيراً .

ثانياً – ان طبيعة المأمون كانت اميل الى جانب العلم منها الى الشعر واقرب الى طابع التفكير والمناظر والجدل منها الى اللهو والانس والعبث.

ثالثاً – ان الخلفاء شغلوا بعد ذلك بجد الامور في الغالب من المنازعات المستمرة على الخلافة بين الاب وابنه وبين الاخ واخيه ، والأخطار الخارجية التي كانت تتهدد ثغور البلاد الاسلامية .

رابعاً – ان الذين وزروا للخلفاء بعد المأمون كانوا من الاتراك الذين ليست لهم سابقة بالحضارة كالفرس ، ولم يقدر لهم ان ينالوا من ذوق المدينة على اختلاف مناحيها ذلك اللون البهيج المرح اللاهي الذي عهدناه في حياة بغداد .

وهكذا انطوت صفحة من حياة الشعر في بغداد كان فيها شيء كثير من الصدق والاصالة والتجديد ، وكان فيها تصوير للحياة الاجتماعية والعقلية والحضارية التي بدأت بالقرن الثاني الهجري وهو في واقع الحال بداية العصر العباسي[٤] .

ولقد كان لهذه الطائفة من الشعراء آثارها الخطيرة في الشعر وتراثها القيم في تاريخه ، وقد ألمنا بأهم خصائص مذهبها في اول هذا الفصل .

٢ – المتفننون

وكانت الطائفة الثانية من الشعراء هي الطائفة التي عنيت بفن الشعر عناية ملحوظة ، فلم يغلب المجون في نظرتها اليه ، ولم تحاول ان تغامر فيه

---

(٤) الدكتور طه حسين في ذكرى أبي العلاء والاستاذ احمد الشايب في العصور العباسية .

مغامرة الطائفة الاولى ، فتقطع ما بينه وبين القديم او تتحول به عن وظيفتـه القديمة في الحياة العربية وهي التعبير عن المشاعر والافكار في آن واحد .

وهذه الطائفة من الشعراء هي طائفة المتفننين الذين كانوا يعرفون للفن الشعري حقه ، فيعنون بالصورة التعبيرية والمعنى الجزئي ، مع المحـافظة على المقاييس الفنية المألوفة في الشعر من جزالة العبارة ورصانة الاسـلوب ومراعاة الوقار الفني للشعر .

وكانت هذه الطائفة من الشعراء استمراراً لقديم الشعر ومحافظة عليه، وعناية به ، بل كانت في حقيقة امرها ثمرة لواقع البيئة البغدادية التي استندت في تجديد الشعر الى الثروة التي ورثتها من الرواية والميل الشديد الـى مدارسه القديم والعناية به ، واتخاذ ذلـك الاساس الاول من الذي قامت عليه حياة الشعر في بغداد .

ولم تكن هذه الطائفة تسلك سبيلا غير ممهدة ولا مطروقة ، بل لقـد مهد لها سبيل التفنن في الاسلوب والزخرفة في التعبير من عرف في تاريـخ الشعر العربي بساقة الشعراء ، وهم ابن هرمة وابن ميادة وبشار بن بـرد وهؤلاء ايضا احلاف في الصناعة لمن كانوا يعرفون في الجاهلية بعبيد الشعر كزهير بن ابي سلمى ومن اقتفى طريقته في الشعر .

ولقد كانت هذه الطريق معروفة عند القدماء يسلكونها عفواً بلا قصد ولا تعمد لأنهم كانوا يطلبون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، ولم يكونوا يحفلون بالابداع والاستعارة وما الى ذلك وانما كان يتأتـي لهم ذلك وانما يتأتى لهم ذلك عفواً في خلال القصائد[٥] .

اما أثر بغداد في هذا المذهب ــ ان صح أن يدعى مذهبا ــ فهو أثـر الحضارة بزخرفتها وزينتها وعنايتها بجمال المظهر وتناسقه .

---

(٥) يراجع في ذلك كتـاب الوساطـة بين المتنبي وخصومه لعبد العزيز الجرجاني ص ٣٧ والعمدة لابن رشيق ص ٨٣ .

وكما أثرت مدنيتها وحضارتها في النـاس أو طائفة منهم ، فغـيرت في مظاهرهم وفي أساليب حياتهم ، فقد أثرت في الشعر من هذه الناحية فحضرته واخرجته من بداوتـه التي كان عليها ، واخضـعته لمقاييس الحضارة التي عمادها الذوق السليم والاناقة والاتساق والانسجام .

وثمة امر آخر له خطورته وله شأنه في نشأة هذا المذهب وفي تمكنـه من حياة الشعر كان لبغداد فيه الاثر الاكبر ، وهو ان الحياة العباسية لم تشأ ان تكون ثورة على الحياة العربية وانقلابا فيها لا يبقي ولا يذر ، يزلـزل الماضي من قواعده ، ويحيله انقاضا واطلالا لا تصلح لشيء ، كما اراد الاعاجم ان تكون ، وانما كانت الحياة العباسية تحمل في ثناياها يقظة وتنبها بالغين الى الحفاظ على جوهر الحياة العربية الاسلامية ، مع الاخذ بالتطور والتـدرج في الانتقال والتحول . وكانت غلبة الاعاجم عليها غلبة موقوتة ، لم يلبـث الخلفاء ان ادركوا خطرها قبل ان تؤذن بانقلاب يحيل الحياة العباسـية حياة اعجمية كسروية .

وكان للنزعة العربية التي حمل لواءها امراء الجيش وقواده من العرب — كمعن بن زائدة الشيباني واسرته ، وابي دلف القاسم بن عيسى وحميد ابن عبدالحميد الطوسي معنى اليقظة البالغة والهجوم المقابل — كمـا نقول اليوم — على النزعة الشعوبية العارمة في اول ايام الدولة العباسية . وقد نشأ في كنف هؤلاء جماعة من شعراء هذه الطائفة ، فكان مسلم بن الوليد وهـو من اخطرهم شأنا من المنقطعين الى يزيد بن مزيد الشيباني ، وكان ابوتمام — وهو غاية ما بلغته هذه الطائفة — ذا علاقـة وثيقـة بأبي دلف وحميـد الطوسي .

ويمكن القول ان هذه الطائفة من الشعراء كانت ذات طابعين متقابلين في حياة الشعر وتاريخه ، طابع المحافظـة على قديمه والاحتفاظ بأصـوله ، وطابع التجديد بالقدر الذي تقتضيه الحضارة في هذا العصر وفي هذه البيئة.

ولعل من اليسير الواضح بعد ذلك ان يدرك الباحث ان هذه الوجهة في الشعر وهذه الطـائفـة من الشعراء هي التي وجدت من اسباب البقاء والاستمرار ما جعلها هي المتغلبة في اخر الامر ، وهي التي تحكمت في الشعر العربي الى يومنا هذا .

ولامراءفي ان طبيعة الشعر العربي وماضيه الطويل وتقاليده العريقـة ووظيفته في الحياة العربية منذ اقدم عصوره ، قد اعان على تغلب هـــذه الوجهة على الشعر وعلى غلبة هذه الطائفة واستئثارها بالبقاء والاستمرار .

وتلك حقيقة تاريخية تقفنا على ان الفن في جوهره وفي طبيعته يستطيع ان يقف لمـا يعصف به من القوى ، حتى اذا انحسـرت عنه بقي محتفظـا بجوهره وبمقوماته . ولقد ارادت الطائفة الاولى من الشعراء ان تجعل الشعر العربي شعر غناء ولهو وخمر وترف ، وان تخضعـه لما ارادت من تحول في حياة ذلك العصر ، وان تنسيه قديمه الذيكان فيه جماع الفكر العـربي ، فأبت طبيعة الشعر العربي ذلك وتمسكت بأصوله الاولى ، راضية ان يتأثر من الحضارة بالقدر الذي لا يخرجه عن مألوف سبيله ، فكان التجديــد تجديدا في صور التعبير وفي ابتكار المعاني الجزئية وتفننا في الصياغة وابداعا فيها ، مع الاحتفاظ بالمعدن سليما في جوهره غير مزيف ولا مخلوط بشـيء غريب عليه .

ولقد كان القصد الى التفنن ، وهو الذي عرف من بعد بالبديع ، ظاهرة من الظواهر التي عرفت عند المولدين ، كما ذكر بعض مؤرخي الشـــعر العربي ونقاده ، فهو من هذه الوجهة حضري النشأة او هو بعبارة ادق قــد اصبح حاجة من حاج الحضارة الجديدة ولونا من الوان المدنية التي انتظمت الحياة العباسيةفي مظاهرها المختلفة ثم تغلب علىالشعر وتمكن منه بعد ذلك.

ورأس المولدين الذين فتحوا للشعر باب البديع واكثروا منه فيشعرهم ابن هرمة وبشار .

فكان ابن هرمة ربما عني باظهار براعته في النظم وقدرته في الصناعة فجعل قصيدته كلها على الحروف المهملة كما في ابياته التي رواها صاحب الاغاني (٦) واولها :

أرسم سودة أمسى دارس الطلل ... معطلاً ردّه الاحوال كالحلل

واذا صحت نسبة هذه الابيات اليه ، فان فيها دليلا على ان الشعراء قد اخذوا في التصنع ومالوا عن الطبع والسجية الى التكلف والتعمل . وتلك سيئة من سيئات البديع كما نعرف في العصور الادبية المتأخرة .

والى جانب ابن هرمة كان بشار ، وهو ممن طلب البديع وتكلفه وصنع الشعر وتعمله ، فجعل الصور البيانية قواما لشعره وضرورة من ضروراته .

ثم احتذى حذوهما في البديع كلثوم بن عمرو العتابي ، وهو في نظر الجاحظ امام هذا المذهب ومقلده ومقتدى الشعراء فيه . يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته ابو عمرو ، وعلى الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ، كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد الانصاري واشباههما »(٧)

وقد تقسم بشار بن برد ثلاث نزعات ، نزعة تجديد تأثر فيها ببيئته

وقد تقسم بشار بن برد ثلاث نزعات ، نزعة تجديد تأثر فيها بيئته بالبصرة فطرق الموضوعات الجديدة كالهجاء المقذع الساخر والغزل غير العفيف ، وعبر في شعره عن معان كلامية وفلسفية كما سبق ان اشرنا الى ذلك من قبل . ونزعة محافظة اقتضتها نشأته البدوية الاولى في حجور بني عقيل وبين اشياخهم الفصحاء ، فكان يحسن الابتداء على طريقة الجاهليين فيخاطب الطلل ويقف عند الآثار .

---

(٦) الأغاني جـ ٤ ص ١٠٦ .
(٧) الاغاني جـ ٣ ص ٢٥ .

ونزعة وسط كان يسلك فيها مسالك اهل الفن من الشعراء الذين يلتزمون اصول الشعر الاولى ويتأثرون بالحضارة في الزخرفة البيانية والعناية بالصورة وتجميلها بالاسلوب وتحسينه •

ومن اجل ذلك كان النقاد يعجبون بتصرفه في فنون الشعر جدها وهزلها • ولعلهم كانوا يعنون بالهزل طريقة المجان السادرين من الشعراء ، وبالجد طريقة القدماء المحافظين منهم • وقد فضله الاصمعي على مروان بن ابي حفصة فسئل عن السبب فقال : « لان مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك واحسن فيه وتفرد به ، وهو اكثر تصرفا وفنون شعر واغزر واوسع بديعا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل[٧] •

ومن هنا كان بشار علما من اعلام الشعر العربي ، ومن هنا كانت قيمته في تاريخ هذا الشعر ، ذلك لانه — في ما يظهر — يصور المراحل التي تطعها الشعر في تطوره من البداوة الى الاندفاع في تيار الحضارة ، الى الاعتدال والقصد في التأثر بها •

فقد نشأ في حجور بني عقيل مواليه ، وهنالك بدأ قول الشعر فكان مذهبه فيه اول الامر مذهب القدماء • ثم عاش في البصرة فتأثر بالبيئة واتصل بالمجان والزنادقة تارة ، وبالمتكلمين من المعتزلة وغيرهم تارة اخرى ، فكانت في شعره صورة تلك الحياة الصاخبة النشيطة ، فسلك مسلك المجددين الثائرين في شعره وقتا ما • ثم اتصل بالخلافة وساير الاتجاه العام في البيئة البغدادية • فكان رأس المتفننين الذين يطلبون البديع طلبا ويقصدون اليه قصدا •

واحسب انه اتخذ هذه الوجهة — وجهة المتفننين في الشعر — آخر ما اتخذ من المسالك والمذاهب •

---

(٧) الاغاني ج ٣ ص ٢٥ •

وقد اعانه على ان يسلك هذه المسالك كلها ، وان يذهب هذه المذاهب فيبرز فيها ، طبعه الفياض الذي تحدث عنه نقاده ومؤرخوه ، الذي كان يسعفه بفيض عجيب من الشعر ، حتى لم يستطع احد ان يجمعه وان يحيط به.

وقد اضطرب بشار في مذهبه الشعري اضطرابه في عقيدته ، وكما خلط هناك وتخبط ، فقد تنقل هنا بين الطرائق فلم يتخذ منها واحدة يبلغ بها منزلته التي يستحقها بين الشعراء .

وكان العتابي مثل بشار من اهل الصناعتين : صناعة الشعر وصناعة النثر ، وكان يجمع بين الخطابة والشعر الجيد والنثر المترسل . وقد مهد له ذلك طريق البديع كما مهد لبشار من قبله ، لان في البديع صناعة وروية ، واعمال فكر وقصدا الى استخراج الصور الجميلة ، وله مدخل في التصنع والتعمل من غير شك . وممارسة الكتابة والرسائل تعين على اعمال الفكر والقصد الى استخراج المعاني اللطيفة التي يرمي بها الكاتب الى التأثير في نفس قارئه . واحسب انه كان لهذه الصناعة اثرها في سلوك العتابي هذا المسلك ، لان الروية واعمال الفكر تصبح عند الكاتب المترسل اشبه شيء بالسليقة يستطيع ان يستخدمها متى شاء فتستجيب له وتطاوعه .

وقد لحظ فريق من القدماء في شعر العتابي التكلف(٨) ، وادركوا انه يختلف فيه عن المطبوعين الذين ينطلقون على سجيتهم . لانه كان يطلب الصورة الجميلة ويتعمد استخراجها في شعره ، فيأتي فيه بالجديد الذي لا تخفى جدته على الناقد ، ولا يغيب عنه ما يبذله فيه من جهد .

اما مسلم بن الوليد فقد كان قمة ما وصل اليه التفنن في الشعر . فقد بلغ بالفن الشعري ان جعله لا يكاد يخلو من صورة بيانية بديعة ، وجمع في شعره بين مواتاة الطبع واحكام الصنعة حتى ليلتبس الامر على قارىء شعره فلا يعرف فيه موطن الصناعة الا ان يرجع البصر فيه كرتين .

---

(٨) الاغاني ج ١٢ ص ٢ .

واحسب ان مسلما قد بلغ بالبديع قريبا من الكمال بذلك ، اذ ادخله بفنونه المختلفة في شعره ، ولم يصل به الى درجة التكلف الذي ظهر في بعض من شعر ابي تمام •

واما ابو تمام فقد اتخذ من البديع وسيلته الاولى في الشعر وطريقته المثلى في التعبير ، فكان يحشد في كل جزء من شعره ما شاء من الوانه المختلفة حتى كاد بعض شعره يستحيل الى شبيه ما يعرف في عصرنا بالمذهب الرمزي، لشيوع المجاز والاستعارة والكناية فيه شيوعا طغى حتى بلغ مبلغ التعقيد • وفي ذلك ما فيه من اجهاد لذهن القارىء وخياله ، اجهادا به الى العناء الشديد في تذوق الشعر وفي ادراك مواطن الجمال فيه •

لقد كان ابو تمام في شعره مرحلة جديدة من مراحل الفن الذي عرف بالبديع ، فقد انتقل به من القصد والتوسط الى الايغال والتعقد ، فأصبح من بعض الوجوه شيئا غريبا على اذواق النقاد ، ووجدوا فيه خروجا على طريقة الشعر المألوفة في التعبير وانحرافا عن عمود الشعر كما يقولون •

واقع الحال ان ليس في طريقة ابي تمام شيء من ذلك لو تعمقنا طريقته وتفهمناها على حقيقتها ، وانما هو اندفاع عبقري وقدرة فائقة عجيبة على استخراج الصور التعبيرية واستنباط المعاني الجديدة ، متتابعة متراكبة ، لا يسهل ادراكها او متابعتها الا على متذوق ماهر ، له من صناعة الشعر نصيب ، وله فيها ممارسة •

ودليل ذلك ان ابا تمام حين يخفف من غلوائه ، ويقصد في تركيب صوره وتعقيدها يصبح قريبا جدّ القرب من اذواق النقاد ، وبخاصة من يولع منهم بالقديم • وقد سمع عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير شعر ابي تمام فاستحسنه ، وعمارة بدوي يعيش بفكرة وذوقه وشعره في عصر غير عصر ابي تمام •

روى صاحب الاغاني بسنده عن عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، قال :

كان عمـارة بن عقيل عندنا يومـا فسمع مؤدبا كان لولد اخـي يرويهم قصيدة ابي تمام :

الحـق أبلج والسـيوف عوار فحذار من أسـد العرين حـذار

فلما بلغ الى قوله :

سود اللبـاس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعـاً من قار
بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجـار
لا يبرحون ومن رآهم خالهـم ابـدا على سـفر من الاسـفار

قال عمارة : « لله دره ما يعتمد معنى الا اصاب احسنه كأنه موقوف عليه[٩] ».

وهذا كلام شاعر يحس كيف يصيب الشاعر غرضه ، وكيف يعرض له المعنى فيحاوله حتى يصيبه ، فاما ان يوفق الى اظهاره في احسن صورة او لا يوفق ، وذلك مقياس البراعة والتجويد .

وقدم عمارة بن عقيل بغداد فاجتمع الناس اليه فكتبوا شعره وشـعر ابيه ، وعرضوا عليه الاشعار ، فقال بعضهم : « ههنا شاعر يزعم انه اشـعر الناس طراً ، ويزعم غيره ضد ذلك » فقال : « انشدوني قوله » فأنشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعـاد قتـادا عندهـا كل مـرقد
وأنقذهـا من غمـرة المـوت أنـه صـدود فـراق لا فـراق تعمـد
فاجرى لها الاشفاق دمعـا مورّدا من الدم يجري فوق خـدّ مورّد
هي البـدر يغنيهـا تودّد وجههـا الـى كل من لاقـت وان لم تودّد

ثم قطع المنشد . فقال له عمارة : « زدنا من هذا » . فواصل نشيده :

ولكنني لم أحوِ وفراً مجمّعـا ففـزت بـه الا بشـمل مبدّد

---

(٩) الاغـاني جـ ١٥ ص ٩٨ . ورواها ايضا الصولي في اخبار ابي تمـام ص ٩٥ ـ ٩٦ .

ولم تعطني الايام نوماً مسكّناً   ألــذ بــه الا لنــــوم مشــرد

فقال عمارة : « لله دره ، لقد تقدم في معنى من سبقه اليه ، على كثـرة القول فيه حتى لقد حبب الاغتراب ، هيه » • فأنشده :

وطول مقام المرء في الحيّ مخلق   لديبــاجتيه فاغتــرب تتجــدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة   الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

فقال عمارة : « كمل والله • لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحســن المعاني، واطراد المراد، واتساق الكلام، فان صاحبكم هذا اشعر الناس »(١٠)•

ويعنينا هنا من كلام عمارة ان ابا تمام مبتكر للمعاني حقا ، او ملبس للمطروق منها ثوبا جديدا يجعلها كالمبتكرة ، وهو يحسن تقسيم الكــلام وانتقاء الالفاظ ، ويصيب مراده من المعنى • وليس في كلام عمارة ما يـدل على انه كان يحس في شعر أبي تمام هذا الذي زعمه النقاد من بعده خروجاً على الطريقة المألوفة في الشعر وانحرافا عن عموده

❋ ❋ ❋

وجملة ما يقال في هذه الطـائفة من الشعراء أنهم لم يكونوا مجددين بالمعنى الواسع للتجديد ، وانما كانوا مجددين في الأجزاء ، فهم لم يتعمدوا نظام القصيدة بتحوير او تبديل ، كما فعلــت الطائفة الأولى ، ولم يكثروا من النـظم في الأوزان القصيرة ، ولا حاولــوا في أسلوب الشعر طريقة غير مألوفة فيه • وانما انصب اجتهادهم في ابتكار المعاني وتجويد الصور واخراج تلك المعاني في حلل بيانية مزخرفة منمقة • وجروا على سنن الأقدمين فيمـا سوى ذلك ، واحتفظوا للشــعر بتقاليده التي لم يجـد عنها محيصـاً حتى يومنا هذا •

---

(١٠) الأغاني ج ١٥ ص ٩٧ . واخبار ابي تمام للصولي ص ٥٩ — ٦١ •

٣ ـ المقلدون

أما الطائفة الثالثة فكانت طائفة المقلدين الذين جروا في مضمار الأقدمين من دون أن يتأثروا في قليل أو كثير ، فما حاولوا أن يبدعوا أو يبتكروا ، ولا أضافوا الى الشعر شيئاً مما أضافته الطائفتان الأوليان •ولولا ما ذكروه في شعرهم من الأعلام العباسية لما أمكننا أن نستدل على عصرهم، ولجاز أن يتوهم دارس شعرهم أنه قيل في العصر الأموي أو في العصر الجاهلي •

وهؤلاء ظهروا في شعر بغداد في أوانين مختلفين ، ظهر بعضهم في أوائل العصر العباسي فكان امتدادا لطبقة الفحول من شعراء العراق ، ومن أولئك مروان ابن أبي حفصة الذي كان من شعراء الأمويين ، وقد مدحهم واتصل بهم اتصالا وثيقا • ويبدو أنه عاش في العصر العباسي بجسمه ومصلحته ، لا بعقله ولا بعاطفته وشعوره •

وكان مروان يعتبر في نظر بعض النقاد نداً لبشار ، يوازنون بينهما ، ومنهم من كان يفضله على بشار ويقدمه عليه « لأنه أشد استواء شعر منه[11] » ، ولأن معيار التفضيل والتقديم في نظره أن يشبه الشاعر في مذهبه وفي طريقته مذاهب العرب « وكلام مروان ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها[12] » •

وظهرت طائفة من هؤلاء المقلدين ــ وهم الذين يعنينا أن نقف عندهم ــ في وسط الحقبة التي نبحث فيها من العصر العباسي متأثرة بالنزعة العربية التي رعاها أمراء الجيوش من العرب ، مجاراة للنقاد الذين واجهوا التجديد في الشعر بثورة وعنف ، واستجابة للحركة العلمية التي قامت على احياء القديم ومدارسته وروايته وتذوقه •

---

(١١) و (١٢) الاغاني جـ ٣ ص ٢٨ .

وكانت هذه الحركة قد بلغت ذروتها في أوائل القرن الثالث فأخرجت كتب الجاحظ وابن قتيبة وكتاب الكامل لأبي العباس المبرد وأمالي ثعلب في مجالسه وغير ذلك من آثار العلماء في اللغة والنحو وعلوم الأدب .

وكان من هذه الطائفة اسحق بن ابراهيم الموصلي في بعض شعره ، فقد كان ينهج احياناً منهج الأعراب ويقول الشعر على طريقتهم فينسبه اليهم، وكان اسحق يتشبه بذي الرمة ويقول على لسانه شعرا وينسبه اليه فلا يشك أحد في ذلك ولا يفطن الى حقيقة الأمر(١٣) .

فمن ذلك قوله :

ومدرجة للريح تيهاء لم تكن ليجشمها زمّيلة غير حازم
يضل بها الساري وان كان هاديا وتقطع أنفاس الرياح النواسم
تعسفت أفري جوزها بشملة بعيدة ما بين القَرا والمناسم
كأن شدار المرو من نبذها به نجوم هوت اخرى الليالي العواتم

وكان اسحق يقول الرجز أيضا تشبهاً بالقدماء فمن ذلك ما أنشده الفضل بن الربيع لما دخل عليه حفيده عبدالله بن العباس بن الفضل وهو طفل مات أبوه :

مدّ لك الله الحياة مدّا حتى يكون ابنك هذا جدّا
مؤزرا بمجده مردّى ثم يفدّى مثلما تفدّى
أشبه منك سنة وجدّا وشيماً مرضية ومجدا
كأنه أنت اذا تبدّى شمائلاً محمودة وقدّا

ولعل علم اسحق وروايته وما أخذه من علوم عصره هي التي جعلته شديد الاعجاب بالقديم يسلك سبيله ليدل بذلك على براعة وقدرة فائقة وعلم غزير وحفظ واسع . وقد تحدث اسحق عن تحصيله العلم فقال :

---

(١٣) الأغاني جـ ٥ ص ١٠٣ .

« بقيت دهرا أغلس كل يوم الى هشيم فأسمع منه ، ثم أصير الى الكسائي أو الفراء أو ابن غزالة فأقرأ عليه جزءا من القرآن ، ثم آتي منصورا زلزلا فيضاربني طرفين أو ثلاثة ، ثم آتي عاتكة بنت شهدة فآخذ منها صوتا أو صوتين ، ثم آتي الأصمعي وأبا عبيدة فأناشدهما وأحدثهما فأستفيد منهما» (١٤) .

ولعل من أسباب ذلك أيضا أن اسحق كان عربي النزعة عربي الولاء. وقد فخر بولائه هذا فقال :

اذا مضر الحمراء كانت ارومتي وقام بنصري خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداي الثريا قاعداً غير قائم

وكان بعض المقلدين شعراء من البدو ، يقدمون بغداد لينشدوا الخلفاء مديحهم ويحظوا بجوائزهم كعمارة بن عقيل وأبي العميثل .

وكان عمارة يقدم على المأمون فينشده شعرا مليئاً بالغريب لايكاد المأمون يفهمه . روى أبو الفرج عن النخعي قال:

« لما قدم عمارة بغداد قال « كلم لي المأمون ، وكان النخعي من ندماء المأمون ، قال : فما زلت اكلّمه حتى أوصلته اليه فأنشده هذه القصيدة :

حتام قلبك بالحسان موكّل كلف بهنّ وهنّ عنه ذهّل

فلما فرغ قال لي : يانخعي ما أدري أكثر ما قال . وقد أمرت له لكلامك بعشرين ألفا(١٥) .

وكان عمارة هذا يقيم ببادية البصرة ويزور الخلفاء في بغداد . وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللغة .

أما أبو العميثل فقد ولد في البدو ونشأ في البادية ، وكان في بني القين

---

(١٤) الأغاني جـ ٥ ص ٥٠ .
(١٥) الأغاني جـ ٢ ص ١٨٦ .

ابن جسر • وكان المأمون يقدمه ويقول فيه «هو أشعر عندي من جرير[١٦]» •

وقد أعان على بقاء القديم أمور يتصل بعضها بالحياة العلمية وبعضها بالحياة الاجتماعية •

فأما ما يتصل بالحياة العلمية ، فما ألمحنا اليه من مدارسة القديم وروايته ، وقد كان الرواة والنقاد ، يفضلون المقلدين في الأغلب وينصرونهم على المجددين • فقد كان ابن الاعرابي يخم الشعراء بمروان بن أبي حفصة، ولم يدون لأحد بعده شعرا[١٧] •

وكان أبو العباس المبرد يقول : « ختمت الفصاحة في المحدثين بعمارة ابن عقيل[١٨] •

وأما ما يتصل بالحياة الاجتماعية فقد مر الكلام عليه في الفصول السابقة ، وهو تلك النزعة التي كانت تظهرا أحياناً عند الخلفاء من الحرص على العروبة والاحتفاظ بطابعها في الحياة العباسية ، وما كان يبدو على امراء الجيوش من العرب من محافظة على التراث العربي في التقاليد الاجتماعية وفي الشعر ، فقربوا إليهم طائفة من الشعراء مدحوهم برفعة الأنساب ، وتحدثوا عن مجد أسرهم وقبائلهم ، وأحيوا بذلك بعض تقاليد المجتمع الأموي والجاهلي • من هؤلاء الشعراء بكر بن النطاح الحنفي ومروان بن أبي حفصة وعلي بن جبلة العكّوك وغيرهم •

* * *

وبعد فهذا عرض للمذاهب التي كان عليها الشعر في بغداد ، ولطوائف الشعراء فيها عرضا موجزا عاماً، لم نشأ أن نتحدث فيه عما أحدثه كل مذهب وكل

---

(١٦) تاريخ بغداد لطيفور ص ٣٠٦ — ٣٠٧ •

(١٧) الأغاني جـ ٩ ص ٤٣ •

(١٨) الأغاني جـ ٢٠ ص ١٨٣ •

طائفة في الشعر وعما كان يتميز به اتجاهه فيه ، وانما عنينا بأهم الخصائص العامة ، وبتقسيم الشعراء طوائف تتسم كل منها بالسمة التي غلبت عليها وانطبع شعرها بطابعها .

وليس يعني ذلك بطبيعة الحال أن التداخل بين هذه الطوائف غير قائم ولا كائن ، بل لقد كان هذا التداخل ملحوظا في وضوح عند بعض الشعراء أمثال بشار بن برد الذي كان يجمع في شعره بين الوجهات الثلاث التي تحدثنا عنها ، وكأبي نواس الذي جمع بين التجديد والتقليد في شعره ، وكدعبل بن علي الخزاعي الذي تلمذ لمسلم بن الوليد فتأثر به أول الأمر ، ثم خرج عليه وعاد الى تقليد القدماء واتباع طريقهم .

أما تفصيل ما أحدثه في الشعر المحدثون في الموضوع وفي الأسلوب فهو موضوع ما سيأتي من البحث ان شاء الله .

* * *

الباب الخامس

مظاهر التجـديد

تمهيد

كان القرن الثاني للهجرة قرن التجديد في الشعر بحق ، حتى كأن العوامل التي خلقت هذا التجديد قد اجتمعت وتضافرت من كل مكان لتحدث ذلك في الشعر العربي .

وكان بعض هذه العوامل مما يصح ان يوصف بأنه قسري لا مفر منه، وبعضها ضرورة من ضرورات التطور في الحياة الجديدة ، وانا اعني ان افرق بين هذين الضربين من العوامل . فأما الضرب الأول فهو الذي نزل عنده الشعر ـ مكرهاً ـ من عليائه . ولو تمثل شخصا يرضى ويغضب ، ويقبل ويرفض ، لغضب وما رضي ، ولرفض وما قبل . وذلك إثر غلبة الاعاجم على الحياة ، وما اقتضت ان يضحي الشعر من اصوله الفنية الاولى في سبيلهم ، فيغير في اسلوبه ويهجر بعض مجالاته ، ويعتدي على تقاليده الفنية الاولى اعتداء ابي نواس ونحو ذلك .

واما الذي احسب انه ضرورة من ضرورات التطور في الحياة ، فهو تأثره بالحضارة في اسلوبه وفي افكاره تأثرا افضى الى شيء من التجديد مليح مقبول معتدل ، لم يجنح الى الثورة على قديم هذا الفن ولم يتخذ منه اداة للهزل والمجون وينزل به عن سامي منزلته عند العرب ، الى التراشق الماجن البذيء والحديث المتهتك عن الشهوة الجنسية والخمر .

وقد بحثنا في عوامل التجدد ودواعيه فيما سلف ، فلا حاجة بنا الى اعادة القول فيها ، ونريد في هذا الباب ان نستعرض من مظاهر التجديد اهمها وادناها الى طبيعة هذا البحث المتسع المتشعب الاطراف . وسنقسم مظاهر التجديد في الشعر قسمين : الاول يتصل بالموضوع والفكرة ، والثاني يتعلق بالصورة والاسلوب .

على ان ذلك لا يعني ان الفصل بين هذين هو الطريقة السليمة في البحث الادبي ، وانما الصواب ان يدرك الباحث انهما اشبه واولى ان يعدا وحدة لا انفصال بين جزئيهما • ولكن طبيعة التقسيم المنهجي تقضي بذلك ولا مناص منها •

على ان الصلة بين الاسلوب والفكرة ستراعى كل المراعاة في هذا البحث ، وسنرى ان تأثر الاسلوب بأي مؤثر من الحياة الاجتماعية او العقلية او الحضارية انما يصحبه تأثر في الفكرة وفي المعنى ، كما سيأتي بيان ذلك في اثناء البحث •

وسيكون الكلام على الافكار والمعاني اعم من ان يتناول المعاني الجزئية فهي اخلق بدراسة شخصيات الشعراء او الفنون الشعرية • وستكون دراسة الافكار العامة في الشعر هي موضع العناية والبحث •

كما ان الكلام على الاسلوب سينصب على الصفات العامة ولن يكون من هم هذا البحث ان يتتبع الخصائص الجزئية فيه •

* * *

الفصل الاول

الجـديـد في الموضوع

لقد قضت عوامل التطور والتحول في حياة بغداد ان تجد في الشعر موضوعات لم تكن معروفة للشعر العربي من قبل ، وان تتطور فيه موضوعات اخرى كان الشعراء يتناولونها من قبل بطريقة مختلفة •

١ ــ الهجاء

فقد كان من قبل نقائض طويلة في الغالب ، يكون مدار الكلام فيها على النيل من شرف المهجو ، وتلمّس مواطن الضعف فيه صدقا او تصنعا ، وثلب اسرته وعشيرته وذويه والانتقاص منهم •

وكانت المقاييس التي يستند اليها الشعراء في ذلك هي المقاييس الخلقية والاجتماعية المألوفة عند العرب ، كالكرم والشجاعة والذود عن الكرامة والعفة والايثار ، وغير ذلك مما هو معروف مشهور •

وفي نقائض الفحول جرير والفرزدق والاخطل والراعي وغيرهم صور واضحة لها دلالتها على ما نقول •

فما ان دخل القرن الثاني للهجرة ، واصبح المتهتكون من الموالي هم أولي التأثير الفعال في توجيه الشعر ، تحول الهجاء من هذه المعاني المألوفة الى الافحاش والاستهزاء وقذف الاعراض والامعان في البذاءة امعانا يصل

في بعض الاحيان الى حد يتحرج الباحث من روايته . وهبط ذلك بقيمة الشعر فأصبح وهو ليس من الفن في شيء ، وانما هو في بعض صوره ليس الا مجموعة من الفاظ السباب والبذاءة لفق بعضها الى بعض ، وليس فيها من صفات الشعر الا الوزن والقافية .

وكان فرسان هذه الحلبة وطليعتها أولئك الشعراء الذين كانوا يجتمعون في البصرة وفي الكوفة على الشراب ، ويتناشدون الشعر ويهجو بعضهم بعضا ويرمى كلهم بالزندقة . وابرز هؤلاء واشهرهم بشار بن برد وحماد عجرد وابو الشمقمق .

ولبشار في حماد وفي غيره اهاج مقذعة لا سبيل لهذا البحث الى روايتها . ويبدو انه كان يحمل على الاقذاع فيها كرها في بعض الاحيان .

ومن اهاجيه التي تستجاد روايتها في مثل هذا البحث قوله في حماد حين اتخذه بعض الأمراء مؤدبا . فقال بشار يحذره من حماد :

قل للامير جزاك الله صالحة ... لا تجمع الدهر بين السخل والذيب
السخل غرٌ وهمّ الذئب فرصته ... والذئب يعرف مافي السخل من طيب

وقوله فيه أيضا يخاطب ذلك الأمير :

يا ابا الفضل لا تنم ... وقع الذئب في الغنم
ان حماد عجرد ... ان رأى غفلة هجم
.... السخ

وقال في حماد أيضا بعد أن مات يعزي به صاحباً له اسمه حريب وكان يدين مثله بمذهب الثنوية .

بكى حريب فو ّقره بتعزية ... مات ابن نهبى وقد كانا شريكين
تفاوضا حين شابا في نسائهما ... .

أمسى حريب بما أسدى له غيرا ... كراكب اثنين يرجو قوّة اثنين
حتى اذا أخذا في غير وجههما ... تفرقا وهوى بين الطريقين

وهكذا أصبحنا نرى في الهجاء من يتناول العقائد ويتخذها من طرف خفي ذريعة للايقاع بالمهجو لدى السلطان • قال بشار يهجو حمادا أيضا :

ابن نهبى رأسي علي ثقيل ... واحتمال الرؤوس خطب جليل
ادع غيري الى عبادة الاثنيـ ... ـن فإني بواحد مشغول

وقال يهجو عبد الكريم بن أبي العوجاء :

قلت عبدالكريم يا ابن ابي العو ... جاء بعت الاسلام بالكفر بوقا
لا تصلي ولا تصوم فإن صمـ ... ـت فبعض النهار صوما رقيقا
لا تبالي اذا اصبت من الخمـ ... ـر عتيقا ان لا تكون عتيقا

وكان حماد يفعل مثل ذلك ببشار فيهجوه هجاء مرّاً ، ويرميه بالزندقة والفجور ويستعدي عليه السلطان من اجل ذلك • وينعته بالكلب والخنزير فمن ذلك قوله :

قل لعيسى الامير عيسى بن عمرو ... ذي المساعي العظام في قحطان
والبناء العالي الذي طال حتى ... قصرت دونه يدا كل بان
يا ابن عمرو عمرو المكارم والتقـ ... ـوى وعمرو الندى وعمرو الطعان
لك جار بالمصر لم يجعل الله (م) ... له منك حرمة الجيران
لا يصلّي ولا يصوم ولا يقـ ... ـرأ حرفا من محكم القرآن
انما معدن الزناة من السفلة ... في بيته ومأوى الزواني
وهو خدن الصبيان وهو ابن ... سبعين فماذا يهوى من الصبيان
طهّر المصر منه يا ايها المو ... لى المسمّى بالعدل والاحسان
وتقرّب بذاك فيه الى الله ... تفز منه فوز أهل الجنان
يا ابن برد اخسأ اليك فمثل الـ ... ـكلب في الناس أنت ، لا الانسان

ولعمري لانت شر من الكلـ ... ب واولى منه بكل هوان

وقد بلغ المجون والتبذل بالقوم الى مثل ماقال أبو الشمقمق في الهجاء :

الطريق الطريق جاءكم الا ... حمق رأس الأتان والقذرة
وابن عم الحمار في صورة الـ ... فيل وخال الجاموس والبقرة

ولو كان هذا اللون من الهجاء هو كل ماأعقبه المجددون الثائرون من الشعراء لما صح أن نلتفت اليه أو نبحث فيه ، فهو كلام مبتذل ليس من الفن الشعري في شيء . ولكن ذلك أعقب شيئا آخر هو التجديد بحق .

فقد ظهر عند هؤلاء المجددين هجاء ليس من طراز الهجاء القديم ولا من قبيل ما رويناه من الهجاء البذيء المسف ، ولكنه هجاء يعتمد على السخرية من المهجو والاستهزاء به واضحاك الناس عليه ، وهو يصور لنا فوق ذلك جانباً من الحياة الشعبية ويكشف لنا عن عنصر الفكاهة والهزل في المجتمع .

ويبدو أن أول من برز في هذا اللون من الهجاء وأجاد فيه حماد عجرد ، وتبعه فيه غيره من الشعراء ممن سيأتي ذكرهم بعد .

وقد جرى هذا الهجاء الساخر عند هؤلاء الشعراء مجريين : أحدهما مجرى السخرية المكشوفة الصريحة التي يتناول بها الشاعر شخص المهجو فيخرجه في شعره على صورة تبعث في النفس الهزء والضحك ، ويعبث به عبثاً واضحاً يشبه ما يعرف في أيامنا هذه بفن الكاريكاتور .

فمن هذا الطراز هجاء حماد لبشار بقبح الصورة وتشبيهه اياه بالقرد أو أقبح من القرد :

ويا أقبح من قرد ... إذا ما عميَ القرد

ومنه أيضا هجاء أبان بن عبد الحميد اللاحقي رجلا من ثقيف كان جيرانه يقال له محمد بن خالد وكان عدوا لأبان ، فتزوج بنت عبد

الوهاب الثقفي وكانت موسرة ، فقال أبان يهجوه ويحذرها منه ويفرق بينها وبينه :

لما رأيت البز والشارة ... والفرش قد ضاقت به الحاره
واللوز والسكّر يرمى به ... من فوق ذي الدار وذي الداره
واحضروا الملهين لم يتركوا ... طبلا ولا صاحب زماره
قلت : لماذا ؟ قيل : اعجوبة ! ... محمد زوّج عمّاره
لا عمر الله بها بيته ... ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأت فيه ؟ وماذا رجت ... وهي من النسوان مختاره ؟
اسود كالسفّود ينسى لدى ... التنور او محراك قبّاره
يجري على أولاده خمسة ... ارغفة كالريش طيّاره
وأهله في الارض من خوضه ... إن افرطوا في الاكل سيّاره
ويحك فرّي واعصبي ذاك بي ... فهذه اختك فرّاره
إذا غفا بالليل فاستيقظي ... ثم اطفري انك طفّاره

ومن الطريف في هذا الضرب من الهجاء أنه تأثر بالحياة العقلية واستخدمها استخداماً فيه طرافة وفيه ابداع ، فمن ذلك هجاء حماد عجرد أحد أصحابه وهو حفص بن ابي بردة بعيوب العروض والنحو . وذلك قوله فيه — وقد طعن على مرقش وعاب شعره في بعض مجالسهم :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل ... وأنت كثيل العود عما تتبع
تتبع لحناً في كلام مرقش ... ووجهك مبني على اللحن أجمع
فأذناك إقواء وأنفك مكفأ ... وعيناك ايطاء فأنت المرقّع

وقد كان هذا الطراز من الهجاء مما شاع عند شعراء القرن الثاني ، وممن أخذ فيه من شعراء القرن الثالث دعبل بن علي الخزاعي الذي اشتهر بالهجاء وعرف بتصرفه في ألوانه المختلفة .

فمن ذلك هجاؤه أبا عباد وهو من كتاب المأمون ، وقد صوره أخرق ذا لوثة ، كأن مجلسه ملحمة دامية أو ساحة حرب تعلو فيها الأصوات وتسيل فيها الدماء ، وكأنه مجنون أفلت من سجنه يجرر سلاسل قيده[1] . قال :

أولى الامور بضيعة وفساد — أمر يدبره أبو عباد
خرق على جلسائه فكأنهم — حضروا لملحمة ويوم جلاد
يسطو على كتّابه بداوته — فمضمّخ بدم ونضح مداد
وكأنه من دير هرقل مفلت — حرد يجر سلاسل الاقياد
فاشدد امير المؤمنين وثاقه — فأصح منه بقية الحداد

وهجاء دعبل رجلا قبيح الوجه يقال له صالح بن عطية الأضجم ، فوصف وجهه لشدة قبحه بأن من يراه يعتل ويمرض • وكان المعتصم قد اصطنعه ، فقال دعبل يخاطبه في ذلك :

قل للامام امام آل محمد — قول امرىء حدب عليك محام
أنكرت ان تفترّ عنك صنيعة — في صالح بن عطية الحجام
ليس الصنائع عنده بصنائع — لكنهن طوائل الاسلام
اضرب به جيش العدو فوجهه — جيش من الطاعون والبرسام

وكان لابن الرومي في هذا اللون من الهجاء وجهة فنية جديدة ، فقد أعمل فيه فنه وقدرته على توليد المعاني واستقصائها ، واستخدم المبالغة والتهويل فيه حتى لقد أفرغ فيه سخطه على المجتمع وشذوذه في علاقاته بالناس •

فمن معانيه المبتكرة البديعة قوله :

---

(١) قيل للمأمون ان دعبلا هجاك . فقال « هو يهجو ابا عباد لايهجوني » يريد بذلك ما ناله منه من السخرية والاستهزاء . طيفور ص ٢٩٧ .

وجاهـل أعرضـت عن جهلـه | حتى شـكا كفّي من الشكوى
قـد هـام وجداً باكتراثي لـه | وقد أبـت نفسـي مـا يهـوى
إن مـن الشـكوى بحيلولـة | توهمنـي البلـوى بـه بلـوى
أحضرت نجـوى النفس تمثاله | مستحيياً من شـاهد النجـوى
وقلـت للشـعر ألا أعـدني | على طويـل الغـي مسـتهوى
فقـال من خاصـمت مستهلك | ليسـت على أمثـاله عـدوى
لـو كـان لي في مثله موضـع | غادرتـه أحـدوثـة تـروى
بكـل بيـت سـائر عـابر | يسـمع والوجـه له يـزوى
لكـن من تهـدي له شـتمة | تهـدي اليـه المـن والسلوى

ومن أوصافه التي تبعث على الضحك والسخرية قوله المشهور فيوصف أحدب :

قصـرت أخادعه وطال قذالـه | فكـأنه متربـص أن يصفعـا
وكأنمـا صـفعت قفـاه مـرة | فأحـسّ ثانية لهـا فتجمّعـا

وقوله :

جـاء سـليمـان بنـي طاهـر | فاجتـاح معتـز بنـي المعتصم
كـأن بغـداد لـدن ابصـرت | طلعتـه نائحـة تلتـدم
مسـتقبل منـه ومسـتدبر | وجـه بخيـلٍ وقفـا منهـزم

ولعل للطبعـة الانطوئيـة عنـد ابن الرومي فعلها في تخيل الصور المضحكة الساخرة لمن كان ينهجوهم • فقد كان انطواؤه وانعزاله عن الناس يعينه على التأمل والتدبر ، ويسعفه بما شاء من تلك التخيلات الشعرية •

والطراز الثاني من هذا الهجاء أدخل في الفن وأعلى فيه كعباً ، فهـو في ظاهره جد وفي باطنه هزل • وقد سلك فيه الشعراء المذهب الذي عـرف

في علم البديع بعد ذلك بحس التعليل . فكان الشاعر من هؤلاء اذا أراد هجاء أحد تفطن الى صفة من صفاته القبيحة فحللها وعلل أسبابها تعليلا هو في ظاهره دفاع عنها وثناء عليها ، وهو في حقيقته امعان في تقبيحها وفي العبث بصاحبها . وذلك ادعى الى الهزل وأجلب للهزء بالمهجو والسخرية منه ، لأن ذلك يأتي على غير انتظار من سامع الشعر أو قارئه . ولأن الشاعر من هؤلاء يعمد الى بعض الصفات التي لم يجر العزف الاجتماعي على مدحها والاعجاب بها والثناء عليها فيأخذ في مدح صاحبها بها ، وفي استخدام حسن التعليل في ذلك استخداماً فنياً جميلا ، ولعنصر المفاجأة في ذلك وقعه في نفس السامع أو القارىء فمن ذلك قول حماد عجرد في حريث بن ابي الصلت الحنفي يهجوه :

حريث أبو الصلت ذو خبرة ... بما يصلح المعدة الفاسدة
تخوّف تخمة أضيافه ... فعوّدهم أكلة واحدة

ومثل ذلك أيضاً قوله في محمد بن طلحة ، وقد نزل به فأبطأ عليه بالطعام فقال فيه حماد :

زرت امرءاً في داره مرة ... له حباء وله خير
يكره أن يتخم أضيافه ... ان اذى التخمة محذور
ويشتهي أن يؤجروا عنده ... بالصوم والصالح مأجور

ومن أبرع ما قيل من هذا الطراز هجاء أبي نواس اسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت ، وقد تفنن فيه فجعل مدار حديثه رغيف اسماعيل الذي يرفى اذا انشق فلا يعرف فيه موضع الابرة ، وصنعته الظريفة في مزج الماء العذب بماء البئر كي يزداد ضعفا ، وهو مذهب في الرمز والايماء فيه ابداع وابتكار :

خبز اسماعيل كالوشي اذا ما انشق يرفى

عجباً من أثر الصـ ـعة فيه كيف يخفى
إن رفّاءك هذا أحذق الامة كفا
واذا قابل بالنصـ ـف من الجردق نصفا
ألطف الصنعة حتى لا ترى مغرز أشفى .
مثلما جاء من التنور ما غادر حرفا
وله في الماء أيضاً عمل أبدع ظرفا
مزجه العذب بماء البئر كي يزداد ضعفا
فهو لا يسقيك منه مثلما يشرب صرفا

ومن طريف هذا الضرب من الهجاء ما فعله دعبل بن علي الخزاعي بابراهيم بن المهدي لما تولى الخلافة ببغداد في غياب المأمون . وقد اعمل فيه لسانه اللاذع بهجاء بلغ فيه من السخرية والاستهزاء كل مبلغ . وكان ابراهيم معروفا بالغناء فاتخذ دعبل من هذه الصفة موضوع هجائه لابراهيم وادار عليها سخريته به . فقال :

يا معشر الاجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينيّة يلتذها الامرد والاشمط
والمعبديّات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قوّاده خليفة مصحفه البربط

ولعل اهم ما يلاحظ في هذا الفن الجديد من شعر الهجاء امور ثلاثة :

أولها ــ ان الهجاء استقل بمقطوعات او قصائد قصيرة ، ولم يعد يشارك غيره من موضوعات القصيدة العربية التقليدية حيث يجتمع اليه فيها النسيب الذي لا بد منه في مقدمات القصائد ثم الفخر احيانا والمدح احيانا اخرى ، ونحسب ان الهجاء كان ثاني الاغراض الشعرية التي استأثرت بالاستقلال ، فلم يجتمع اليها غيرها في القصيدة ، وكان اول تلك الاغراض

الغزل وقد استقل عند عمر بن ابي ربيعة ثم استمر على استقلاله عند شعراء الغزل الحجازيين من عذريين وغيرهم .

الامر الثاني ـ ان الهجاء اصبح فنا شعبيا عاميا في معانيه وفي اسلوبه، فلم يعد يحفل بالمقاييس الاجتماعية والخلقية المأثورة عن المجتمع العربي الاول ، ولم يعد يجعلها هي التي يذم بمجانبتها الشخص المهجو ، وانما اصبح بطبيعة المجتمع الحضري ، من حيث إن الفرد فيه هو الوحدة الاجتماعية التي تقوم عليها الاعتبارات الاجتماعية المختلفة ، ولا شأن لاسرته او لقبيلته او لقومه بما يستحق من لوم او تأنيب او عقوبة (ولا تزر وازرة وزر اخرى) . وصار ادنى الى المزاج الحضاري الذي يميل الى الهزل والمرح وينشد في الفنون ـ على اختلاف ضروبها وموضوعاتها ـ تسلية ومتعة وترويحا للنفس ، ولهذا حاول الشعراء ان يجعلوا من الهجاء فناً تصويرياً قد يجوز لنا ان نشبهه بالفن المسرحي الكوميدي الذي يستهوي طبقات المجتمع ولا سيما الطبقة العامة .

الامر الثالث ـ انه على رغم الشعبية التي نلاحظها فيه ، قد افاد من المعارف الجديدة ، وتأثر بالحياة العقلية فاستخدم المنطق والاستدلال والاقناع والاحتجاج ، وتصرف فيها وألانها لطبيعة هذا الفن ، ومن ذلك نتج ما اشرنا اليه من استخدام حسن التعليل في الطراز الثاني من هذا الهجاء ومنه ايضا ما رويناه لحماد عجرد في الهجاء بعيوب العروض والنحو .

اما في الاسلوب فقد تحرى هذا الهجاء الجديد سهولته وبساطته ، بل لقد جانب في كثير من الاحيان فصاحته وجزالته .

ولقد كان ذلك لزاما عليه ليشيع بين عامة الناس ، فينشدوه ويحفظوه ويتداولوه ويتحقق بذلك غرض قائله منه . هذه ناحية ، وثمة ناحية اخرى فرضت على الهجاء الجديد ان يكون كذلك ، تلك هي انه نشأ في الغالب

على ايدي شعراء لم يكونوا على جانب كبير من الفصاحة ، ولم يكن لهم بالقديم صلات وثيقة ، بل كان جلهم من طبقة المجّان الهازلين المتهتكين الذين يحيون في الجانب الباسم المتحلل من المجتمع ، ويعيشون على ما تنفقه عليهم الطبقة التي كانت تحذرهم وتخاف شواظ ألسنتهم ، تلك الالسنة التي لم تكن تتورع عن ان تقول اي شيء بالغا ما بلغ من الهجنة والابتذال •

أما تطوره من الناحية الفنية فقد بدأ سبابا مبتذلا لا قيمة له من الوجهة الفنية ، ثم اصبح تصويرا فنيا يلتقط فيه الشاعر جانبا من جوانب الشخص الذي يريد ان يهجوه ويجعل ذلك مدار حديثه في الهجاء • وكان في هذه الحالة هجاء صريحا وسخرية مكشوفة ، ثم صار في مرحلته الاخيرة ينهج سبيل الرمز والايماء فيمدح الشخص المهجو بالصفات التي هي مدعاة للذم ومجلبة للاستهزاء والسخرية •

وهو بهذا يسجل تحولا خطيرا في فن الهجاء ، فبعد ان كان يقصد فيه الى ايلام المهجو وايجاعه بأن تسلب منه دواعي الفخر ، وما يستحق ان يمدح من اجله ، اصبح في صورته الاخيرة فنا هزليا فيه متعة وفيه تسلية وفيه مرح ، وتلك بلا شك ادخل في اغراض الفن وغاياته مما كان يقصد اليه الهجاء في صورته التقليدية التي عرفها الشعر العربي •

وذلك يدل ايضا على ان المجتمع قد تطور في غرائزه من البساطة والسذاجة البدوية الى التسامي والاعلاء الذي تعين عليه الحضارة ، ذلك أن الهجاء من بعض جوانبه تعبير عن غريزة الخصام والمقاتلة، فكلما كان غرضه الايلام والايجاع ، كان ذلك دليلا على أن الغريزة لما تزل في حال من البدائية والسذاجة • وكلما تحول الى الهزل واستخدام المرح والامتاع كان ذلك أمارة التسامي والاعلاء في الغريزة وتلك ظاهرة تنبىء بمكان المجتمع في الحضارة وتدل على تطور المعايير الاجتماعية فيه •

٢ ـ الحكمة والزهد

ومما جد في الشعر من الأغراض والموضوعات شعر الزهد والحكمة وما هو بسبيلهما من المواعظ والنصائح • وكان علم هذا الطراز من الشعر ابو العتاهية اسماعيل بن القاسم بن سويد المكنى أبا اسحق •

ولم يكن الشعر العربي من قبل يخلو من خطرات في الحكمة وفي فلسفة الحياة ومآلها وفي النصح والموعظة والارشاد ، بل لقد كانت هذه المعاني تشيع في ثنايا القصائد عند بعض الشعراء • وفي معلقة زهير بن أبي سلمى شيء كثير من هذا القبيل ، ولا سيما حديثه عن السلم وذم الحرب واسداء النصيحة لقومه بالكف عن الحرب ونبذ الخصومة والتشاحن ، الى غير ذلك من التجارب الانسانية والموعظة الحسنة •

وبعد الاسلام لم نكد نشهد في الشعراء من تناول هذا الموضوع في شعره مثلما فعل زهير ، ولعل القرآن وأساليبه المعجزة وحديث الرسول وما فيه من روائع الحكم وجوامع الكلم هو الذي أقعد الشعراء عن أن يخوضوا في هذا الموضوع وأن يطرقوا هذه المعاني • وكانت هذه الظاهرة بعض ما أعقبته الهزة الفنية التي أحدثها القرآن في الحياة الأدبية •

على أننا نعرف شاعراً من المخضرمين أدرك الجاهلية وعاش في الاسلام فلم يصغ اليه قلبه ، وكان على صلة بالأديان السماوية الأخرى ، فوقف شعره على الحكم والمواعظ والمعاني الدينية ، وذلك أمية بن أبي الصلت الثقفي •

وفي أواخر العصر الأموي شهدنا طائفة من الناس تنصرف الى وعظ الناس وارشادهم ، وتقص عليهم القصص التي ترمي من ورائها الى الحث على التمسك بالدين وبث الفضيلة ونشر مكارم الأخلاق ، وتلك هي طائفة الوعاظ والقصاص • وكان أبرز رجالها في البصرة عالمها ومرشدها الحسن البصري •

لذلك يحق لنا ان نعتمد هذا المذهب في الشعر شيئاً جديداً الى حد بعيد ، أخرجه للناس أبو العتاهية فوقع منهم في أحسن موقع وأعجبوا من أجله بأبي العتاهية أيما اعجاب ، وقدمه معاصروه أو أغلبهم وفضلوه .

وكان أبو العتاهية يصدر في شعره هذا عن موردين : الأول ما أصابه في الفلسفة والحكمة من ثقافة وما حصله فيها من افكار . وقد مر بنا عند الكلام على العامل العقلي ما يدل على أن أبا العتاهية قد أخذ من الفلسفة بنصيب ، وأنه اطلع على طرف منها ، وكان له مذهب في العقيدة وفي الفلسفة يدين اليه . وأن أبياته التي مرت روايتها في رثاء صديقه علي بن ثابت وبخاصة قوله :

وكانت في حياتك لي عظات ... وانت اليوم أوعظ منك حيا

يقال انه قد استقاه من رثاء الفلاسفة للاسكندر .

ولعل ثقافة أبي العتاهية في الفلسفة هي التي دعته الى ان يأخذ في مذهب جديد في الشعر ، وأن يكون هذا المذهب حكمة تسير على الألسن وتصادف في نفوس الناس قبولا وموافقة .

وكأن ابا العتاهية عجز ان يقوم في الشعر المألوف مقام الفحول من معاصريه ، فخرج على الناس بهذا الجديد الذي نهجت سبيله في نفوسهم فاكبروه واجلوه ، واحلوه من اجله مرتبة التقديم على اقرانه ومعاصريه من الشعراء .

وليس هذا محض افتراض او مجرد استنتاج ، بل ان في آراء بعض النقاد والشعراء في شعر ابي العتاهية ما يدل على انهم لم يكونوا يقوّمونه بشيء ، بل يرون فيه انحطاطا عن المقاييس الفنية في المعنى وفي الاسلوب بوجه خاص . وكان اسحق بن ابراهيم الموصلي ، مثلا ، يعيبه ولا يراه شيئا ، ويقدم عليه في الغزل — وهو ثاني الاغراض في شعره — العباس بن

الاحنف[٢] • واسحق شاعر ناقد يذهب مذهب القدماء • كما ان لمسلم بن الوليد في ابي العتاهية رأياً لا يخلو من الاستخفاف به وبشعره ، ومسلم رأس المتفننين من الشعراء في عصره •

ولعل اطلاع ابي العتاهية على التراث اليوناني قد مكنه من أن يتعرف طريقة شاعر من شعرائهم اشتهر في الشعر اليوناني بأنه مبتكر لما يسمونه بالشعر الخلقي التعليمي (Didactic Poetry) [٣] وهو هزيود (Hesiod) فقلده أبو العتاهية واتبع سبيله ، وان يكن هذا الاحتمال غير مؤيد بما في شعره من معاني الحكمة والزهد والاخلاق ، خلا ما أشرنا اليه من اقتباسه كلام الفلاسفة في رثاء الاسكندر وهو لايكفي دليلا على أخذه عن شعراء اليونان •

أما المورد الثاني الذي كان أبو العتاهية يصدر عنه في زهده وفي حكمته فهو القرآن • وكان هذا ظاهرة في ابي العتاهية تستحق التأمل والتفكير •فهو مرمي عند بعض مؤرخيه بأنه كان يعتنق الزندقة[٤] ، واذن فليس موقفه من القرآن موقف المسلم المؤمن الصادق الايمان ، بل يبدو أنه كان موقفه المتحدي المكابر الذي ينازله في ميدانه ويقلده ، ويزعم أنه يأتي بمثله أو بأحسن منه • روى صاحب الأغاني بسنده عن رجاء بن مسلمة انه قال : « سمعت أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة « عم يتساءلون » ثم قلت قصيدة أحسن منها[٥] » •

وهذا ان صح عنه يدل على انه كان يتطلع بشعره في الحكمة والاخلاق الى منزلة القرآن في نفوس المسلمين والمؤمنين • وهو في هذا ايضا خلف

---

(٢) الأغاني جـ ٨ ص ٢٣ ــ ٢٤ .

(٣) See Encyclopaedia Britanica, Art. Greek Literature.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٠٩ .

(٥) الأغاني جـ ٣ ص ١٣٧ .

لامية بن ابي الصلت الذي كان يمتلىء حقـدا على الرسـول وعلى دينـه فيحاول ان يصرف الناس عن كتابه الكريم بما في شعره من المعاني الدينية •

ولعل هذا المسلك من ابي العتاهية كان حلقة في سلسلة من عمل اعداء الاسلام لمناهضته ومحاربته ، والله بالاسرار عليم •

وقد كان ابو العتاهية يسطو بالفعل على بعض آي القرآن فينظمه شعرا او يقتبسه بنصه في بعض الاحيان • مثال ذلك قوله :

ليت شعري فانني لست ادري — أي يوم يكـون آخـر عمـري
وبأي البـلاد يقبـض روحـي — وبـأي البـلاد يحفـر قبـري

وليس هذان البيتان الا معنى قوله تعالى « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » •

وقوله في قصيدة اخرى :

وان لكـل حـادثة لوقتـا — وان لكـل ذي عمل حسـابا
وان لكـل مطـلع لحـدّا — وان لكـل ذي اجل كتابـا

والشطر الاخير يماثل قوله تعالى « لكل أجل كتاب » •

ومن ذلك ايضاً قوله :

أشد الجهـاد جهـاد الهوى — وما كـرم المـرء الا التقـى
واخلاق ذي الفضـل معروفة — ببذل الجميـل وكفّ الاذى

والشطر الاول مأخوذ من حديث مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ان رجع من الجهاد فقال : « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر »، وسئل عن الجهاد الاكبر فقال : « جهاد النفس » • والشطر الثاني مأخـوذ من قوله تعالى « ان أكرمكم عند الله اتقاكم » •

أما المعاني التي حام حولها ابو العتاهية فهي لا تخرج عن الترغيب في العمل الصالح ، والحث على الزهد في الدنيا ، والتذكير بالموت ، والترهيب مما بعده ، والحض على طاعة الله والكلام على طبائع الناس ، وانهم في الرخاء غيرهم في الشدائد ، وما الى ذلك من المعاني المألوفة المعهودة التي لا جدة فيها ولا ابداع ولا ابتكار .»

فمن شعره في الزهد قوله في ذم الدنيا :

فلا تعشق أخيّ فأنما يرى عاشق الدنيا بجهد بلاءِ
حلاوتها ممزوجة بمرارة وراحتها ممزوجة بعناء
فلا تمش يوماً في ثياب مخيلة فانك من طين خلقت وماء
ولله نعماء عليك عظيمة ولله احسان وفضل عطاء

ومن شعره في ذكر الموت وهو من أجمل شعره وأخفه على النفس قوله :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
لدواعي الخير والشر (م) دنوّ ونزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح
كيف اصلاح قلوب انما هنّ قروح
أحسن الله بنا انّ (م) الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الصدر الصدوح
موت بعض الناس في الارض على البعض فتوح
سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والمـ ـوت يغدو ويروح

لبني الدنيـا مـن الدنـ ـيـا غبـوق وصـبوح
رحن في الوشـي وأقبلـ ـن عليهـن المسـوح
كـل" نطّاح مـن الدهـ ـر لـه يومـاً نطـوح
نـح على نفسـك يا مسـ ـكين ان كنـت تنـوح
لسـت بالباقـي وان عمّـ ـر (م) ت مـا عمّر نـوح

على انه يسف في شعره بعض الأحيـان حتى يكون ترديداً لبديهيات معروفة ، ليس فيها من الشعر معنى مبتكر ولا صورة جميلة ، ويسطو علـى الأمثال المأثورة وأقوال بعض الشعراء فينقلها وينتحلها • فمن ذلك قوله :

وكـل طـريف لـه لـذة وكـل تليد سـريع البلى
ولا شيء الا لـه آفـة ولا شـيء الا لـه منتهى
وليس الغنى نشـب في يد ولكن غنى النفس كل الغنى

ومن اسفافه الشنيع قوله :

وان لكل تلخيص لوجهـا وان لكـل مسألة جـوابا
وان لكـل حادثة لوقتـا وان لكل ذي عمـل حسابا
وكل سـلامة تعـد المنايا وكل عمارة تعـد الخرابا

ولعلنا نتساءل بعد هذا : ما قيمة هذا الشعر من الناحية الفنية ؟ وأحسب أن ما أوردته من الشواهد يتحدث عن نفسه ويدل على مكانته من الفـن، فهو ليس الا ترديدا لبعض المعاني الدينية والخلقية في كلام موزون مقفى • وما أحسب أنه يستحق أن يسمى شعرا الا من حيث انه كذلك في الشكـل وفي الصورة الخارجية لو كان الشعر هو الكلام الموزون المقفى ليس غير ؛ ويبدو أنه كذلك في فخر أبي العتاهية بدليل أنه كان يقول : « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعر لفعلت » •

أما مكانه من تاريخ الشعر العربي فأمر ذو شقين : الشق الأول يتصل بالأسلوب وموضع الكلام فيه يأتي بعد • والشق الثاني يتعلق باتجاه الشعراء الى موضوع الحكمة والتجارب الانسانية في الحيـاة ، وتلك ظاهرة كـان لأبي العتاهية فضل احيائها ولفت الأنظار اليها ، وكان من ثمراتها ـ الى حد ما ـ الحكمة التي أخرجها أبو تمام في شعره ذلك المخرج الفني الجميل ،ثم حكمة المتنبي وفلسفة أبي العلاء المعري في الحياة •

٣ ـ الشعر التعليمي

وكان من آثار النشاط الذي عرفته الحياة العقلية في بغداد أن ظهـر في الشعر طراز من النظم عرف بالشعر التعليمي •

وقد بدأت صورته الأولى عند الشعراء الذين تصدوا للرد على بشـار مستخدمين في ذلك ما وصل اليـه علمهم من المعرفـة بالطبيعـة وبالأرض وعناصرها ومكوناتها ونحو ذلك • وقد روينا طرفا من أقوالهم في موضع سابق من هذا البحث[٦]

وقد أشرنا فيما سبق الى أن أبان بن عبد الحميد اللاحقي قد نظـم كتاب كليلة ودمنة شعرا للبرامكة وأنه صنع قصيدته المعروف بذات الحلل ، وذكر فيها مبدأ الخلق وامر الدنيا وضمنها شيئا من المنطق •

ويذكر المسعودي أن لأبي العباس عبدالله بن محمد الناشيء الكاتـب الأنباري قصيدة نونية منصوبة فيها نحو أربعة آلاف بيت يذكر فيها أهـل الآراء والنحل والمذاهب والملل[٧] •

ويذكـر أوليري أن لابراهيم الفـزاري الفلكي قصيـدة في الفلك

---

(٦) يراجع الفصل الرابع من الباب الثالث من هذا البحث .
(٧) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٦١ .

والنجوم •[٨] والظاهر أن الشعر التعليمي مرحلة من مراحل التطور في شعر الأخلاق والحكمة ، اذ أن هذا الشعر يكـون في أول أمره نصحا وارشادا ومواعظ تقوم على أساس مـن التجارب الانسانية العامـة ، حتى اذا بلغ الشعراء من العلم والمعرفة مبلغا حسنا أغراهم ذلك بأن يستخدموا معارفهم الجديدة في هذا الطراز من الشعر حباً بالتـجديد وتدليلا على مشاركتهم في الحياة العقلية •

وقد نشأ هذا الضرب من الشعر عند اصحاب الآراء والمذاهب الدينية من الشعراء ، فاستخدموه في تأييد مذاهبهم وفي التحدث عن فضائلها والحملة على خصومها •

ولعل أول من فعل ذلك من الشعراء السيد الحميري • فقد كان ينظم بعض القصص والمناقب التي تـروى له عن علي وابنائه شعراً • فقد سـمع يوما محدثا يذكر أن النبي صلى الله عليـه وسلم كان ساجدا فركب الحسن والحسين على ظهره فقـال عمر رضي الله عنه : « نعم المطي مطيكما » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ونعم الراكبان هما[٩] » • فانصرف السيد من فوره ، فقال في ذلك :

أتى حسن والحسين والنبي	وقد جلسا حجزة يلعبـان
ففداهمـا ثـم حيّاهمـا	وكانـا لديه بذاك المكـان
فراحـا وتحتهما عاتقـاه	فنعـم المطيـة والراكبان
وليـدان أمهمـا بـرّة	حصـان مطهرة للحصان
وشخصهما ابـن ابي طالب	فنعم الوليـدان والولدان

---

(٨) O'Leary : How Greek Science Passedto the Arabs, P. 152.

(٩) الأغاني ج ٧ ص ١٥ •

ومن سلك هذا السبيل من شعراء الفرق أبو سهل بشر بن المعتمر . فقد روى له الجاحظ قصيدتين طويلتين احداهما في ذم الاباضية والرافضة والحشوية ، وقد ذكر فيهـا اصنافـاً من الحيوان وتحدث عـن اعاجيبهـا وطبائعها وما تقتات به مستدلا بذلك على قدرة الخالق . وقد بدأها بالحكمة فقال :

الناس دأباً في طـلاب الغنى ... وكلهـم من شـأنه الختر
كأذؤب تنهشـــها أذؤب ... لهـا عـواء ولهـا زفـر
تراهم فوضى وايدي سبا ... كـل له في نفسـه سحر
تبـــارك الله وسـبحانه ... بين يديـه النفـع والضر
من خلقه في رزقـه كلـهم ... الـذيخ والتيتـل والعفر

ثم يعدد أصنافـاً من الحيوان وكيف تعيش وبماذا تقتات حتى ينتهي من ذلك الى قوله :

اني وان كنت ضعيف القوى ... فالله يقضـي ولـــه الامـر
لسـت اباضـيا غبيــا ولا ... كرافضـي غـرّه الجفـــر
كمـا يغـر الآل في سبسب ... سـفرا فأودى عنده السـفر
كلاهمــا وسّـع في جهل ما ... فعـــاله عندهمـا كفـــر
لسنا من الحشو الجفاة الألى ... عابوا الذي عابوا ولم يدروا
... ... الخ(١٠)

والقصيدة الثانية تتحدث عن العالم وما فيه من المخلوقات والاجناس ، وعدد فيها ما شاء من الحيوانات واوصافها مستدلا بذلك على حكمـة الله ومستخلصاً من ذلك كلـه أن لا رائد الا العقـل وأن بعض النـاس يضل فيخاصمه ويحتكم الى التقليد :

اما تـرى العالم ذا حشـوة ... يقصـر عنهـا عـدد القطـر

(١٠) كتاب الحيوان جـ ٦ ص ٩٢ ــ ٩٤ .

أوابد الوحش واجناسها وكل سبع وافر الظفر

ويذكر أجناساً من الحيوان عديدة ثم يقول :

فكم ترى في الخلق من آية خفية الجسمان في قعر
ابرزها الفكر على فكرة يحار فيها وضح الفجر
لله در العقل من رائد وصاحب في العسر واليسر
وحاكم يقضي على غائب قضية الشاهد للامر

ثم يعود الى تعداد الحيوان وذكر طبائعه ، وأنه سواء في طلب العيش ، يقلد بعضه بعضاً ، وأن بني آدم مثلهم في السعي الى الكسب الا انهم في الدين مختلفون وفي الرأي والقدر متفاوتون وأن التقليد قد استولى عليهم وتحكم فيهم :

وكل شيء فعلى قدره يحجم او يقدم او يجري
والكيس في المكسب شبل لهم والعندليب الفرخ كالنسر
والخلد كالذئب على خبثه والفيل والاعلم كالوبر
والعبد كالحر وان ساءه والابغث الاعثر كالصقر
لكنهم في الدين ايدي سبا تفارقوا في الرأي والقدر
قد غمر التقليد احلامهم فناصبوا القياس ذا الشر
فافهم كلامي واصطبر ساعة فانما النجح مع الصبر[11]

ويبدو أن هذا الطراز من الشعر قد أخذ يتطور في غايته شيئاً فشيئاً ، فصار يستخدم لحشد المفردات العلمية فيه بقصد الاستدلال والاحتجاج بها، ثم تطور به الأمر فتمحض لسرد المفردات واتخذ وسيلة من وسائل التعليم ومن أجل ذلك سمي بالشعر العليمي •

ويبدو أن الشعراء ، والعلماء منهم على وجه الخصوص ، كانوا يفعلون ذلك تسهيلا على المتعلمين وتيسيراً لحفظ العلوم عليهم ، وقد استمرت هذه

---

(١١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٩٤ – ٩٧ •

الطريقة في التعليم عمهداً طويلا ، واتخــذت وسيلة لحفظ المتون في العلوم المختلفة في الفقه وفي علم العقائد وفي النحو والعروض وغير ذلك • وهـــي اسلوب في التعليم بقي متبعاً الى عهد قريب جدا •

ويبدو أن القوم قد مالوا من أول الأمر الى بحر الرجز المصرع لانــه أخف •وقعاً وأسهل حفظاً كما نلاحظ عند أبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي جعل نظمه لكتاب كليلة ودمنة على هذا الوزن • وقد قال في أوله :

هــذا كتــاب ادب ومحنه　　　وهو الذي يدعى كليله ودمنه

فيه احتيالات وفيه رشــد　　　وهو كتاب وضعته الهند

وأحسب أن من البداهة والوضوح بمكان ، القول بأن هذه الظاهرة ليست على شيء من الناحية الفنية ، وأن هذا الطراز من الكلام انما سمي شعراً لأنه كلام موزون مقفى لا اكثر ، وهو ليس من الشعر في حقيقة أمره، لأن مقومات الشعر من تعبير عن العاطفة بالأسلوب الذي يقصد فيه الــى جانب الجمال لا وجود لها فيه أو في اكثره على أية حال(١٢) •

وحسبنا في هذا المقام ان نسجل ظهور هذه الطريقة في نظم العلـــوم واستخدامها في التعليم • وان نلاحظ ان القوم قد التفتوا الى ان الشــعر بموسيقاه وايقاعه ، أيسر انطباعا في الذاكرة واخف على السمع وقعا والطف في النفس مدخــلا ، حتى ولو خــلا من مقوماته الاصــلية وهــي العاطفة والاسلوب الفني •

٤ ـ وصف الخمر

ومن ظواهر التجديد في موضوعات الشعر الاكثار من وصف الخمر اكثاراً يبعث على الدهشة والعجب ، والتعمق في معانيه الى درجة لم تعرف في الشعر

---

(١٢) من النوادر في هذا الباب ارجوزة البيتوشي في معاني الحروف وهــو من المتأخرين وقد بلغ فيها من اللطف وخفة الوقع مبلغا عظيما .

العربي من قبل .ولعل مبعث الدهشة في ذلك دعوى العباسيين أنهم أرادوا أن يعود الدين الى سلطانه في الدولة والمجتمع بعد أن تقلص ظله أيام الأمويين.

وقد كان اكثر الخلفاء يشرب النبيذ ويقيم الشراب والغناء ويحتال لذلك بأقوال بعض الفقهاء ليستحل الشراب . وقد أدى ذلك بأهل اللهو الى مثل ما جاء في قول ابن الرومي :

أحل العراقي[13] النبيذ وشربه ... وقال الحرامان المدامة والسكر
وقال الحجازي[14] الشرابان واحد ... فحلت لنا بين اختلافهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما ... واشربهما لا فارق الوزرَ الوزر

ولا ننسى أن بغداد قد ورثت من بقايا المجتمع الكوفي والبصري الاقبال على الشراب ، ولا سيما ورثته من المجتمع الكوفي من ولوع بالشراب انحدر الى أهله أو الى بعضهم من تراث الحيرة وما كان فيها من حوانيت الخمر والشراب .

وقد كان ممن ورثتهم بغداد من أهل اللهو والمجون والشراب مطيع ابن اياس وسواه ممن نادم الوليد بن يزيد من ظرفاء أهل الكوفة وحظي عنده . وقد جمع هؤلاء فنونا من اللهو من البيئة التي نشأوا فيها ، وبما أحدثه الوليد بن يزيد في الشام ، حتى اذا وردوا بغداد وجدوا فيها لونا آخر من ألوان التمتع بالشراب في أديرة الرهبان التي كانت تحيط ببغداد كدير الروم ودير حنة وغيرها ، وفي القرى القريبة من بغداد حيث كان يقيم بقايا الساميين الذين أقاموا على دياناتهم القديمة وهي المسيحية . وكانت قراهم على دجلة بين البساتين مقصداً للشعراء ، وكانوا يرتادون تلك المواضع للشراب ولغير الشراب ، ويقيمون فيها أياماً وليالي ، يشربون فيها ويلهون.

---

(١٣) يعني بذلك الامام ابا حنيفة النعمان بن ثابت فقيه اهل العراق .
(١٤) الحجازي هو الامام مالك بن انس فقيه المدينة .

وكان للرخاء الذي عم بغداد في هذا العصر ولاستقرار الأحوال فيها الأثر البالغ في أن يأخذ الناس بالحظ الوافر من اللهو والشراب • وكان الشعراء على وجه الخصوص يحظون من الخلفاء ورجال الدولة بما يهيىء لهم أسباب العيش المترف الرغد ، لذلك وجدوا في الحياة متسعاً يعكفون فيه على اللذائذ ، وينصرفون فيه الى المتع الذاتية ويقولون في ذلك شعرا صادق التعبير عن نفوسهم وعما كان يجري في حياتهم الخاصة • وقد كانت هذه الظاهرة ـ ظاهرة فراغ الشعراء لانفسهم ـ أمارة من امارات التحول الكبرى في الشعر ، فقد عكف الشعراء على مشاعرهم وانصرفوا الى عواطفهم في مناح عديدة من مناحي الحياة ولم يكونوا من قبل يفرغون الا الى الحب وحده •

واذا جرى الحديث عن شعر الخمر فلا بد ان تنصرف الاذهان فيه الى ابي نواس ، فقد كان شعره في الخمر فريدا في كمّه وفي كيفه ، ولعله بحق اغزر الشعراء شعرا في الخمر واكثرهم ابداعا في وصفها وفي وصف مجالسها وسقاتها وندمائها حتى لا يكاد الشعر العربي يعرف له في ذلك مثيلاه

واذا لم يكن من طبيعة هذا البحث ان يتتبع معاني الشعراء في وصف الخمر وما اضافه اليها شعراء بغداد فان لزاما عليه ان يقف على المعالم العامة للتجديد في وصفها • ولعل من اهم تلك المعالم انها استقلت بالقصيدة فلم تعد غرضا يمر به الشاعر عرضا ثم ينتقل منه الى غيره كما نعرف في شعر طرفة والاعشى والاخطل ، وانها حلت في بعض القصائد محل النسيب الذي ألفوا ان يفتتحوا به قصائدهم ، فأصبح وصفها عند بعض الشعراء هو المقدمة التي يمهد بهما لغرضه •

ولعل اهم من ذلك كله ان ابا نواس لم يعد يكفيه منها وصفها الظاهري، فصار ينفذها في قرارة نفسه ويتخذها صفية روحه ، وفني في حبها ، فتحدث

عنها حديث الوثني عن الوثن ، واثنى عليها ثناء المتعبد ، واتخذها أماً ترضعه درها ، واحب من اجلها مواطنها والمواضع التي يلقاها فيها .

ها هو ذا يقول فيها :

قطربّل مربعي ولي بقرى الـ ـــكرخ مصيف وأمي العنب
ترضعني درّها وتلحفني بظلها والهجير يلتهب
اذا ثنته الغصون جللّني فينان ما في أديمه جرب
تبيت في مأتم حمائمه كما تراءى الفواقد السلب
يهب شوقي وشوقهن معاً كأنما يستخفنا طرب
فقمت أحبو الى الرضاع كما تحامل الطفل مسه السغب
حتى تخيرّت بنت دسكرة قد ناجمتها السنون والحقب

وابو نواس يستخدم معرفته بالكلام والفلسفة في وصف الخمر ، فيثني عليها بآلائها ويسميها بأحسن اسمائها ، وينزهها تنزيه العابد لمعبوده ، ويغرق في ذلك اغراقاً عجيباً . فمن ذلك قوله :

اثن على الخمر بآلائها وسمّها أحسن اسمائها
لا تجعل الماء لها قاهراً ولا تسلطها على مائها
كرخية قد عتقت حقبة حتى مضى اكثر اجزائها
فلم يكد يدرك خمارها منها سوى آخر جوبائها

وقد بلغ من شغف ابي نواس بها ان جعل ذكرها فاتحة بعض قصائده في المدح وغيره من الاغراض مستبدلا وصفها بوصف الديار والوقوف على الاطلال ، فمن ذلك قوله في اول قصيدة مدح بها العباس بن عبيدالله بن ابي جعفر المنصور :

غرد الديك الصدوح فاسقني طاب الصبوح
واسقني حتى تراني حسناً عندي القبيح

قهـــوة تذكـــر نوحـــاً حين شـــاد الفلك نـــوح
نحـــن نخفيهـــا ويأبـــى طيـــب ريـــح فتفـــوح
فكـــأن القـــوم نهبـــى بينهـــم مســـك ذبيـــح

الى ان يقول في المدح :

أنـــا في دنيـــا مـــن العبا (م) ســـس اغـــدو واروح
هـــاشـــمي عبـــدلي" عنـــده يغلـــو المديـــح
... ... الخ

وقد فاض حب ابي نواس الخمر على كل ما يتعلق بها من المواضع التي يلقاها فيها ، واحب من اجلها اهلها فمدحهم كالعاشق المتيم يهيم بمعشـــوقه ويحب من اجله اهله ودياره •

وقد وصف ابو نواس الاديرة التي كان يغشاها لينال فيها حظه مـــن الخمر ، ومدح رهبانها واثنى عليهم اجمل الثناء فقال في دير حنة :

يا دير حنّة مـــن ذات الاكيراح من يصحُ عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لهـــا يلعبـــن منـــا بألبـــاب وارواح
دع التشاغل باللذات يا صـــاح من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابـــت نفوسهم من العبادة نحف الجســـم اطلاح
لم يبق فيهم لرائيهم اذا حصلوا خـــلاف ما خوّفوه غير أشـــباح
تلقى بهم كـــل محفوّ مفارقـــه من الـــزهاد عليه سحق أمساح
لا يدلفـــون الى مـــاء بآنيـــة الا اغترافا من الغدران بالـــراح

ومما تميز به أبو نواس في خمرياته انه تصرف فيها واستقصى معانيها ، فمن وصف للخمر وصفاً دقيقاً يحيط بظاهرها وباطنها ، الى حديث عنها حديث العطوف الوامق العاشق ، الى تصوير لمجالسها تصويرا فيه دقة وفيه رونق ورواء • وربما جمع أبو نواس في القصيدة الواحدة هذه المعاني كلها فأخرجها

مسلسلة يتصل بعضها ببعض كأحسن مايكون الاتصال . فمن ذلك همزيته المشهورة التي وصف فيها مجلس الشرب ووصف فيها الشراب ، وعرج بعد ذلك على وصف النديم حتى تكتمل للسامع او القارىء صورة اللذة الممتعة التي يريد ان ينقلها اليه ابو نواس قال :

يا رب مجلس فتيـان سموت لـه ... والليل محتبس في ثـوب ظلمـاء
لشرب صـافية مـن صدر خابيـة ... تعشى[15] عيون نداماهـا بـلألاء
كـأن منظرهـا والمـاء يقرعهـا ... ديبـاج غـانية او رقـم وشّـاء
تسـتنّ من مرح في كف مصطبح ... من خمر علنة او من خمـر سوراء
كـأن قـرقـرة الابـريق بينهـم ... رجـع المزامـير او ترجيـع فأفاء
حتى اذا درجت في القوم وانتشرت ... همّـت عيونهم منهـا باغفـاء
سـألت تاجرها كـم ذا لعاصـرها ... فقـال قصّر عن هـذاك إحصائـي
أنبئـت ان ابـا جـدي تخيرهـا ... من ذخـر آدم أو من ذخـر حواء
ما زال يمطـل من ينتـاب حانتها ... حتى أتتني وكانت ذخـر موتائـي
ونحـن بين بسـاتين فتنفحنـا ... ريح البنفسـج لا ريح الخزامـاء
يسعى بهـا خنث في خلقه دمـث ... يسـتأثر العين في مستدرج الرائي
مقرط وافر[16] الارداف ذو غنـج ... كـأن في راحتيـه وسـم حنـاء
قد كسر الشّـعر واوات ونضـده ... فوق الجبين ورد الصدغ بالفـاء
عيناه تقسـم داء في محـاجرها ... وربما نفعـت في صـولة الـداء
اني لاشـرب من عينيه صـافية ... صرفـا واشرب أخرى مع ندامائي

* * *

(١٥) في الديوان طبعة اسكندر آصاف « تغشى » ولعل « تعشى » اولى بمعنى البيت .

(١٦) في الديوان طبعة اسكندر آصاف « وافي » ولا يستقيم بها الوزن ولعل « وافر » اولى وان كان الوصف بها غريبا في هذا الموضع .

وكأن اشتهار أبي نواس بوصف الخمر ومـا يتصل بها وتجويده في ذلك قد جعل الناس ينسبون أكثر ما قيل في الخمر اليه وينحلونه اياه ، حتى لم يكد يشتهر بذلك أحد من شعراء عصره شهرته به ، ولم يذكر لأحد منهم مثل ما ذكر له ، أو قريب منه ، من المعاني الطريفة الجديدة في الخمر .

وقد كان من أنداده في هذا الباب الشاعر الملقب بالخليع وهو الحسين ابن الضحاك الباهلي.ويذكر صاحب الاغاني أن أبا نواس كان يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها ، واذا شاع له شعر نـادر في هذا المعنى نسبه الناس الى أبي نواس . وله معان في صنعتها أبدع فيهـا وسبق اليها فاستعارها أبـو نواس[17] . والظاهر أن أبا نواس كان يرى أن وصف الخمر والتجويد في معانيها وقف عليه لا حق لغيره فيه ، فكان اذا سمع في ذلك شعراً نادر المعنى لايلبث أن يسطو عليه فيسترقه ، فامـا أن ينسبه الى نفسه ويعرف له بين الناس واما أن يتصرف في صياغته فيدخله في شعره . فمن ذلك ما رواه ابو الفرج بسنده عن المغيرة بن محمد المهلبي قال :

« حدثنا الحسين بن الضحاك قال : أنشـدت ابا نواس لما حججـت قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي :

بدّلت مـن نفحات الورد بالـلاء ومن صـبوحك دار الابل والشاء

فلما انتهيت منها الى قولي :

حتى اذا اسندت في البيت واحتضرت عـنـد الصـبوح ببسـامين اكفـاء
نضت خواتيمهـا في نعت واصفهـا عـن مثل رقراقـة في جفن مرهـاء

قال فصعق ــ يعني ابا نواس ــ صـعقة افـزعتني وقال : أحسـنت والله يا أشقر[18] .

---

(١٧) الاغاني جـ ٦ ص ١٦٥ .
(١٨) كان الحسين بن الضحاك يلقب بالاشقر .

فقلت : ويحك يا حسن انك افزعتني والله • فقال : بلي والله أفزعتني وروعتني هـذا معنى من المعاني التي كان فكري لا بـد ان ينتهي اليها او اغوص عليها واقولها ، فسبقتني اليه واختلسته مني ، وستعلم لمن يـروى الي أم لك • فكان والله كما سمعت من لا يعلم يرويها له[19] •

وقد يكون مثل هذا من آثار الشعوبية التي كان ينزع اليها ابو نواس فيبعض احواله وفي بعض شعره ، ولم يكن الحسين ين الضحاك من هـذه النزعة في شيء فأرادت الشعوبية ان تنسـب فضـل ابن الضـحاك الـى ابي نواس •

وكان ابو نواس ربما اقتبس معنى من معاني غيره من الشعراء فـزاد فيه وعبر عنه تعبيراً جديداً ، كما فعل بشعر الحسين بن الضحاك اذ يقـول في وصف الخمر وكأسها :

تخالها نصب كأسه قمـرا   يكرع في بعض انجم الفلك

فأخذ ابو نواس الصورة الجميلة فأضاف اليها وغيّر فيها بعض التغيير فقال :

اذا عبّ فيها شـارب القوم خلتـه   يقبّل في داجٍ من الليل كوكبـا

* * *

وللحسين بن الضحاك شعر جيد في وصف الخمر ووصـف الساقي • وله على وصف مجالس الشراب قدرة عجيبة ، ولعله يفوق في ذلك ابا نواس ويعلو عليه .•فمن ذلك قوله يصف ليلة قضاها في مجلس شراب عند الواثق :

حيت صبوحي فكاهة اللاهي   وطاب يومي بقـرب اشباهي
فاسـتثر اللهـو من مكامنه   من قبـل يـوم منغّص لاه
بابنـة كرم من كفّ منتطق   مـؤزر بالمجـون تيّـاه

---

(١٩) الاغاني جـ ٦ ص ١٦٦ •

يسقيك من طرفه ومن يده سقي لطيف مجرّب داه[٢٠]
كأساً فكأساً كأنّ شاربها حيران بين الذّكور والساهي

والحسين بن الضحاك لا يعنى بالخمر لذاتها عناية ابي نواس بها ، ولا يعاطفها مثله ولا يغلو في وصفها غلوه ، ولا يمجدها ويتبتل اليها كما كان ابو نواس يفعل ، وانما تنصرف عنايته في الغالب الى ما حولها من مجلس يحوي أصنافاً من اللذائذ والمتع ، من الدعابة الحلوة الى التخلع في غير فاحشة ،الى الغناء الجميل ، الى الساقي الذي يسبيه دلّه وجماله . ولعل السبب في ذلك ان الحسين كان يقول اكثر شعره في هذا الموضوع استجابة لرغبة الخلفاء الذين كان ينادمهم ويعاشرهم ويشاركهم متعة تلك المجالس ، في حين كان ابو نواس يقول شعره في الخمر ارضاء لذاته وتعبيراً عن شعوره هو غير متأثر برغبة احد غيره ولا مستجيب الا لمشاعره الذاتية . ومن اجل ذلك يكاد ابو نواس يغني في الخمر ، ولا يكاد يحسن في شعره بما سواها .

أما الحسين بن الضحاك فهو يدلنا في شعره على التحول الذي اصاب وظيفة الشعر ومكانه في المجتمع فبعد ان كانت وظيفته الشعر في نظر الخلفاء ومن اليهم من اهل السلطان مدحاً لهم وتأييداً لسياستهم وهجاء لخصومهم ، اصبح الان حاجة حضارية الى درجة كبيرة تدخل الانس على الخلفاء وتستكمل بها المتعة بوصف مجالس الانس وصفاً يتناول اجزاءها ويبرز جمالها .

فمن قول الحسين يصف حانة الشط وهي مكان كان الواثق يتخذه للشراب واللهو :

يا حانة الشط قد اكرمت مثوانا عودي بيوم سرور كالذي كانا

---

(٢٠) لعله نظر في ذلك الى قول ابي نواس :
تسقيك ن طرفها كأساً ومن يدها كأساً فما لك من سكرين من بد

لا تفقدينا دعابات الامام ولا طيب البطالة اسراراً واعلانا
ولا تخالعنا في غير فاحشة اذا يطرّبنا الطنبور احيانا
وهاج زمر زنام بين ذاك لنا شجواً فأهدى لنا روحاً وريحاناً
وسلسل الرطل عمرو ثم عمّ به الـ ـسقيا فألحق اولانا بأخرانا
سقيا لشكلك من شكل خصصت به دون الدساكر من لذات دنيانا
حفّت رياضك جنّات مجاورة في كل مخترق نهراً وبستانا
لا زلت آهلة الاوطان عامرة بأكرم الخلق اعراقا واغصانا(٢١)

وهكذا اصبحت الخمر ومجالسها مصدر الهام للشعراء ، فكان شعورهم فيها مظهراً من مظاهر التجديد القيمة الاصلية ، وظاهرة من ظواهر التحول فيه من حيث اتجاهه الى الذاتية واتخاذه طريقاً للتعبير عن مشاعر الشعراء انفسهم ، ومن حيث انه اصبح حاجة حضارية تستكمل بها اسباب المتعة بعد ان كان ألصق بالجد الرزين الذي يعني بالامور العامة اكثر من عنايته بالمشاعر الذاتية وبالاستجابة للحضارة الجديدة .

وقد أعان شعر الخمر على ظهور فنون جديدة في الشعر العربي ، فقد ادى وصف مجالس الخمر الى وصف النديم والتغزل به ، فكان الغزل بالمذكر ووصف المجلس وما يحيط به من مناظر جميلة ادى الى اقبال الشعراء على وصف الطبيعة والتمتع بألوان الجمال فيها .

والذي يعنينا ويهمنا من ذلك ايضا هذا التجديد كان يستمد معينه من عناصر بغدادية أو عراقية أصيلة ، فقد بعث فيه الحياة وأمده بالقوة ما كان حول بغداد من القرى التي كان يسكنها العربان وسواهم من قدماء أهل بغداد ، تلك القرى التي كانت تجمع بين جمال الطبيعة واعتدال الهواء وبين توفر اللهو من الشراب وما يتصل به ، واصبحت بذلك موطن اغراء للشعراء

---

(٢١) يعني به الخليفة الواثق .

وسواهم من أهل اللهو والمتعة فكانوا يغشونها كثيراً ويتحدثون في أشعارهم حديثاً شغلهم بعض الشيء عن أن يعنـوا بذكر المواضع التقليدية التي ورث الشعراء ذكرها عن الجاهليين ، وأغراهم بالحضارة وترفها ، وصرفهم عـن البداوة التي لم يكونوا يشعرون بها .

٥ ـ الغزل بالمذكر

ومن أخطـر ظواهر التجديد في الشعر ما أصاب الغزل من أثر الحياة الجديدة في بغداد ، حيث فتحت للنـاس آفاق المتاع واللذة وهيـأت لهم أسبابها ويسرت لهم سبيل الحصول عليها . ومن هذه أنهـا جعلت من المرأة متاعاً موفوراً يناله الرجل بالمـال ، ويستطيع أن يتمتع به ألواناً من المتعـة عديدة مختلفة .

فقد كثرت الجواري والاماء والقيان كثرة عجيبة ، وأصبحن حاجة من الحاجات التي لايستغني عنها البيت المترف الذي يعنى أهله بجوانب الحياة اللاهية المرحة . وكانـت أسواق النخـاسين تعج بالجواري على اختلاف الأجناس والألوان ، من روميات وفارسيـات وغير ذلك . وكـان هؤلاء يعلمونهن الغناء ويروونهن الشعر ويقفونهن علـى جوانب من العلوم التي كانت شائعة في ذلك العصر ليغلوا في أثمانهن وليحظين بذلك عند أربابهـن.

وكانت بيوت الخلفاء وغيرهم مليئة بالجواري والمحظيات اللواتي ولدن لبعض الخلفاء ابناءهم ، فكانت ام الرشيد ام ولد ، وكذلك كانت ام المأمون.

وكان من نتائج ذلك ان ابتذلت المرأة وانحطت قيمتها ، واصبحت متاعا ينال بالمال ، وادى ذلك الى ان صارت العلاقة بينها وبين الرجل علاقة لـذة وتمتع عابر لا يستقر ولا يثبت ، فلم نعد نرى حبـاً كالذي كنا نعهـده في المجتمع العربي من قبل ، لان الحب يقتضي ان يكون بين المتحابين تناسب في المكانة الاجتماعية ، وجهد يبذله المحب في الحصول على محبوبه .

اما اثر ذلك في الشعر فقد كان واضحاً كل الوضوح ، اذ اصبح الغزل في الغالب غزلا مكشوفاً فيه مجون وفيه خلاعة وتهتك ، ولم يعد قارئه او سامعه يجد فيه حرارة العاشق الوفي ولهفة المحب المقيم على حبه ، وصار على الاكثر تعبيراً عن الشهوة سطحياً لا يغوص في قرارة النفس ولا يمس شغاف القلب ، ذلك لان تلك العاطفة لا تقوم الا في ظل من الحرمان من المحبوب او الجهد في نيل وصاله والتمتع بقربه ، ولا تتحقق الا اذا اجتمع لها العفة والاحترام والتقدير •

وكان اغلب النساء اللواتي يعجب بهن الشعراء إماءً اوقياناً يستطيع كل واحد ان ينال منهن ما يشتهي اذا شاء ، وكان الحصول عليهن ايسر بلا شك من معشوقات اسلافهم من الشعراء • يضاف الى ذلك ان دواعي العفة قد ضؤلت في هذا العصر او ضعفت ، وبخاصة عند الشعراء ، اذ كان فريق كبير منهم يرمى بالزندقة والمروق من الدين ولا يدين الا بمذهب اللذة كبشار ومطيع بن اياس وابي نواس ومن على شاكلتهم .•

ولم يعرف العصر العباسي شاعراً عاشقاً عفيفاً غير العباس بن الاحنف •

ولقد ادى ذلك كله الى ان ينحرف بعض الناس ـ ولا سيما طلاب اللذة من الشعراء ـ عن الحس الجنسي نحو المرأة لانها كانت شيئاً مبذولا ينالونه بلا مشقة ولا عناء ، فشاع في المجتمع العباسي حب الجنس او ما يسمى عند علماء النفس Homosexuality.

وتلك ظاهرة جنسية شاذة من غير شك ، نتجت من هذا الذي اشرنا اليه آنفاً ومن الاخلاط التي دخلت في المجتمع العباسي من الاقوام والاجناس المختلفة • يضاف الى ذلك مجالس الشراب التي كانت تحفل بالسقاة من الغلمان المخنثين الذين كانوا يتشبهون بالنساء في تصفيف الشعر وفي المظهر وفي اللباس والحركات ، وكان للنشوة التي تستولي على الندماء اثرها في اذكاء ميلهم الى هؤلاء الغلمان والاتجاه بالحس الجنسي نحوهم •

وقد تحدث ابو نواس عن هؤلاء ووصف بعضهم في الهمزية التي مر ذكرها فقال في ساقي الخمر :

يسعى بها خنث في خلقه دمث   يستأثر العين في مستدرج الرائي
مقرّط وافر الارداف ذو غنج   كأن في راحتيه وسم حناء
قد كسّر الشّعر واوات ونضّده   فوق الجبين وردّ الصدغ بالفاء

ووصف الحسين بن الضحاك الساقي بأنه مؤزر بالمجون تياه على الندماء فاتن ساحر ، يسقيك من طرفه كأساً ومن يده اخرى ، حتى يدعك من النشوة حيران •

وقد بلغ هذا الاتجاه عند الشعراء مبلغاً عجيباً ، فلم يعد يكفيهم ان يتغزلوا بالغلمان غزلا صريحا لا يخلو من استهتار وفحش ، بل لقد وصفوا المرأة احيانا بأوصاف الغلام ، كأن المرأة لم يعجبهم فيها الانوثة والرقة والخفر ، بل انحرفت اذواقهم فصاروا يعجبون فيهما بسمات الغلام في التقاطيع البارزة والقدّ المعتدل والتبذل في الحركات والحديث •

وقد وصف ابو نواس ساقية بأنها مذكرة مرة ، وانها انثى في زي الذكر في شعر لا تحسن بنا روايته •

ووصف الحسين بن الضحاك المرأة التي فتنته بأنها شبيهة بالغلام في تقاطيعها وفي قدها فقال :

رمتك غداة السبت شمس من الخلد   بسهم الهوى عمداً وموتك في العمد
مؤزرة السربال مهضومة الحشا   غلاميّة التقطيع شاطرة القدّ

ومن المهم ان نلاحظ ان التغزل بالغلمان شيء جديد على الشعر العربي لا عهد له به قبل المائة الثانية للهجرة • وكل ما نعرفه من وصف الفتيان بالجمال انما كان يجيء عند الشعراء في ثنايا المدح كقول الحماسي :

شكوت الي ما بي عبيلة فاشتكى الى حاله حالي أسرّ كما جهر
غلام رماه الله بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر
كأن الثريا علقت في جبينه وفي انفه الشعرى وفي خدّه القمر

ويبدو ان الغزل بالمذكر قد ظهر فيوقت مبكر من هذا العصر ، اعني في اوائل القرن الثاني . فمن ذلك قول حماد عجرد في غلام يقال له بشر :

اخي كفّ عن لومي فانك لا تدري بما فعل الحب المبرح في صدري
أخي أنت تلحاني وقلبك فارغ وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
أخي إن دائي ليس عندي دواؤه ولكن دوائي عند قلب أبي بشر
دوائي ودائي عند من لو رأيته يقلب عينيه لاقصرت عن زجري
فأقسم لو اصبحت في لوعة الهوى لاقصرت عن لومي واطنبت في عذري
ولكن بلائي منك انك ناصح وانك لا تدري بأنك لا تدري

وله فيه ايضا :

خليلي لا يفي أبدا يمنيني غداً فغدا
وبعد غد وبعد غد كذا لا ينقضي ابدا
له جمر على كبدي اذا حرّكته اتقدا

ولأبان بن عبدالحميد اللاحقي في هذا اللون من الشعر قوله :

ليتني والجاهل المغـ ـرور من غرّ بليت
قلت ممن لا اسمّي وهو جاري بيت بيت
قبلةً تنعش ميتاً انني حيّ كميت

ولوالبة بن الحباب غزل في ابي نواس اشهره الميمية التي تنسب لأبي نواس خطأ[٢٢] وأولها :

---

(٢٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢١٣ .

يا شقيق النفس من حكـــم نمـت عن ليلـي ولـم أنم
فاسقني البكر التي اعتجزت بخمـــار الشيب في الرحـم

ولأبي نواس في خمرياته كثير من وصف السقاة والتغزل بهم ، وقـد اتينا على طرف مما نستطيع ان نرويه من شعره في هذا الباب .

وثمة شاعر آخر من اصحاب ابي نواس من ارباب الخلاعة والمجـون هو يوسف بن الحجاج الثقفي ، وله في الغزل بالمذكر شـعر لا تليق بهـذا المقام روايته(٢٣) .

ويبدو ان هذا الطراز من الشعر قد بدأ بداية ساذجة فلم يكن يختلف عن الغزل المألوف الا بالمتغزل فيه ، اما الصـور والمعـاني فقد نقلت كمـا هي لم تتغير .

ثم اخذ هذا اللون الجديد من الغزل يستقل عن الغزل القديم في معانيه وفي صوره شيئاً فشيئاً . واول من نلحظ عنده هذا التطور من الشـعراء الشاعر المكنى بأبي العبر الهاشمي . فان له في هذا الضـرب من الشـعر ابياتاً فيها معان مبتكرة طريفة وفيها عاطفة تشبه ان تكون جديدة ، فيهـا شيء من الصدق والحرارة :

أيهـا الامـرد المولّع بالهجـ ـر أفق ما كذا سبيل الرشاد
فكأني بحسن وجهك قد ألـ بس في عارضيك ثوب حداد
وكأني بعاشـقيك وقد بدّلـت فيهـم مـن خلطـة ببعـاد
حين تنبو العيون عنك كما ينـ قبض السمع عن حديث معاد
فاغتنم قبـل ان تصير الى كا ن وتضحي في جملة الاضداد

وهذه الأبيات تدل على ان الفن الجديـد في الغزل قد استقر واتخذ

---

(٢٣) الاغاني جـ ٢٠ ص ٩٤ ــ ٩٥ .

مكانه بين الفنون الشعرية ، وأصبح الشعراء يتصرفون في معانيه فيجيدون ويبتكرون وينتزعون صورهم من الحياة الحضرية اللاهية .

ومن ذلك أيضاً قول أبي العبر :

داء دفين وهوى باد   أظلم فجازيك بمرصاد
يا واحد الامة في حسنه   أشمت بي صدك حسادي
قد كدت مما نال مني الهوى   اخفى على اعين عوادي

* * *

على أن شاعراً آخر قد برز في هذا الفن الجديد ففاق من سواه من الشعراء ، وشهد له ابو نواس أنه أشعر أهل زمانه فيه ، ذلك هو الحسين بن الضحاك .

وقد بلغ الغزل بالمذكر عند الحسين بن الضحاك فأصبح يوازي به الغزل القديم ويتصرف في معانيه ، فحكى قصصه مع الغلام الذي كان يتغزل به كما كان عمر بن أبي ربيعة يحكي أحاديثه وحوادثه مع النساء . مثال ذلك قوله :

وابأبي مقحم لعزته   قلت له إذ خلوت مكتتما
تحب بالله من يخصك بالـ   ـودّ فما قال لا ولا نعما
ثم تولى بمقلتيْ خجلٍ   أراد رجع الجواب فاحتشما
فكنت كالمبتغي بحلته   برءاً من السقم فابتدا سقما

وقد بلغ الحسين بن الضحاك من تمكنه من هذا الفن وتصرفه فيه أن صار يحسن التعبير به على لسان غيره من العشاق . يروى أنه كان مرة عند صالح بن الرشيد وكان هذا يهوى غلاما له فغاضبه في ذلك المجلس ، فطلب

الى الحسين أن يصف مجلسهم ، وما هو عليه(١٤) فقال الحسين :

وصف البدر حسن وجهك حتى خلت أني وما اراه اراكا
وإذا ما تنفّس النرجس الغض توهمته نسيم شذاكا
خدع للمنى تقلبني فيك بإشراق ذا وبهجة ذاكا
لأدومنّ يا حبيبي على العهد لهذا وذاك إذ حكياكا

ويلاحظ أن هذا الضرب من الشعر قد بلغ أشده عند الحسين بن الضحاك ، فأصبح يعبر عن عاطفة يجد حرارتها قارىء شعره ، عاطفة تشبه الى حد ما عاطفة العذريين وما فيها من الرضا بعذاب الحب والرغبة في الاقامة عليه تلذذا به وحرصا عليه ، والقلب الذي امتلأ بالحب حتى لم يعد فيه لغير الحب موضع ، في لهجة عفة لامجون فيها ولا افحاش .

مثال ذلك قوله :

لا وحبيك لا أصافح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استراح وإن كان موجعا
كبدي من هواك أسقم من ان تقطعا
لم تدع سورة الضنى فيّ للسقم موضعا

بل لقد فلسف الحسين بن الضحاك حبه ، فنسبه الى المشاكلة بينه وبين محبوبه ، وأنه هو واياه روحان يمتزجان ، وتتوافق منهما الحركات والأفعال . وهو ينحو في هذه المعاني مثل منحى الصوفية من بعده في اتحاد المحب بذات محبوبه وفنائه فيه ، فهو لايصدر إلا عن إرادته ولا يعمل إلا على وفاقه :

إن من لا أرى وليس يراني نصب عيني ممثل بالاماني

---

(٢٤) يراجع تاريخ بغداد لطيفور ص ٣٢٥ . والاغاني ج ٦ ص ١٧٦ .

بأبي من ضميره وضميري — أبداً بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرت وروحا — ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فاذا ما هممت بالامر او — بشيء بدأته وبداني
كان وفقاً ما كان منه ومني — فكأني حكيته وحكاني
خطرات الجفون منا سواء — وسواء تحرّك الابدان

ولعل لهذا المنحى الذي شهدنا الحسين بن الضحاك ينحوه في غزله بالمذكر علاقته بفلسفة الحب التي شاعت في ثقافة هذا العصر ، وتأثر فيها القوم بالافكار اليونانية . ولعل له اثره في تسامي هذه العلاقة القائمة على اتحاد الجنس ، حتى بلغت من العفة والسمو مبلغها العجيب عند محمد بن داود الظاهري صاحب كتاب الزهرة[٢٥] ، ثم اسلمت من بعد ذلك الى العلاقة المثلى او الحب الالهي عند الصوفية .

ومن اوضح ما يدل على ذلك ما نلحظه في بعض اشعار الحلاج من تأثر بمعاني الحسين بن الضحاك حتى كأنه اقتبسها منه .

مثال ذلك قول الحلاج :

انت بين الشغاف والقلب تجري — مثل جرف الدموع من اجفاني
وتحل الضمير جوف فؤادي — كحلول الارواح في الابدان

وقوله في ابياته المشهورة :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا — نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتني — وإذا أبصرتني أبصرتنا

ولعل اتحاد الجنس في هذا اللون من الغزل هو الذي جعله مرحلة وسطاً بين الحب الجنسي الالهي ، ولا سيما اذا لاحظنا أن افلاطون يجعل حب

---

(٢٥) لعل من المفيد ان اشير الى الكتاب الثاني من البحث الذي وضعته عن الحب العذري ، نشأته وتطوره ، وقد عني ببحث هذا الامر بقدر ما تيسر .

الرجال للرجال مرتبة أسمى وأعلى من حب الرجال للنسـاء ، ويراه أليق برجال الفكر والفلاسفة(٢٦) .

والحق ان عاطفة الحب من السعة بحيث تصدر عنها كل ألوان الحب ، وتشع من النفس الى كل ما يؤلف لديها ويؤثر عندها . ونفوس المحبين من الارهاف بحيث تألف وتحب ، حتى لاتكاد تكره شيئاً ، وقلوبهم من الصفاء بحيث تقبل كل صورة — كما يقول ابن عربي — . وليس حب الصوفية الا المرتبة العليا من مراتب هذه العاطفة حيث يصبح المحبوب ممثلا في كل شيء.

وهكذا يبدو أن الصوفية قد استعاروا من هذه الطائفة من شعراء الغزل طريقتهم في التعبير ، لانه لم يكن يحسن بهـم ان يعبروا عن المحبوب الاول بلفظ التأنيث ، فكان أسـلوب الغزل بالمذكر أدنى الى طبيعة المعـاني التي قالوا شعرهم فيها .

٦ — ثورة ابي نواس

ومن أهم ظواهر التجديد التي شهدها الشعر في بغداد ظاهرة تختلف عما سبق أن تحدثنا فيه مما يصح أن نسميه تجديدا تطورياً أو تجديداً سعى الى الشعر أو سعى اليه الشعر مدفوعاً بما أصاب الحياة العباسية من تحـول في السياسة وفي الحيـاة الاجتماعية والفكريـة والحضارية . هذه الظاهرة الجديدة كانت دعوة الى الثورة على القديم في الشعر والى التحلل من قيوده وتقاليده ، وأن يستوحي الشعراء أصولهم الفنية من الحيـاة التي كـانوا يحيونها ويحسونها ويشعرون بها .

وكان داعية هذه الثورة أبو نواس الشاعر الذي عاش في عصره بحق، وافتتن بالحياة الحضرية الجديدة افتتاناً ملك عليه مقاليد نفسه ، فنعى على الشعراء تمسكهم بما ورث الشعر من تقاليد الجاهلية كالوقوف على الأطلال

---

(٦) يراجع : Plato : Symposium

والبكاء على الآثار ومساءلة الدمن ووصف الصحراء والناقة التي تقطعها . ودعا الشعراء الى واقع حياتهم التي كانت تزخر بألوان من الجمال ، تثير العواطف وتذكي المشاعر وتستحق منهم ان يجعلوها دأبهم في الشعر فيكونوا فيه اصيلين صادقين لا مقلدين متكلفين .

وكان ابو نواس يأخذ على الشعراء ذكر الغابرين من البدو والاعراب وتمجيدهم اياهم واعجابهم بهم وبحياتهم ، وكان يصفها بالجدب دالجفاء . وقد كان يفعل ذلك اكثر ما يفعله في خمرياته ، فيذم حياة الاعراب ما شاء ، وينهى عن ذكرها الشعراء ، ثم يدعوهم الى العكوف على الخمر والتغني بمحاسنها والاقبال على مجالس شربها ووصف تلك المجالس والتمتع بها . وذلك في شعره كثير ، منه قوله :

دع الاطلال تسفيها الجنوب — وتبلي عهد جدّتها الخطوب
وخلّ لراكب الوجناء ارضاً — تحث بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهواً — ولا عيشاً فعيشهم جديب
ذر الالبان يشربها اناس — رقيق العيش عندهم غريب
بأرض نبتها عشر وطلح — واكثر صيدها ضبع وذيب
اذا راب الحليب فبل عليه — ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول — يطوف بكأسها ساق اريب

وكان يصرّح أحياناً بأسماء القبائل التي يسخر منها ويهزأ بحياتها فيقول :

عاج الشقي على رسم يسائله — وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد — لا درّ درّك قل لي من بنو اسد
ومَن تميم ومَن قيس ولفّهما — ليس الاعاريب عند الله من احد

ثم يوازن بين وصف الديار والاحجار والوقوف على الاطلال والآثار

وبين وصف الخمر في دساكرها فيقول :

كم بين ناعت خمر في دساكرهـا ... وبين بـاك على نؤي ومنتضـد
دع ذا عدمتك واشربها معتّقـة ... صفراء تفرق بين الروح والجسد
من كفّ مضطمر الزنّار معتدل ... كأنه غصـن بان غـير ذي اود

وقد وازن في قصيدة اخرى بين الرسوم الداثرة والديار المعطلة والاثافي والوتد وبين مجالس الخمر الممهدة بين الحدائق ، قد صفّقت نمارقها في ظل الكرم المعرّش الغض ، تلحفها الغصون النديـة ويحيط بهما الحسن مـن كل جانب . قال :

لا تبك رسماً بجانب السـند ... ولا تجـُـد بالدمـوع للجرد
ولا تعـرّج علـى معطّلـة ... ولا أثـافٍ خلت ولا وتـد
وملْ الى مجلس على شـرف ... بالكرخ بين الحـديق معتمد
ممهّد صـففّت نمـارقه ... في ظـل كـرم معرّش خضد
قد لحفتـك الغصـون أردية ... فيومـك الغضّ بالنعيم ندي
ثم اصطبح من امـيرة حجبت ... عن كل عين بالصون والرصد

ومن عجب ان ابا نواس لا يتذكر هذه المعاني او انها لا ترد في خاطره إلا إذا اخذ في وصف الخمر ومجالسها ، اذن يحمل لواء الثورة الجامحة التي تريد أن يستلهم الشعر من واقع الحياة الحضرية وما فيها من ألوان الجمـال والحسن . وهو لا يلبث ان ينسى تلك الثورة ويعرض عنها إذا مدح او هجا او افتخر في الاغلب الاعـم ، ولا يكـاد يتقيد بهـذه الدعـوة التي حمل رايتها إلا قليلا .

وقد افتتح بعض قصائده في المديح بوصف الخمر كما فعل في مدح العباس ابن عبيد الله بن ابي جعفر في قصيدته التي مرّ ذكرها وأولها :

غرّد الديـك الصـدوح ... فاسـقني طاب الصـبوح

وكان المنتظر أن يقلع هو عما نعى على الشعراء الاقامة عليه وتقليد الأقدمين فيه ، ولعله كان يحسب لقوة القديم حسابها ، فيراعي أذواق الخلفاء ويعمل على ارضائهم واكتساب اعجابهم بشعره ، ولعله من جانب آخر لم يستطع أن يغالب قوة القديم في تكوينه الشعري ، وفي ذوق عصره أيضاً •

بل لعل ثورته هذه لم تكن على حظ من الجد ، بل انها كانت نزوة من نزوات النشوة التي تهتز بها نفسه في مجلس الخمر فيكفر بما سواها ويثور عليه ويدعو الى نبذه والاعراض عنه •

ولم تمر هذه الثورة بالشعر والشعراء من دون أن تعف آثارها على أي حال .• فقد ترددت أصداء تلك الثورة التي لم تخلف آثارها عند أبي نواس في شعر شاعرين آخرين ، ولا نقول في كل شعرهما وانما ظهر التأثر بالحياة الجديدة واضحا في بعض القصائد •

وبينما كان أبو نواس يدعو الى هجر التقاليد البدوية في الشعر ثم لا يتقيد بذلك في مدائحه وما يجري مجراها ، كان مسلم بن الوليد قد ابتكر للوصول الى ممدوحه آلة حضرية أخرى ، وهجر الناقة سفينة الصحراء وركب اليه سفينة تمخر عباب الماء ، وقد وصفها ووصف النهر الذي مخر بها عبابه وصفاً جميلا وصوره تصويراً رائعاً •

أما الشاعر الآخر فهو الحسين بن الضحاك وقد وصف السفينة التي حملته في دجلة من بغداد الى سامراء حيث مقر الخليفة المعتصم الذي مدحه بتلك القصيدة •

وقد استنفد وصف السفينة ووصف النهر قصيدة مسلم أجمعها إلا بيتين أوجز فيها مدحته ايجازاً •

وقد افتتح قصيدته افتتاحاً خمرياً ولكن على طريقة غير طريقة أبي نواس فقال :

أديري علي الراح ساقية الخمر ولا تسأليني واسألي الكأس عن امري
كأنك بي قد اظهرت مضمر الحشا لك الكأس حتى اطلعتك على سري
هجرت الندامى خشية السكر إنما يضيع الفتى اسراره حالة السكر
ولكنني اعطيت مقودي الصبا فقاد بنات اللهو مخلوعة العذر
إذا شئت غاداني صبوح من الهوى وان شئت ماساني غبوق من الخمر

ثم يأخذ من بعد ذلك في وصف النهر الملتطم الأمواج وما يفعله الموج بالسفن الجاريات فيه ، فلا ينسى الصحراء وصورها بل يقول :

إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت جواريه او قامت مع الريح لا تجري
كأن مدّب الموج في جنباته مدب الصبا بين الرعاث من العفر

ثم يأتي بعد ذلك على وصف السفينة التي مخرت به عباب هذا النهر الى ممدوحه وصفا يحشد فيه على عادته كثيراً من الصور والتشابيه والاستعارات ، فيشبه السفينة بجارية يقودها النوتي مشفقا عليها ، كأنما يسير بها في جبل وعر :

كشفت أهاويل الدجى عن مهوله بجارية محمولة حامل بكر
لطمت بخديها الحباب فأصبحت موقفة الدايات مرموقة النحر
إذا أقبلت راعت بقنة قرهب وان أدبرت رامت بقادمتي نسر
تجافى بها النوتي حتى كأنما يسير من الاشفاق في جبل وعر
تخلج عن وجه الحباب كما انثنت مخبأة من كرّ ستر الى ستر
أطلّت بمجذافين يعتورانها وقوّمها كبح اللجام من الدبر
فحامت قليلاً ثم مرّت كأنها عقاب تدلت من هواء على وكر

ثم يصور ملاحها القوي المتين الذي يعاصيها ويطاوعها ، وكيف يسوسها اذا عصت حتى يتمكن منها ، ثم يصورها وهي تواجه نسيم الصبا وتتهادى في سيرها مشي العروس الى الخدر :

أناف بهاديها ومدّ زمامها شديد علاج الظهر معتمل الظهر

اذا ما عصت ارخى الحرير برأسها ... فملكها عصيانها وهي لا تدري
كأن الصبا تحكي بها حين واجهت ... نسيم الصبا مشي العروس الى الخدر

ثم ينتهي بعد ذلك الى المدح فيوجزه بهذين البيتين :

تؤم محل الراغبين وحيث لا ... تراد اذا حلت بها ارحل السفر
ركبنا اليه البحر في مؤخراته ... فأوفت بنا من بعد بحر الى بحر

أما الحسين بن الضحاك فقد وصف السفينة التي حملته من بغداد الى سامراء وصفا يبدو أنه عقب به على المديح على خلاف مافعل مسلم بن الوليد. فقد اتبع هذا اسلوب القدماء في وصف الراحلة التي يركبونها الى الممدوح تمهيداً للخوض في المديح .

وليس في ما يرويه صاحب الأغاني من قصيدة الحسين بن الضحاك من المدح الا بيت واحد هو البيت الاول الذي يتخلص منه الى وصف السفينة حيث يقول :

الى خازن الله في خلقه ... سراج النهار وبدر الظلم
رحلنا غرابيب زغافة ... بدجلة في موجها الملتطم
اذا ما قصدنا لقا طولها ... ودهم قراقيرها تصطدم
سكنّا الى خير مسكونة ... تيممها راغب من امم
مباركة شاد بنيانها ... بخير المواطن خير الامم
كأن بها نشر كافورة ... لبرد نداها وطيب النسم
كظهر الاديم اذا ما السحا ... ب صاب على متنها وانسجم
مبرّأة من وحول الشتاء ... اذا ما طمى وحله وارتكم
فما ان يزل بها راجل ... يمر الهوينا ولا يلتطم
ويمشي على رسله آمناً ... سليم الشراك نقي القدم

وللنـــون والضب في بطنها		مراتع مســـكونة والنعـــم
غدوت على الوحش مفترة		روائـــع في نورها المنتظم
ورحـــت عليهـــا وأسرابها		تحـــوم بأكنافهـــا تبتسم

على ان هذه الظاهرة لم يقيض لها الاستمرار ، ولم تجد من الشعراء من ينساب في هـــذا التيار الذي انســـاب فيه مسلم بن الوليد ، فلم يحاول الشعراء بعد ذلك ان يجاروه في هذا التجديد ويستمروا فيه ، وكأن تقاليد الشعر القديم كانت أقوى من أن تزلزلها ثورة أبي نواس ودعوته الى التحرر منها والاعراض عنها والاقبال على مظاهر الحياة الجديدة ، ولعل من أسباب ذلك أن القديم كان يستمد القوة من السلطان كما أسلفنا وكان يستنـــد في بقائه الى الحركة العلمية التي قامت على مدارسة القديم وتدوينه وتذوقه.

وثمة أمر جدير بالاهتمام خليق بالتنويه ، وهو ان الثورة التي حمـــل لواءها بعض الشعراء لم تكن على جانب من القوة بحيث تفرض نفسها على التقاليد القديمة متمثلة في السلطان أحيانـــا ، وفي حركةاحياء القديم أحيانا اخرى . ولعل من اسباب ذلك ان دعاة تلك الثورة لم يتمسكوا بهما ولـــم يجدّوا فيها ولم يكونوا من المنزلة الاجتماعية بحيث يستجيب لهم المجتمـــع في توجيه حياته الادبية والاجتماعية . وليس من شك في ان تقاليد الشـــعر القديمة كانت مرتبطة ببعض التقاليد الاجتماعية بحيث يحمي بعضها بعضـــا اذا تهدده خطر او نزلت به نازلة .

وليس يعني ذلك بحال من الاحوال ان الجديد قد خمدت جـــذوته وخبا شعاعه ، فان ذلك يخالف طبيعة الاشياء ويصادم طبيعة التطور في الفنون وفي مظاهر النشاط الانساني على وجه العموم . وانما نعني بانتصار القديم عودة الشعر العربي الى اصوله الاولى ، تلك الاصول التي لو انه فارقهـــا وخرج عنها لما عاد شعراً عربياً . اراد له بعض الثائرين من شعراء القـــرن الثاني ان يصير الى ذلك من حيث يشعرون او لا يشعرون .

بقي علينا ان تتساءل : ماذا كان مصير الفنون الجديدة ، وماذا اصابها من التطور والتحول ؟ وهل قضي على تلك المراحل التي قطعها الشعر في التطور ان تنكمش او تندرس •

وفي الجواب على ذلك نقول : إن الفنون الجديدة التي استحدث بعضها شعراء القرن الثاني ، وتحولوا ببعضها عن سبيله الاولى قد صارت الى احد مذهبين : الاول انتقالها الى فن آخر من فنون التعبير هو اخلق بها ، وادنى الى طبيعتها ، وتلك هي الموضوعات المتعلقة بالفلسفة والحكمة والجدل المذهبي وما يجري مجراها • وقامت بها رسائل المتكلمين ومناظراتهم وكتبهم •

والثاني انها تسربت خلاصتها وزبدتها الى الشعر معاني طوّعها الشعر لطبيعته العاطفية والفنية ، فخرجت منها حكمة ابي تمام والمتنبي وابي العلاء المعري (في سقط الزند) •

اما ما سوى ذلك فقد كان التجديد فيه استجابة لظروف مؤقتة ، حتى اذا زالت تلك الظروف انكمش ظل تلك الموضوعات الجديدة وانحسر وتوارى ، مثال ذلك ، تلك الموضوعات التي خلقتها حياة الترف والدعة والاستقرار كالاغراق في وصف الخمر ووصف حياة المجون التي كان يحياها المجتمع البغدادي قبل النزاع على الخلافة بين الامين والمأمون •



الفصل الثاني

الجديد في الصورة والاسلوب

كانت دواعي التجديد في هذه الحقبة التي نبحث فيها من القوة بحيث لم يكفها ان يجدد الشعراء في الافكار والموضوعات ، فحملتهم قوّة الجديد احيانا على التجديد في صورة الشعر وفي مظهره وفي اسلوبه .

وكانت بواعث التجديد فيصورة الشعر واسلوبه على ضربين : احدهما ذاتي اندفع اليه الشعراء رغبة في الجديد وسعيا وراءه ، كتجديد الشعراء في الاوزان وابتكارهم فيها ابتكارا اعانت عليه الحياة الفنية ، ومـا اشــاعته الموسيقى من صقل لاذواق الشعراء وامدادهم بالجديد من الانغام .

والثاني موضوعي فرضته على الشعراء بعض مظاهر التطور والتقدم في الحياة الفكرية والحياة الحضرية . فمن ذلك ما نلحظه عند فريق من شعراء القرن الثانيوبعض شعراء القرن الثالث من جنوحهم الى السهولة في الاسلوب سهولة بلغت عند بعضهم مبلغ العامية . ومن ذلك ايضا ما نشهده عند طائفة اخرى من الشعراء تأثرت بالحضارة في صور التعبير ، فعمدت الى التجميـل والتزويق واستخدمت في التعبير الصور البيانية المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية وما الى ذلك . وظهرت عندها العناية بالصناعة اللفظية من مجانسـة بين الالفاظ ومطابقة وتورية ونحو ذلك .

ومما تجدر ملاحظته في هـذا الباب ان شـعراء القرن الثاني كانوا في الغالب مفتونين بالتجديد مقبلين على الحياة الجديدة مندفعين في التأثر بهـا

الى مدى بعيد ، في حين ان شعراء القرن الثالث او اغلبهم كانوا اقل حماسة للتجديد واحرص على التزام الطرق الفنية التي ألفها الشعر العربي من اقدم عصوره ، وبخاصة في الاسلوب وفي طريقة التعبير •

ولعل لما أشرنا اليه من العكوف على احياء القديم بالرواية في أواسط القرن الثاني وأواخره واشتداد النشاط العلمي الذي يقوم على ذلك وظهور النقاد الذين كانوا لا يرون التقديم إلا للقدمـاء ، أقول لعل لذلك كلـه أثره في العودة الى التقليد واتباع القديم ، بعد ذلك الاقبال العنيف علـى التجديد •

وكان أعـلام المجددين في الموضوع وفي الاسلوب معا ممن عاشوا في القرن الثاني كبشار وأبي نواس وأبان وأبي العتاهية ومن اليهم • وكـان المحافظون الذين عادوا بالشعر الى صورته الاولى من رجال القرن الثالـث على وجه العموم وعلى رأسهم أبو تمام والبحتري •

ونحن لا نكاد نشهد في القرن الثالث من المجددين الذين ورثوا ذلك الاندفاع الى الجديد إلا واحداً من الشعراء ، كان فيما يبدو رد فعل للمحافظة وهو ابن الرومي ، ولعله كان كذلـك لطبيعته الانطوائية التي جعلته بعيداً عن الاتصال بالحياة العامة وما أثرت في عودة الشعر الى قديمه ــ كمـا أسلفنا ــ ، يضاف الى ذلك أنه كان أعجمي النزعة تياهاً بأصله غير العربـي، مما دعاه الى متابعة أسلافه من شعراء القرن الثاني •

وسنعرض في هذا الجزء من البحث لأهم مظاهر التجديد العامـة في الصورة وفي الأسلوب ويمكن أن نحصرها فيما يأتي :

أولا ــ محاولة التجديد في الأوزان ، وقد كان أول من حاول ذلك من الشعراء في ما نعلم أبو العتاهية وتبعه في ذلـك شاعر آخر من شعراء القرن الثالث هو رزين العروضي •

ثانياً — سهولة الأسلوب ، وقد كانت ظاهرة واضحة في طائفة من شعراء القرن الثاني دعاهم اليها التجديد في الموضوع ، والاتصال الوثيق بالحياة العلمية ، والرغبة الخفية في التحرر من قيود القديم ، وعجز الأسلوب الشعري المألوف عن الوفاء بالتعبير عن المعاني الجديدة التي تأثروا فيها بالثقافة الجديدة .

ثالثاً — البديع ، وقد كان تجديداً من وجه وتقليداً من وجه آخر ، فهو في الحقيقة ليس إلا إكثاراً من فنون في التعبير عرفها الشعر العربي قديماً ، وهو من ناحية أخرى تجميل في الأسلوب تأثر فيه الشعراء بمظاهر الحضارة كما سبق بيانه .

وقد صحبه عند هـؤلاء المتفنين من الشعراء عودة الى نظام القصيدة الأول والى موضوعاتها المألوفة ، وكأن هؤلاء قد شغلوا بالتجديد الجزئي في المعاني وفي الصورة والأسلوب عن التجديد العام الذي عرفناه عند الطائفة الأخرى من الشعراء .

١ — الاوزان الجديدة

وقد كـان مبدأ التجديد في الأوزان أن الشعراء أخذوا يميلون الى الأعاريض القصيرة التي تلائم الغناء وتناسب أغراض الشعر الجديدة . وكانوا يقصدون في ذلك الى الخفة والاطراب ، إذ إن البحور الطويلة لا تصلح في الغالب إلا للانشاد في المحافل والتأثير في السامعين إثارة للحماسة واستدراراً للاعجاب . وقد جد في الشعر ما أخرجه عن هذه الدائرة منذ أن أصبح الشعر حاجة غنائية وحضارية ، ومنذ أن غادر ، الى حد كبير ، محافله المشهورة كعكاظ والمربد ، وصار فاكهة في المجالس يتملح بها ، أو غناء يؤديه المغنون والقيان .

وقد سبق الى التأثر بذلك شعر الحجاز، فأكثر الشعراء الحجازيون من

الأوزان القصار حتى أنهم لم يقتصروا فيها على موضوعات وأغراض بعينها، بل صاروا يستخدمونها في الاغراض على اختلافها ، مثل عبدالله بن قيس الرقيات الذي رثى مصعب بن الزبير بقصيدة من مجزوء الكامل يقول فيها :

ان الرزية يوم مسكن والمصيبة والفجيعه
بابن الحواريّ الذي لم يعدُه أهل الوقيعه

وكان الوليد بن يزيد ومن عاصره واتصل به من شعراء الكوفة ينهجون هذه السبيل ، فيكثرون في أشعارهم من استخدام الأوزان الملائمة للغناء ، المناسبة في رقتها وخفتها لحياة اللهو والانس التي كانوا يحيونها ، والمعاني التي كانوا يقولون شعرهم فيها .

ولكن الذي يبدو للباحث واضحاً محققاً في هذا الامر أنه لم يحاول أحد من الشعراء التجديد في العروض وابتكار بحور جديدة لم يحط بها عروض الخليل بن أحمد خبرا . وأن أول من حاول ذلك من الشعراء أبو العتاهية . وقد كان أبو العتاهية مطبوعاً في قول الشعر ، أو بعبارة أدقّ كان مطبوعاً في وزن الكلام وتقفيته ، وتلك من غير شك موهبة فنية خطيرة . وكان ابو العتاهية لموهبته هذه قديرا على أن يقول الشعر في أوزان لم يعرفها العروض. وقد كان هو يشعر بذلك ويتيه به فخرا ، حتى إن سئل مرة : « هل تعرف العروض ؟ » فأجاب جواب المعتد بنفسه المُدِلّ بموهبته الفنية في وزن الكلام : « انا اكبر من العروض »(١) .

ويروي ابن قتيبة أن أبا العتاهية قعد يوماً عند قصار ، فسمع صوت المدقة ، فحكى ذلك في ألفاظ شعره فقال :

للمنون دائرات يدرن صرفها
هن ينتقيننا واحداً فواحدا(٢)

---

(١) الاغاني ج ٣ ص ١٢٧ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٣٠٩ .

وهذا يدل على أذن حسّاسة مرهفة الحس تتصيد الأنغام وتتلقفهامن كل مكان وفي كل حين .

ومن أوزانه الجديدة ايضاً هذه الأبيات :

عتـب مـا للخيـال خبـرني ومـالي
لا اراه أتـانـي زائـراً مـذ ليـالي
لـو رآنـي صـديقي رق لـي او رثـى لـي
أو يـراني عـدوّي لان مـن سـوء حـالي

وذكر المسعودي أن لأبي العتاهية أشعاراً خرج فيها عن العروض مثل قوله :

هـمّ القـاضي بيت يطـرب قـال القاضـي لمـا عوتـب
مـا في الدنيـا الا مذنـب هذا عـذر القاضي واقلب[3]

وكان من شعراء القرن الثالث شاعر يقال له رزين العروضي ، وهـو معروف عند مؤرخي الشعر بأنه كان يجيد الصناعـة اللفظية ويعنى بهـا في شعره ويأتي من ذلك بالغريب النادر كأن يجعل قصيدته كلها على الحروف المهملة فلا يكون في كلماتها حرف معجـم الى غير ذلك من مظاهر البراعـة في نظم الكلام[4] .

ولرزين هذا قصيدة مدح بها الحسن بن سهل ومـات قبل ان ينشده اياها . وقد اشتهرت وشاعت وصـارت مثلا بين النـاس[5]. وأول هذه القصيدة نسيب على طريقة القدماء يقول فيه :

---

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦٠ .

(٤) الاغاني ج ٤ ص ١٠٦ وقد مرت الاشارة الى ذلك في الكلام على قصيدة ابن هرمة التي نظمها على الحروف المهملة .

(٥) معجم الادباء لياقوت الحموي ج ١٥ ص ٢٦٥ .

قرّبوا جمالهم للرحيل غدوة أحبتك الاقربوك
خلّفوك ثم مضوا مدلجين منفرداً بهمك ما ودّعوك

ومنها في المدح قوله :

من مبلغ الامير أخي المكرمات مدحة محبّرة في ألوك
تزدهي كواسطة في النظام فوق نحر جارية تستبيك
يا ابن سادة زُهُر كالنجوم أفلح الذين همُ أنجبوك
اذ نعشت مدحهمُ بالفعال محيياً سيادة ما اوّلوك[6]
ذو الرياستين[7] أخوك النجيب فيه كل مكرمة وفيك
لم تزالا حياً للبلاد والعباد ما لكما من شريك
أنتما إن أقحط العالمون منتهى الغياث ومأوى الضريك
يا ابن سهل الحسن المستغاث وفي الوغى إذا اضطرب الفكيك
ما لمن ألح عليه الزمان مفزع لغيرك يا ابن الملوك
لا ولا وراءك الراغبين مطلب سواءك[8] حاشا أخيك

قال ياقوت : والقصيدة غريبة العروض[9] . وهي كذلك في الواقع ثم إنها مليئة بالزحاف كما في قوله :

ذو الرياستين أخوك النجيب فيه كل مكرمة وفيك

وفي قوله :

يا ابن سهل الحسن المستغاث وفي الوغى إذا اضطرب الفكيك

---

(٦) ضبطها ناشر المعجم هكذا (اولوك) بتسكين الواو ولا يستقيم الوزن ولعل الصحيح تشديدها من (أول) .
(٧) ذو الرياستين هو أخوه الفضل بن سهل وزير المأمون وصهره .
(٨) في معجم الادباء « سواك » ولا يستقيم الا بالهمز .
(٩) معجم الادباء جـ ١٥ ص ٢٦٦ .

ومما يجدر بنا أن محاولات التجديد في الأوزان لم تكن على جانب كبير من الجدّ ، ولا كان لها من اثر في جاء بعدُ من الشعراء .

وتلك ظاهرة تدل على أن القوم لم يكونوا يشعرون بالحاجة الملحةالى ذلك التجديد ، فكانت محاولاتهم فيه ضرباً من التفكهة ، أو أن عروض الخليل قد استنفد كل ما يمكن من الصور الموسيقية حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يضيف من بعده شيئاً . وأحسب أن الأمر الثاني قويّ الاحتمال ، لأن هذه الأوزان التي يذكر مؤرخو الشعر أن أبا العتاهية ورزيناً العروضي قد أبدعاها ليست في الواقع خارجة عن دوائر العروض التي وضعها الخليل .

فالوزن الذي وضعه ابو العتاهية على غرار صوت المدقة ونظم فيه قوله:

للمنون دائرات يدرن صرفها

ليس إلا ضرباً من مجزوء الرَمَل .
وكذلك قوله :

عتبَ ما للخيال خبّرني وما لي

إن هو إلا ضرب من مجزوء الخفيف .

أما البيتان اللذان ذكر المسعودي ان ابا العتاهية خرج فيهما عن العروض وهما :

هم القاضي بيت يطرب .... الخ

فانهما من البحر السادس عشر الذي عرف بالمتدارك ، تداركه على الخليل تلميذه الاخفش .

أما قصيدة رزين العروضي فهي من المتقارب محذوفا منه سببان في

اوله احدهما خفيف والثاني ثقيل . فالبحر المتقارب وزنه هكذا :

فعولن فعولن فعولن فعولن في الشطرين .

وبحذف السببين الاولين يخرج وزن قصيدة رزين ، واذن فليس فيها جديد .

ونحن إذا استثنينا ميل بعض الشعراء في الحجاز والشام والعراق الى البحور القصيرة الملائمة للغناء لا نكاد نحس للتجديد في اوزان الشعر اثراً ذا قيمة ، تمليه على الشعراء طبيعة الموضوعات التي جرت في تطور الشعر من فن إنشاد في محافل ومجامع الى فن غناء في مجالس الانس ، او يدفعهم اليه التأثر بالحضارة التي تصقل الاذواق ، وتلفظ من بحور الشعر ما تستخف الاذن موسيقاه ولا تأنس الى وقعه .

ونعود مرة اخرى فنقول ان دراسة الاعاريض من حيث ارتباطها بموضوعات الشعر وعلاقتها بفنونه تستحق جهداً يستقل بها ، فيكشف عن هذا الجانب الفني في الشعر ويقف الباحثين فيه على معالمه العامة في الاقل .

٢ ـ سهولة الاسلوب

وكانت طبيعة التجديد في الموضوعات ـ مما لم يكن يألفه الشعر العربي في سابق عهوده ـ تدعو الى تجديد مماثل في الاسلوب ، يضاف الى ذلك بعض الظروف الاجتماعية التي قضت على الشعر ان يسايرها وان يخضع لها . كذلك كانت الحياة العقلية وما حدث فيها من تطور سريع يشبه ان يكون وثبة . فقد قضت على الشعر ـ باعتباره مظهراً من مظاهر الحياة النفسية والعقلية ـ ان يلاحقها وان يحاربها في معانيه وفي اسلوبه .

وهكذا شهد القرن الثاني ما يستطيع الباحث ان يدعوه انقلاباً في اسلوب الشعر وتجديداً خطيراً فيه . وذلك يتمثل في شيوع السهولة وإيثار

البساطة ، والتحلل من قيود الصنعة الفنية في اسلوب الشعر .

وظهر بين الشعراء من يبهر الناس بسرعته في قول الشعر وقدرته العجيبة على وزن الكلام ، واهتزت مقاييس النقد ـ نقد الشعر ـ لهذه الظاهرة الجديدة ، فتأثرت بها تأثراً زاد في غرابته عليها ، فأصبحت سهولة الشعر وقرب مأخذه محل الاعجاب عند طائفة من النقاد وموضع الانتقاد عند آخرين .

وليست السهولة في اسلوب الشعر بالامر الغريب الذي لم يعهده الشعر العربي من قبل ، بل إن له في ماضي هذا الشعر سابقة تشابهت في بعض ظروفها بما حدث في هذه الحقبة التي نحن بصدد الكلام عليها .

فقد كان عمر بن ابي ربيعة ـ وهو الذي سلك في غزله طريق القصص وحكاية احاديث النساء ـ اول من فكك اسلوب الشعر وقصم جزالته وطعنها في موضع القلب . وقد حمله على ذلك صدقه في نقل احاديث النساء او اتقانه التشبه بهن وقدرته على ان يتلبس طبيعة المرأة في احاديثها ، فكان لزاماً عليه ان يحول عن التعبير القوي والاسلوب الجزل المتين الى اسلوب رخو لين الاعطاف تتمشى انوثة المرأة في ثناياه ، وتجافيه طبيعة التفنن والتأمل التي لا توافق نقل الحديث العابر وحكاية الاحاديث الهازلة البعيدة عن الجد .

وقد ظهر في القرن الثاني شبيه لابن ابي ربيعة في التخنث والقرب من طبائع النساء ومجافاة الرجولة ، فكان لا بد ان يظهر اثر ذلك في شعره واضحاً . على انه لم يبلغ في غزله مبلغ ابن ابي ربيعة في الاجادة والاطراف . ذلك هو ابو العتاهية الشاعر الذي كان في اول امره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين ، ثم تعلق بعتبة جارية الخيزران ـ هام بهما هياماً شديداً ، فصار يبثها في شعره وجده وهيامه ، ويستعطف المهدي والرشيد ان يجمعا

بينه وبينها فكانت هي تتأبّى وترجو مولاها ان لا يفعل ذلك بها ، فكان ذلك يزيده بها شغفاً ولها استعطافاً .

ولابي العتاهية في عتبة شعر لين الاسلوب سهل العبارة يكاد يبلغ في سهولته وفي لينه مبلغ العامية ، ويخرج عن المألوف في اساليب الشعراء . فمن قوله فيها ــ وهو عند بعض مؤرخيه من مختار شعره[١٠] :

بالله يا حلوة العينين زوريني	قبل الممات وإلا فاستريريني
هذان أمران فاختاري أحبهما	إليك او لا فداعي الموت يدعوني
إن شئت موتاً فأنت الدهر مالكة	روحي وإن شئت أن أحيا فأحييني
يا عتب ما انت إلا بدعة خلقت	من غير طين وخلق الناس من طين
إني لاعجب من حب يقربني	ممن يباعدني عنه ويقصيني
يا أهل ودي إني قد لطفت بكم	في الحب جهدي ولكن لا تبالوني
الحمد لله قد كنا نظنكم	من ارحم الناس طرّاً بالمساكين
أما الكثير فلا أرجوه منك ولو	اطمعتني في قليل كان يكفيني

وقد كان ابو العتاهية يسف في غزله أحياناً حتى يهبط بأسلوبه وتراكيبه الى العامية المبتذلة ، ويرسل القول على عواهنه فلا يبالي كيف يخرج شعره، ويجاري طبعه القريب من طبائع النساء فلا يعارضه ولا يستبعد مما يأتيه في ذلك شيئاً . مثال ذلك قوله في عتبة أيضاً :

يا عتب سيدتي أما لك دين	حتى متى قلبي لديك رهين
وأنا الذلول لكل ما حمّلتني	وأنا الشقي البائس المسكين
وأنا الغداة لكل باك مسعد	ولكل صب صاحب وخدين
لا بأس إن لذاك عندي راحة	للصبّ أن يلقى الحزين حزين
يا عتب اين افرّ منك أميرتي	وعليّ حصن من هواك حصين

(١٠) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤١ .

وهكذا كان يخرج غزله مبتذل المعاني في أسلوب لين رخو لايخلو من الفضول ولا يتبين فيه لفن التعبير من أثر •

ولعل من الأسباب التي حملته على ذلك أنه كان يتغزل بجارية ، وكان يظن أن هذا الطراز من القول هو الـذي يؤثر عندها ويخالط قبلها ويعطف عليه مودتها •

لقد كان أبو العتاهية في هذه الطريقة لاحقاً مقلداً أو مواطئا مشبهـا لعمر بن أبي ربيعة الى حد بعيد •

ولكن ثمة مظهراً آخر من مظاهر السهولة في الأسلوب كان أبو العتاهية فيه مجدداً لم يسبقه الى التجديد أحد ، وكان يشركه في ذلك جماعة مـن معاصريه من الشعراء نهجوا سبيله واتبعوا مذهبه •

فقد تأثر الشعراء في هذا القرن بالحياة العقلية وشاركوا فيها ، وظهرت آثار ذلك في شعرهم واضحة جلية ، وجدّت في هذا العصر معارف وافكـار بعضها أجنبي دخيل وبعضها أصيل مستمد من تطور الحياة العقلية ، فخلبت تلك المعارف والأفكار ألباب الشعراء وحاولـوا أن يدخلوها في أشعارهم ليدلوا بذلك على مشاركتهم فيما كـان يجري من النشـاط العقلي الواسع العنيف •

ولم يكن الشعر بأسلوبه القديم ليتحمل التعبير عن تلك الأفكار ، فكان لزاماً على الشعراء أو على بعضهم أن يخضعوا أسلوبه لذلك وأن يسلكوا في ذلك مسلكاً لم يخل من تحيف على فن الشعر وانحراف به عن طبيعته ولا سيما في محاولاتهم الأولى • فتجرأوا على أسلوب الشعر وأرادوا أن يذللوه للمعاني العقلية والافكار الفلسفية التيلا يصلح الشعر لها إلا بعد ان يتمثلها تمثلا يجعلها تساير طبيعته العاطفية وتجاريها •

وكـان أول من جرؤ من الشعراء على ذلك أبو العتاهية فقد جعـل

موضوع شعره الأول الحكمة والزهد في الدنيا والدعوة الى التنسك والاعراض عن ملذات الحياة والتذكير بما بعد الموت •

ومعلوم أن فلسفة الحياة والموت والزهد والحكمة وما يتصل بذلك موضوعات ومعان هي أخلق بالنثر منها بالشعر ، ولا سيما بعد ان تطرق اليها القرآن وأفاض في التعبير عنها • وبعد أن ظهر النثر في قصص القصاص والوعاظ وجدل المتكلمين ، فألفت فيه الرسائل وكتبت الكتب ، فكان على الشعراء الذين أرادوا أن يسهم شعرهم بنصيبه في هذه الحركة الفكرية أن يجعلوه ـ في أسلوبه ـ مرتبة وسطاً بين الشعر والنثر ، بل هو الى النثر أقرب منه الى الشعر •

وهكذا كان أبو العتاهية في شعره مرحلة بين الشعر في أسلوبه الفني المألوف ، الذي يتحرى الجمال في طريقة التعبير ، وبين النثر المنطلق من القيود الفنية القادر على التعبير عن الأفكار بكل حرية •

ومن عجب أن أبا العتاهية كان يحس أنه يسلك هذه السبيل في شعره مجدداً يسن فيها طريقة تفرضها طبيعة موضوعه ، وتدعو اليها طبيعة الحياة الاجتماعية التي جعلت من الشعر متاعاً بين الطبقات المختلفة ، وهو يصرح بأنه إنما يفعل ذلك إرضاء لاذواق العامة من الناس واكتساباً لاعجابهم ، لان هؤلاء لا يعجبون إلا بما يفهمون ، ولا بد له من اجل ذلك ان يهبط بأسلوب شعره الى مداركهم وافهامهم واذواقهم •

تحدث ابن ابي الابيض فقال : اتيت ابا العتاهية فقلت له : إني رجل أقول الشعر في الزهد ولي فيه اشعار كثيرة ، وهو مذهب استحسنه لاني ارجو ان لا آثم فيه ، وسمعت شعرك في هذا المعنى فأحببت ان استزيد منه فأحب ان تنشدني من جيد ما قلت • فقال : اعلم ان ما قلته رديء • قلت : وكيف ؟• قال : لان الشعر ينبغي ان يكون مثل اشعار الفحول المتقدمين او

مثل شعر بشار وابن هرمة ، فان لم يكن كذلك فالصواب لقائله ان تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولاسيما الاشعار التي في الزهد فان الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد واصحاب الحديث والفقهاء واصحاب الرياء والعامة . واعجب الاشياء اليهم ما فهموه(11) .

ويشعرنا كلام ابي العتاهية انه اتخذ هذه الطريقة في الشعر لانه اراد ان يتقدم بين معاصريه من الشعراء وان يشتهر بينهم ، وما كان له ان يشتهر في طريقة الفحول المتقدمين ولا في طريقة بشار وابن هرمة ، فهو على ما يظهر من سيرته ومن شعره قليل الحظ من الرواية ، واهن الصلة بالقديم . ولولا انه كان كذلك لجمع بين السهولة في الاسلوب والفنية فيه ، كما اجتمع ذلك لابن الرومي من بعده .

وكان ابو العتاهية من اجل ذلك يذهب في الشعر مذهباً غريباً ويرى فيه رأياً ينحط به عن منزلته الفنية المعروفة ، فهو يزعم ان الشعر هو الكلام الموزون المقفى ليس غير . وكان يقول : اكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون ولو احسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم . وسمع رجلا يقول لآخر عليه مسح : « يا صاحب المسح تبيع المسحا » فقال ابو العتاهية : هذا من ذلك (12) . ويروى عنه انه كان يقول : لو شئت ان اجعل كلامي كله شعراً لفعلت (13) . .

ولذلك كان ابو العتاهية يكثر من الشعر إكثاراً ادهش معاصريه وحملهم على الاعجاب به ، حتى قدمه كثير من شعراء عصره على انفسهم .

وكان ابن الاعرابي وهو معروف بشدته في التعصب للقديم يقول فيه:

---

(11) الاغاني ج ٣ ص ١٥٥ .
(12) الاغاني ج ٣ ص ١٤٠ .
(13) نفسه ص ١٢٧ .

« والله ما رأيت شاعراً قط اطبع ولا اقدر على بيت منه ، وما احسب مذهبه إلا ضرباً من السحر[١٤] » .

وسئل ابو العتاهية مرة : كيف تقول الشعر ؟ فقال : ما اردته قط الا مُثِّلَ لي فأقول ما اريد واترك ما لا اريد[١٥] .

وانقسم معاصروه في تقويم شعره ومذهبه فيه طائفتين ، فبعضهم كان يعجب به ويقدمه ويسلك سبيله في سهولة الاسلوب كسلم الخاسر تلميذ بشار بن برد ، وبعضهم كان يعرف لشعره مكانه من الغثاثة ومجافاة الطريقة الفنية كابن مناذر ومسلم بن الوليد .

وأعجب ما في هذا الأمر أن فريقاً من كبار الشعراء في عصره ، ممن كانوا يخالفونه في طريقته ومذهبه ، كانوا يعجبون به ويقدمونه على أنفسهم مبهورين بسهولة الشعر عليه ومواتاة طبعه له وإسراعه اليه . وكان من هؤلاء بشار بن برد فقد كان يقول فيه : « أشعر أهل زماننا مخنث أهل بغداد[١٦] » ، وابو نواس إذ قيل له مرة : «أنت أشعر الناس.» فقال: « أما والشيخ (يعني أبا العتاهية) حيّ فلا[١٧] . » وغير هذين كثير .

أما سلم الخاسر وهو تلميذ بشار وخرّيجه فقد كان يقدم أبا العتاهية عليه ويقول فيه انه أشعر الجن والانس .

وسلم أشبه في مذهبه بأبي العتاهية ، فقد كان يجنح في شعره الى سهولة الأسلوب وسلاسته وبساطته ، ويميل فيه الى التخفف من قيود الفن عند أستاذه بشار وقد اخذ بيت بشار الذي يقول فيه :

---

(١٤) نفسه ص ١٢٧ .
(١٥) نفسه ص ١٢٧ .
(١٦) الاغاني ج ٣ ص ١٥٦ .
(١٧) نفسه ص ١٢٨ .

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فجعله هكذا :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

وهذا يدل على مذهبه في السهولة وقرب المنال ، ولذلك سار بيته وخمل بيت بشار .

ومما يدل على إيثاره مذهب السهولة قوله يمدح عاصم بن عتبة الغساني :

لعاصم سماء عارضها تهتان
أمطارها اللجين والدر والعقيان
وناره تنادي إذ خبت النيران
الجود في قحطان ما بقيت غسان
أسلم ولا أبالي ما فعل الاخوان

هذه الأبيات السلسة السهلة التي لا صنعة فيها ولا تنميق هي أشبه في أسلوبها بمذهب أبي العتاهية منها بمذهب بشار ، وقد كان يزيد بن مزيد الشيباني يحسد عاصم بن عتبة عليها ويتمناها لنفسه ، لأنها كانت تسير في الناس أسرع مما تسير قصائد مسلم بن الوليد وأمثاله فيه وفي أسرته .

وممن كان يذهب مذهب السهولة في الأسلوب أبان بن عبد الحميد اللاحقي . ولنذكر أن أبان بن عبد الحميد هذا هو الذي نظم كليلة ودمنة شعراً للبرامكة وذلك لا يتأتى إلا لمن يسلك في أسلوبه مسلك أبي العتاهية في زهده وفي حكمته من حيث السلاسة والسهولة ومواتاة الطبع وانثيال التعبير والتراكيب وإسراع القوافي اليه في يسر عجيب .

ولأبان هذا أبيات سبق أن روينا طائفة منها في موضع آخر من هذا

البحث ، وهي تدل على أنه كان شبيهاً في أسلوبه بأبي العتاهية في السهولة والبساطة • ولا بأس أن نذكر منها هنا طائفة أخرى لغرض غير ذلك الغرض• تلك الأبيات التي توسل بها الى بعض بني هاشم ليوصله الى البرامكة •قال:

يا عزيز الندى ويا جوهر الجو — هر من آل هاشم بالبطاح
إن ظني وليس يخلف ظني — بك في حاجتي سبيل النجاح
إن من دونها لمصمت باب — أنت من دون قفله مفتاحي
تاقت النفس يا خليل السماح — نحو بحر الندى مجاري الرياح
ثم فكرت كيف لي واستخرت — الله عند الامساء والاصباح
وامتدحت الامير أصلحه الله — بشعر مشهّر الاوضاح

الى أن قال يصف نفسه وما يحسن من الصناعات :

أنا من بغية الامير وكنز — من كنوز الامير ذو ارباح
كاتب حاسب خطيب أديب — ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق اخف من الريـ — ـشة مما يكون تحت الجناح
... ... — ... ... الـخ

وهذه الأبيات وإن كانت تختلف في أسلوبها عن أسلوب أبي العتاهية اختلافاً يسيراً من حيث استخدام التشابيه والاستعارات إلا أن تشابيهها سهلة قريبة المنال تشبه أن تكون عامية في بساطتها ، كتشبيه نفسه في الخفة بالريشة مما يكون تحت الجناح وكقوله في حاجته :

إن من دونها لمصمت باب — أنت من دون قفله مفتاحي

* * *

ومما هو جدير بالتنويه في هذا الجديد الطارىء على الأسلوب أن الذين ذهبوا هذا المذهب واتبعوا هذه الطريقة في أشعارهم جماعة من الشعراء

كانوا على اتصال بالثقافات الأجنبية الجديدة ولم يكن لهم بالقديم صلة وثيقة في الغالب .

كذلك كان أبو العتاهية وسلم وأبان ، وهذا أمر يدل على أن هذه الظاهرة قد نتجت ـ الى مدى بعيد ـ من تأثير الثقافة الجديدة في الشعراء وتولدت من تزاحم الأفكار وتكاثرها على أشعارهم حتى التمست لها أسلوباً يصلح للتعبير عنها ، وهو هذا الاسلوب الشبيه بالنثر من حيث تحرره من الصنعة ومن الفن الشعري في التعبير .

وثمة جانب آخر لا يصلح أن نغفل عنه في تفسير هذه الظاهرة وهو غلبة الاعاجم في حياة المجتمع العباسي غلبة جعلت لاذواقهم وأفهامهم وزناً وتقديراً في نظر الشعراء . وكان هؤلاء بحكم الضرورة أكثر تذوقاً للسهل البسيط السلس من الأساليب وأكثر فهماً له .

يضاف الى ذلك ان الحياة العباسية قد غمرتها الحضارة حتى لم تكن تدع لبقايا البداوة في الشعر وفي غيره مكانا فسيحا ، فتجافت الاذواق عن الاساليب القديمة في الشعر ، وأقبلت تلتمس الجديد السهل الذي هو اشبه بحياة الحضارة الرخية الناعمة وما يشيع فيها من ترف ولين ، حتى ان إبا نواس ـ وهو احد الحفظة على تراث الشعر القديم في الاسلوب ، قد اضطر ان يعتذر الى محمد الامين ويلتمس عفوه عنه بهذه الابيات السهلة التي كادت تهبط الى دركة العامية في سهولتها . وذلك قوله :

بك استجير من الردى ... وأعوذ من سطوات باسك
وحياة راسك لا اعو ... د لمثلها وحياة راسك
فاذا قتلت أبا نوا ... سك من يكون ابا نواسك

وحتى ان المأمون ، وهو الخليفة العالم الاديب ، لم يكن يفقه كثيرا مما يقول عمارة بن عقيل من الشعر في مدحه لان عمارة بدوي يذهب مذهب القدماء .

ومهما يكن من شيء ، فان الحياة الادبية في هذا العصر لم تقف من هذا الانقلاب في فن الشعر وفي اسلوبه موقف المستسلم الخاضع ، بل لقد كان لها في بعض الاحيان مواقف مقاومة ومقارعة له ، تتمثل في تصدي طائفة من الشعراء المقلدين منهم والمتفننين لتسخيف هذا المذهب والسخرية منه وتزييفه والنعي عليه • فكان مسلم بن الوليد ، وهو رأس المتفننين في عصره ، يسخر من شعر ابي العتاهية ، ويرى ان إكثاره من الشعر إكثار في غير طائل ، وانه لو شاء ان يقول مثل شعره لجاء بالكثير ولكنه يسمو بفنه الشعري ويربأ به عن ان يورده مورد الاساليب العامية المبتذلة لا صنعة فيها ولا تفنن •

وكان محمد بن مناذر وهو من المقلدين ينعى على ابي العتاهية طريقته في الشعر كذلك •

يروى عن أبي حاتم السجستاني أنه قال : لقى ابن مناذر أبا العتاهية فقال له ابو العتاهية : « كم تقول في اليوم ؟ » قال : ربما قات العشرين واكثر وربما اقول خمسة او ستة » فقال له ابو العتاهية : « لكنني لو اشاء ان اقول الف بيت لقلت » فقال ابن مناذر لابي العتاهية : « انا اقول مثل قولي :

هل لشيء قد فات من مـــردود　　　أو لحيّ مؤمـــل مـــن خلود

حتى أنشد القصيدة • وأنت تقول :

ألا يا عتبـــة الســـاعة　　　أمـــوت الساعة الساعة

وتقول :

إن الدنيا قـــد عرتنـــا　　　واستقلتنا واســـتلهتنا
لسنا نـــدري ما فرطنا　　　فيهـــا إلا مـــا قدمنـــا

ولو رضيت أن أقول مثل هذالا كثرت • » (١٨)

---

(١٨) الموشح للمرزباني ص ٢٥٦ — ٢٥٧ •

وكذلك كان رأي اسحق بن ابراهيم الموصلي في أبي العتاهية . فقد كان يفضل عليه العباس بن الاحنف في الغزل ولم يكن يراه شيئاً ، حتى انه لما امتحنه الرشيد في المفاضلة بينهما واستنشده أحسن ما يروى من غزل أبي العتاهية تعمد أن ينشده قوله في عتبة :

كأن عتابة من حسنها دمية قس فتنت قسها
يا رب لو انسيتنيها بما في جنة الفردوس لم أنسها

فلم يجد الرشيد — وكان يفضل أبا العتاهية — الا أن ينشد اسحق قوله في عتبة ايضا :

أحمد قال لي ولم يدر ما بي أتحب الغداة عتبة حقا
فتنفست ثم قلت نعم حباً جرى في العروق عرقاً فعرقا

وهذا وإن خلا من سخف ما في ذاك فهو أيضاً دون شعر ابن الاحنف وأمثاله من شعراء الغزل .

وصفوة القول ان الحياة الادبية وحياة الشعر على وجه الخصوص لم تصف لهذا الانقلاب في اسلوب الشعر ، بل لقد اسلمت الى ضرب من المنافسة والمناضلة بين هذا الفريق من المجددين وبين المتفننين الذين كانوا يعدون فنية الاسلوب والتأني في الصناعة والتنسيق أهم ما في الشعر ، إذا فارقه لم يعد من الشعر في شيء .

ويبدو أن طبيعة الفنون من السماحة بحيث تحضن المذاهب المتنافرة المتخلفة ، ثم تستخلص من كل واحد منها شيئاً قل أو كثر ، ثم تمزج بين هذا وذاك حتى يخرج مزاجها عسيراً على التعليل العقلي والتفسير المنطقي في بعض الاحيان . ولعل السر في ذلك أن المذاهب — في الفن وفي غيره — يقتبس بعضها من بعض وهي في حالة من التنازع والخصام من دون أن تشعر بذلك الاقتباس ، ويتاثر بعضها ببعض تأثرا لا شعوريا — كما يقال — فتكون

النتيجة تقاربا قسريا لا ترضى عنه الاطراف المتخاصمة ، لو كان الحكم في ذلك الى ارادتها ومشيئتها .

ولقد حدث مثل ذلك في الشعر ، فانتهم مذهب السهولة في الاسلوب الى ما عرفه تاريخ الشعر في أسلوب ابن الرومي الذي كان يجمع بين السهولة والانطلاق من قيود التفنن ولا يسفّ في سهولته الى العامية المتبذلة ، وقد اعانته سهولة اسلوبه على أمرين اولهما الاطناب ، وثانيهما الاستقصاء في المعاني والالحاح عليها حتى يستوعبها استيعاباً عجيباً .
وكان اسلوبه غريباً بعض الشيء على اسلوب الشعر ، بل هو أقرب الى النثر الفني الذي لايخلو من عناية بالتهذيب واسقاط الفضول ، ويترفع عن الاسفاف الى العامية والحشو . ومما يصوّر لنا طريقته في الشعر ومذهبه في الاسلوب قوله :

أحمد الله مُبدِئاً ومعيدا ... حمد من لم يزل اليه منيبا
أنا في خطتي وأهلي ومالي ... وكأني أمسيت فرداً غريبا
من وعيد نمى الي من القا ... ضي فما يستقر قلبي وجيبا
أوحشتني مخافتيه فأصبحـ ... ـت حريباً من كل أنس سليبا
مع امني من ان يقارف جورا ... في قضاء معاقباً أو مُثيبا
ولعمري لئن أمنت أمينا ... ان في الحق أن أهاب مهيبا
أنا في غمّة من الامر غما ... ءَ أطيل التصعيدَ والتصويبا
ما دعا ذاك خيفتي جنف القا ... ضي ولا انني غدوت مريبا
غير أني يسوؤني أن قرناً ... شبّ في صدره علي لهيبا

على أن ابن الرومي لا يمكن ان يعد ظاهرة طبيعية في تاريخ الشعر العربي ، وانما هو بقية من بقايا القرن الثاني — وان عاش في أواخر القرن الثالث — في ميله الاعجمي وفي ايثاره طريقة المجددين من الشعراء في الاسلوب وفي بعض اغراض الشعر .

وصفوة القول إن الصراع بين الجديد والقديم في الأسلوب لم ينته الى نهاية حاسمة ، فلم ينتصر القديم على الجديد ولا اكتسح الجديد القديم ، وانما أثمرت المنافسة بينهما مذهبا فيه من القديم أصوله وأسسه وفيه من الجديد مسايرته للحياة الجديدة ومطالبها ، وكان هذا المذهب الوسط هو مذهب من عرفناهم بالمتفننين أو من يعرفون في تاريخ الشعر العربي بأهل البديع والصناعة .

٣ – البديع

وقد عرف الشعر العربي الصنعة والتأني والصقل منذ عهد قديم ، فكان زهير ابن أبي سلمى صاحب الحوليّات ومن تابعه ممن سلك سبيله من الشعراء كالحطيئة ، يسمّون عند النقاد عبيد الشعر لانهم كانوا يصنعونه صناعة ويبذلون فيه جهداً فنياً .

وكان الى جانب هؤلاء من عرفوا عند الشعر ومؤرخي الادب بالمطبوعين الذين كانوا لا يتقيدون بالصنعة وبالجهد الفني كثيرا .

وكان من الطبيعي أن يصبح الشعر عند المولدين صناعة فيها كد وفيها جهد ، ولا سيما بعد أن شارك في الشعر الموالي الذين اكتسبوا العربية وذوقها اكتساباً ودأبوا على تحصيله دأبا .

وبقيت طائفة من الشعراء مطبوعة ، تأخذ الشعر عفواً ولا تصقل فيه ولا تحكك ، فعل أهل الصناعة ؛ وكان من هؤلاء بل كان من ابرزهم السيد الحميري ، وهو يقرن عند بعض النقاد بأبي العتاهية لسهولة الشعر عليه ومواتاة طبعه اياه مواتاة عجيبة . على انه لم يكن قد فارق الاسلوب المألوف في الشعر كما فعل أبى العتاهية .

وكان أمر بشار عجبا من هذه الناحية ، فهو يعدّ من المطبوعين في نظر النقاد وهو أيضاً من أول من أعادوا الى الصنعة مكانها في الشعر ، وهو

بعد ذلك من المجددين الذين أحدثوا في الشعر أحداثاً جديدة وغيّروا في أسلوبه تبعاً لتغييرهم في الأغراض والمعاني • وهو يجمع في شعره بين القديم الذي أورثته اياه نشأته الاولى والجديد الذي أملاه عليه تبدل ألوان الحياة في عصره (القرن الثاني) •

ولم تكن الصنعة في الشعر أو ما سمي فيما بعد بالبديع شيئاً غير معروف في الشعر العربي من قبل ، بل لقد كان معروفاً في شعر القدماء عفواً بلا تعمد ولا تكلف كما يقول النقاد والمؤرخون • « وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت أو البيتين في القصيدة » وأنه لم يطابه ويقصد اليه إلا المولدون •

وهذه مسألة لا نستطيع أن نسلم بها تسليما مطلقا ، بعد أن عرفنا أن بعض الشعراء كانوا يصقلون شعرهم ويصنعونه صناعة ويعمدون الى إخراجه مخرجا فنيا • على أن الذي نستطيع أن نسلم به هو أن البديع لم يكن مطلبا أساسيا في الشعر ، ولم يكن الشعراء الاقدمون يحسبون وجوده فيه ضرورة فنية كما سنرى عند المولدين ، بل كان الاقدمون « يطلبون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته » ولم يكونوا يحفلون بالابداع والاستعارة إذا حصل لهم عمود الشعر ونظام القريض[19] وكانوا يستطرفون من الصنعة ان يقع في القصيدة نحو البيت او البيتين ، ويعدون ذلك دليلا على جودة الشعر وصفاء القريحة[20] •

وظهرت في القرن الثاني طائفة من شعراء المولدين تتعمد البديع وتقصد اليه ، حتى انطبع به شعرها وعرفت به أساليبها • وكان أبرز هؤلاء من يعرفون عند مؤرخي الادب بساقة الشعراء وهم بشار بن برد وابراهيم بن هرمة والرماح بن ميادة وهم آخر من يستشهد بشعره •

---

(١٩) الوساطة للجرجاني ص ٣٧ . العمدة لابن رشيق ص ٨٤ •
(٢٠) العمدة ص ٨٤ •

أما ابن هرمة فكان يستخدم الصور في التعبير عن معانيه ، وكان يتحراها ويبحث عنها حتى يجدها . روى أبو الفرج عن اسماعيل بن جعفر عن أبيه : « مررت بابن هرمة جالسا على دكان في بني زريق فقلت : ما أقعدك ههنا ياأبا اسحق ؟ فقال : قلت :

فانك واطراحك وصل سعدى لأحرى في مودتها نكوب

ثم قطع بي فلم أستطع أن أجوزه ، فمرّت بي وصيفة للحي قد ثقبت أذنيها وفيها خيوط عنهن ، وقد قاحتافذرت عليهما آسا . فقلت: ما لك ، ويحك يافلانة . فقالت : ثقبت أذني لعرس بني فلان فأصابني ما ترى . فقلت : أفلك شنوف ؟ قالت : لا ولكني استعرته . قال فقلت :

كثاقبة لحلي مستعار بأذنيها فشانهما الثقوب
فأدّت حلي جارتها اليها وقد بقيت بأذنيها ندوب(٢١)

وهذه الصور التي يحاول بها ابن هرمة أن يقرب المعاني من أفهام سامعيه ، أو يوضحها أو يزينها كثيرة في شعره ، منها قوله :

وإني وتركي ندى الاكرمين وقدحي بكفي زناداً شحاحا
كتاركة بيضها بالعرا ء وملبسة بيض أُخرى جناحا

ولابن هرمة قدرة على تصوير المعاني وادراك العلاقة بين الصور المتشابهة والمتجاورة ، فهو يصف تألّق البرق في الليل الحالك فيشبهه بأعناق نساء الهند المشوبة بالوضح فيقول :

ألم تأرق لضوء البر ق في أسحم لمّاح
كأعناق نساء الهنـ ـد قد شيبت بأوضاح

---

(٢١) الاغاني ج ٤ ص ٨٩ . الموشح للمرزباني ص ٢٢٣ .

وهذا هو الذي سماه علماء البلاغة فيما بعد تشبيه التمثيل الذي تشبه فيه صورة بصورة أو حالة بحالة • وهو تركيب للتشبيه فيه تفنن ، وفيه قدرة على وصل الاشياء والصور بعضها ببعض ، والاستفادة من علاقات المشابهة والمجاورة الذهنية بين المعقول والمحسوس •

ويبدو أن ابن هرمة لم يقف عند الولوع بالصور البيانية ، بل كان له بالصناعة اللفظية هم وغرض • يروي له صاحب الأغاني قصيدة ، نحوا من أربعين بيتا في رواية ، واثني عشر في رواية أخرى ، ليس فيها حرف يعجم وإنما ألفاظها كلها على الحروف المهملة • وهي :

أرسم سودة محل دارس الطلل	معطّل رده الاحوال كالحلل
لمالا رأى أهلها سدوا مطالعها	رام الصدود وعاد الودّ كالمَهَل
وعاد ودّك داء لا دواء له	ولو دعاك طوال الدهر للرحل
ما وصل سودة الا وصل صارمة	أحلّها الدهر داراً مأكل الوعل
وعاد أمواهها سدماً وطاولها	سهم دعا أهلها للصرم والملل
صدّوا وصد وساء المرء صدّهم	وحاملورد ردهاً حومة العلل[22]
وحلّؤوه رداهاً ماؤها عسل	ما ماء رده لعمر الله كالعسل
دعا الحمام حماماً سدّ مسمعه	لما دعاه ودهر" طامح الامل
طموح سارحة ُحوم ملمعة	وممرح السر سهل ماكد السهل
وحاولوا رد أمر لا مرد له	والصرم داء لأهل اللوعة الوصل
أحلك الله أعلى كل مكرمة	والله أعطاك أعلى صالح العمل
سهل موارده سمح مواعده	مسوّد لكرام سادة حمل[23]

ومثل هذا الشعر يدل على أن التكلف والتصنع والتلاعب بالالفاظ قد أخذ يغزو الشعر ويفتنّ به الشعراء اظهارا للبراعة ودلالة على القدرة في

---

(٢٢) حومة الماء كثرته وغمرته والعلل الشراب الثاني والرده مستنقع الماء •

(٢٣) الاغاني جـ ٤ ص ١٠٦ •

سلوك مثل هذا المسلك الوعر في الشعر ، وهو من غير شك مسلك يفضي بالشعراء الى أن ينشغلوا بهذه الظواهر البراقة ، فيجعلوها أكبر همهم منه وينصرفوا اليها عن جوهر فن الشعر وحقيقته .

بشار

وأما بشار فقد كان في رأي النقاد والمؤرخين أصوب المولدين بديعاً (٢٤) وأقدرهم عليه ، ولقد أدهشهم منه أنه جمع بين جزالة البداوة وسماحة الطبع وبن آثار الحضارة التي تجلت في طلبه البديع وشيوعه في شعره . على أنه لم يكن يخضع طبعه للبديع ولا يدع البديع يحيف عليه.

ويتميز البديع عند بشار بشيء جديد قد يصح أن يعتبر خروجا على المألوف في الشعر ، وهو ضرب من الاستقصاء في التصوير وميل الى التفصيل في التشابيه . وكأن بشارا كان يسيء الظن بالسامع ، فيعمل جهده لايضاح الصورة البيانية ما استطاع . ولعل ذلك آت من انه كان مكفوف البصر لا يكاد يتخيل تلك الصور الا بجهد ويشعر أن الرمز والايماء والايجاز لا يقفه هو نفسه على المعنى الذي يقصد اليه ، فكان يفصل في التصوير ويوضح ويطنب .

وأمثلة ذلك في شعره كثيرة ، منها قوله ليعقوب بن داود وزير المهدي:

يعقوب قد ورد العفاة عشية ... متعرضين لسيبك النشاب
فسقيتهم وحسبتني كمونة ... نبتت لزراعها بغير شراب
مهلاً اليك فانني ريحانة ... فاشمم بأنفك واسقني بذناب

وهكذا نراه لا يكتفي أن يشبه نفسه في نظر يعقوب بالكمونة حتى يشرح وجه الشبه بينهما شرحا مفصلا بقوله « نبتت لزراعها بغير شراب » ،

---

(٢٤) الجاحظ (البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ .

ويشبه نفسه في ظره هو بالريحانة ولا يقف عند اجمال التشبيه ، بل يفصل فيه يقول إن الريحانة تشم وتضم بالانف ايضاً وتسقى بذناب غزيراً .

ومثل ذلك أيضاً قوله في أبياته المشهورة التي أولها :

يا ليلتي تزداد نكرا   من حب من احبت بكرا
... ...
وكأن رجع حديثها   قطع الرياض كسين زهرا

فان التشبيه يكتمل بقوله : وكأن رجع حديثها قطع الرياض ، ولكننا نراه يصر قلى ان يذيّله بقوله « كسين زهرا » . ولعل السر في ذلك انه لم ير الروض فلم يدرك جانب الحسن فيه ولم يحسّه ، وانما كان يستطيع أن يشمّ زهره فيحس طيب شذاه ، ومن اجل ذلك كان حتما عليه ان لا يقف الا عند المنطقة التي يبلغها حسه من مناطق الجمال في الرياض ، وهذا هو الذي دعاه الى ان يقول في تشبيه آخر :

وكأن ما جمعت عليـ   ـه ثيابها ذهباً وعطرا

ولا علاقة بين الذهب والعطر الا في نفس بشار وفي حسه ، لأنه لم يكن يبصر الذهب وانما هو يقلد غيره في الاعجاب بجماله ، ومن أجل ذلك أضاف اليه شيئاً يحسه بحق وهو العطر فعطفه عليه ، فهو في التشبيه بالذهب مقلد ، وفي التشبيه بالعطر أصيل .

وأحسب أن حالة بشاركان لها الفضل الكبير في إقباله على تصوير المعاني والتماس الوسائل التي يدل بها على مراده ، وذلك لأن مثله يحتاج الى التصور الذاتي لادراك بعض المحسوسات ، وهذا التصور إنما يحصل بادراك بين مااختزنه في ذهنه وفي شعوره من صور المحسوسات التي سبق له أن اختبرها وبين الأشياء الجديدة ، أو هو في الحق توصّل بشيء معروف مألوف الى شيء جديد غير مألوف ، وهذا هو الذي يسميه أهل الاصطلاح

التشبيه او الاستعارة ٠ ومن هنا كان للتصوير في شعر بشار طابع متميّز يغلب فيه التصور الذاتي الذي قد يخالف الموضوعية في بعض الأحيان ، ومن هنا أيضا كان الخصب في تصوير بشار لأن هذا التصور الذاتي مدد لا ينقطع من الصور الطريفة الجديدة ٠

وكانت صور الحضارة الجديدة قد غزت ذهن بشار فامتلأت بها نفسه وفاض بها شعوره ، فأفاد منها طبعه الشعري واستغلّها استغلالا كبيراً ٠ ومن أجل ذلك نرجح أنه أقبل على البديع بعد أن هجر البداوة ، وملأ نفسه من لين الحضارة وترفها وما فيها من الجديد الطريف ٠

وكما كانت حالة بشار الخاصة سبباً من أسباب ولوعه بالتصوير والتشبيه كانت أيضاً موطن ضعف في تصويره بعض الأحيان ٠ هاهي ذي أبياته التي أعجب بها النقاد في القديم ولاتزال محل إعجابهم حتى الآن:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما

إنه يجمع فيه بين صورتين مختلفتين جمعا ليس من الدقة في شيء فهو يعطف جملتي الشطر الثاني بأو ، وهي عند النحاة لارادة أحد الشيئين تخييراً أو إباحة ، وليس لها في هذا التركيب موضع إذ العطف بأو وبغيرها المشاكلة ، إلا إذا أريد بها الاضراب وما نحسب أنه يريده هنا قطعاً ٠ والا اذا أراد بما بعد أو أن يكون غاية لما بعدك وذلك لايجيء في هذا الموضع ٠ ثم ان فاعل الجملة الثانية هو المضاف اليه في الجملة الأولى وإذن فمعنى « أو » يخرج في البيت أشبه بمن يعرض عليك صورتين تكمل احداهما الأخرى ، ثم يخيرك بينهما أو يبيح لك اتخاذهما معا مع الفصل بينهما ٠ ولعل موطن الغرابة في هذا التصوير هو الذاتية التي تجعل لمثل بشار عالمه الخاص في التصور والتخيل وقد يخرج هذا التصور أحياناً غريباً على الواقع غير موافق له ٠ وهذا موطن الضعف في الذاتية التي تصيب ما في نفوس النقاد مرة وتخطئه مرة أخرى ٠

ولقد أحدث بشار في الشعر ما يعرف عندنا اليوم بالتشخيص personification أو توسّع فيه • والتشخيص هو إخراج المعاني في صورة الاشخاص وربما كان بشار أسبق شعراء العربية اليه • ومثال ذلك في شعره قوله في الأبيات التي خاطب بها يعقوب بن داود•

طال الثواء على تنظر حاجة شمطت لديك فمن لها بخضاب

فهو يستعير لحاجته المقيمة طويلا عند يعقوب بن داود المرأة العجوز الشمطاء التي طال بها الزمن في حاجة الى الخضاب تستر به شيبها .•

ويقول في قطعة أخرى غزلية :

عندها الصبر عن لقائي وعندي زفرات يأكلن قلب الحديد

فجعل الزفرات مما يأكل وذلك أيضا ضرب من التشخيص •

ويقول أيضا في الغزل :

وبيضاء يضحك ماء الشبا ب في وجهها لك إذ تبتسم

فجعل للشباب ماء ، ثم أضفى عليه صفة الاحياء وجعله يضحك ، وذلك في الحق شيء طريف جديد على الشعر •

وحسبنا هذا من بشار ، وإنما فصلنا فيه لانه مؤسس لهذا المذهب في الشعر ، قلّده من جاء بعده من الشعراء وأخذوا عنه وتوسعوا في مذهبه•

العتّابي

وقد حذا بشار في البديع ابو عمرو كلثوم بن عمرو العتابي[1] • وكان هذا بدويا من أهل الجزيرة من بني تغلب بن وائل ، وهذا مكان الغرابة في اتخاذه البديع مذهبا له في الشعر ، وكان خليقا به أن يلتزم طريقة القدماء

---

(٢٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ •

وأساليبهم ، ولكنه يبدو أنه بحكم إتقانه لصناعة الادب وجمعه بين قول الجيد والخطابة وكتابة الرسائل الفاخرة مع البيان الحسن(٢) هو الذي قاده الى هذا المذهب وألزمه إياه • إذ ان مذهب القدماء خليق بمن يقول الشعر عفو السليقة ولا يتخذ منه صنعة وفنا ، ولم يكن العتابي كذلك •

وأبرز ما نلاحظ في شعر العتابي شيوع التشخيص فيه وكثرته • وهو يبلغ فيه من الاجادة كل مبلغ ويخرج صوره فيه أقرب ماتكون الى الطبع الفني البعيد عن التكلف والتصنع • مثال ذلك قوله يمدح جعفر بن يحيى البرمكي ، وكان قد استعطف له الرشيد فعطف عليه بعد غضب :

ما زلت في غمرات الموت مطّرحا — قد ضاق عني فسيح الارض من حيلي
ولم تزل دائباً تسعى بلطفك لي — حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

وكأن التشخيص كان يرد على العتابي عفو الخاطر ويأتيه طائعا مختارا من دون اعتساف أو تعمّل فمن ذلك قوله :

فلو كان للشكر شخص يبين — اذا ما تأمّله الناظر
لمثّلته لك حتى تراه — لتعلم أني امرؤ شاكر

وقوله :

رسل الضمير اليك تترى — بالشوق ظالعة وحسرى
مترجيات ما ينين — على الرجا من بعد مسرى

وللعتابي في الصناعة اللفظية مدخل لطيف قريب الى النفس بعيد عن التعمل والتصنع ، وهو يمزجه بالصناعة البيانية مزج الصناع الماهر فيخرجه مخرجاً كريماً • قال يستعطف الرشيد وكان عليه غاضبا :

أَخِصْبَ المكان الغمر ان كان غرني — سناً خلب أو زلّت القدمان

---

(٢٦) نفسه والعمدة جـ ١ ص ٨٥ .

أتتركني جدب المعيشة مقتراً ... وكفاك من ماء الندى تكفان
وتجعلني سهم المطامح بعدما ... بللت يميني بالندى ولساني

وهكذا اجتمع للعتابي طبع في الشعر موات وقريحة فياضة الى جانب الصناعة الحسنة والتفنن المليح .

وكان العتابي على ما يظهر متأثرا ببشار ، ينظر في بعض صوره البيانية ويقتبسها في شعره ، يدل على ذلك مثل قوله في قصيدته التي قالها يستعطف بها الرشيد أيضاً :

في ناظرّي انقباض عن جفونهما ... وفي الجفون عن الآماق تقصير

وهذا المعنى بصورته لبشار اذ يقول :

جفت عيني عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

وذلك يؤيد قول المؤرخين والنقاد أنه كان في البديع تلميذا لبشار .

ونحن نلحظ في فن العتابي بواكير ظاهرة أدبية جديدة تلك هي المنافسة بين الشعر والنثر في فنون البديع ، ومقدار الاثر الذي أعقبه أهل البديع من الكتاب في أهل البديع من الشعراء . وتلك ظاهرة لم تتضح في تاريخ الادب العربي الا في القرن الرابع الهجري وما بعده .

مسلم بن الوليد

ولم يكن هؤلاء جميعاً قد اتخذوا من البديع مذهباً ينهجونه في شعرهم، وانما كانوا يؤثرونه ويعمدون اليه . أما الذي اتخذه مذهباً يقابل به مذاهب المجددين الذين سلكوا سبيلا اخرى في الشعر كمسلم بن الوليد .

وكان مسلم أول من تكلف البديع من المولدين وجعله طريقته في الشعر، وهو في نظر النقاد زهير المولدين[٢٧] وقد كان يصنع شعره صناعة بل يصوغه

---

(٢٧) معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٧٢ والعمدة ص ٨٥ ج ١ .

صياغة ، ويتحرى مظاهر الجمال في اسلوبه ويلاحقها ملاحقة حتى يخرج شعره مخرجاً فنياً .

واولع مسلم بالصور البيانية يركبها بعضها إثر بعض ، حتى يكاد بعض شعره لا يخلو من المجاز والاستعارة :

فلما انتضى الليل الصباح وصلنه   بحاشية من فجره المتورد

وكان ينحو احياناً نحو بشار في ابراز التفاصيل والافاضة في صوره البيانية :

يغشى الوغي وشهاب الموت في يده   يرمي الفوارس والابطال بالشعل

وهو كالعتابي يمزج بين الصناعة اللفظية والصور البيانية مزجاً موفقاً ذهب بعضه مذهب الامثال في الاجادة والابداع مثل قوله :

موف على مهج واليوم ذو رهج   كأنه أجل يسعى الى أمل

وبلغ في عنايته بتقسيم الكلام والتفنن بالمناسبة بين اجزائه مبلغاً أحسب انه جديد على الشعر العربي حقاً . مثال ذلك قوله في قصيدته التي مدح بها يزيد بن مزيد الشيباني :

أجررت حبل خليع في الصبا غزل   وشمّرت همم العذال بالعذل
هاج البكاء على العين الطموح هوى   مفرّق بين توديع ومحتمل
كيف السلوّ لقلب راح مختبلا   يهذي بصاحب قلبٍ غير مختبل
عاصى العزاءَ غداة البين منهمل"   من الدموع جرى في إثر منهمل

حتى كأنه ينظم عباراته نظاماً في وسط نظام . ويوائم بين اجزائها مواءمة تخرج به الى سجع مرة والى جناس مرة اخرى :

موف على مهج واليوم ذو رهج   كأنه أجل يسعى الى أمل

وقد فتح مسلم بن الوليد في البديع باباً جديداً زاد به على ما ورثه من اسلافه

وهو ابتكار المعاني الدقيقة والغوص على الطريف الجديد فيها فمن ذلك قوله يهجو دعبلاً :

أما الهجاءُ فدقّ عرضك دونه ... والمدح عنك كما علمتَ جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززْتَ به وانت ذليل

وهكذا نلاحظ ان مسلم بن الوليد يتميّز عمّن قبله باستخدام البديع في توليد المعاني وإخراجها في صور تبهر وتدهش ، ويعنى بتقسيم الكلام وتنسيق اجزائه ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن يظهر في شعره أثر للتكلف والتصنع ، لانه كان يعرف كيف يوائم بين الطبع والصنعة وكان يتخذ من البديع وسيلة فنية لا تطغى عليه ولا تستعبده •

ولعل مسلم بن الوليد كان في فنه هذا اشبه برد الفعل لاسلوب ابي العتاهية ومن جرى على سنته من الشعراء ، أعني أن فنه كان ضرباً من استلهام القديم وإحلاله محله الاول في نظام القصيدة وفي الاسلوب وطريقة التعبير ، إلا ان حضارة بغداد وما بلغته من الازدهار وما ملأت به نفوس الناس ومشاعرهم قد املت عليه كما املت على غيره ان تنعكس صورتها في شعره ، فيعمد الى التجميل والتزيين حتى تلوح على شعره مخايل حسن الحضارة المجلوب •

وكان ظهور مسلم في الشعر ايذانا بالغلبة لهذا المذهب الفني وكانت غلبة هذا المذهب الفني على الشعر انتصاراً للقديم واعراضاً عن الذي احدثه المجددون الثائرون في الشعر الى حد بعيد وعودة به الى مجاله الاول بعد ان تشعبت به الطرق في ألوان الحياة الجديدة •

ابو تمام

ثم كان أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فبلغ به القمة ، وجرى في شعره كله على هذا المذهب حتى لم يكد يخلو من البديع فيه بيت • وقد كان في

اكثاره من البديع يصيب ويخطىء ، فاذا أسف هبط في اسفافه .

وقد لحظ النقاد والمؤرخون عليه ذلك فقال فيه صاحب الاغاني : « وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه ، فان له فضل الا كثار فيه والسلوك في جميع طرقه . والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به احد . وله اشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا » .(٢٨)

ولقد جعل أبو تمام الشعر صناعة يتكلف لها ويجهد فيها ، بل جعله تصنعاً وتعملا في بعض الاحيان ، وأحال معانيه في شعره رموزاً يجتهد السامع أو القارىء في كشفها وفي ادراكها وتذوقها . وقد أثار ذلك ثائرة النقاد عليه وجعلهم ينقسمون في آرائهم فريقين . فريقاً حكم له بالاحسان والاجادة وفضله على من عاصره ومن سبقه من الشعراء ، وفريقا حكم عليه بالتكلف ووجد في أسلوبه خروجا على عمود الشعر ، وفضل عليه طائفة من معاصريه كالبحتري وهو تلميذه وربيبه وثمرة مذهبه الفني(٢٩) .

وقد ذكرت آنفاً أن أبا تمام قد أمعن في اصطناع البديع وأسرف فيه حتى أحال بعض شعره الى ما يشبه الرمز ، فهو لا يكاد يصرح بحقيقة ، وانما يكثر في شعره من المجاز والاستعارة ، ومن أجل هذا يرى بعض النقاد المعاصرين أنه بلغ بالشعر مرتبة من الفن لم يبلغها به أحد من الشعراء لأنه جعله فنّاً للخاصة يحتاج تذوقه الى الجهد الفني(٣٠) .

وهذا رأي في فن الشعر يقابله رأي آخر هو رأي المحافظين من النقاد، الذين يرون في التزام عمود الشعر المثل الفني الاعلى .

ونحسب أن الكلام في فن أبي تمام ضرب من الحديث المعاد ، فقد

---

(٢٨) الدكتور طه حسين : حديث الشعر والنثر .

(٢٩) و (٣٠) الدكتور طه حسين : حديث الشعر والنثر .

كان نصيبه من أبحاث المؤرخين والنقاد في القديم والحديث وافرا عظيما. وكل مانستطيع أن نقوله فيه انه كان أحيانا يبالغ في الصنعة حتى يبين في شعره التعمّل والتكلّف والتعسّف وحتى تخرج صوره البيانية شائهة مستكرهة، ويسرف في طلب المطابقة والجناس والمقابلة حتى يكاد يبلغ مبلغ الغثاثة .

فمن صوره البيانية غير الموفقة قوله :

كان الزمانُ بكم كلباً فغادركم ... بالسيف والدهر فيكم اشهر الحرم
لا تجعلوا البغيَ ظهراً انه جمل ... من القطيعة يرعى وادي النِعَم

فقد استعار الكلب لخسة الزمان ، ولم تسعفه الصورة المقابلة فوصف الزمان بأنه كالاشهر الحرم في فضلها وفي حرمتها وقدسيتها ، وصوّر البغي بصورة الجمل يرعى وادي النعم وهي صورة لا توحي بالمعنى الذي رمى اليه إلا بعسر وتكلف فوق انها ثقيلة على النفس شديدة الوطأة على الذوق .

ومن ذلك ايضا قوله :

لو لم تدارك مسنّ المجد مذ زمن ... بالجود والبأس كان المجد قد خرقا

وهذا من التشخيص ولكنه تشخيص غير موفق . فهو قد استعار للمجد القديم صفة الشيخ المسنّ الذي اكلت منه السنون واضرّ به تقادم الزمان حتى كاد يخرف لولا ان تداركه الممدوح ، وتلك صورة لا توافق معناه ولا تلائم مراده . واجدر بالمجد القديم ان يشبه بالتحفة الفنية الثمينة كلما تقادم عليها الزمان زادت قيمتها وعلا شأنها ، وان مكان الممدوح منها الحفيظ عليها المدرك لقيمتها .

وكان ابو تمام احيانا ينطلق وراء الاستعارة حتى ينسى انها وسيلة فنية يؤخذ منها بالقدر الذي يتطلبه وضوح المعنى وطرافته وجماله ، والقصد الى التأثير في السامع او القارىء ، فكان ابو تمام يأتي على تفاصيل في

المستعار تشوّه جمال الاستعارة وتقربها من الحقيقة فيضيع بذلك مكانها من المعنى • مثال ذلك قوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه   ضربة غادرته عوداً ركوبا

فقد صور الشتاء دابة عصيّةً لا تذلّ لراكب ، وهو يعني بذلك ان الشتاء لم يكن ملائما للحرب ولا مناسبا لها ، ولكنه نسي انه استعار للشتاء تلك الصفة ليقول ان الممدوح قد طوعه حتى اصبح ذلولا سهل القياد ، واندفع في وصف الدابة تفصيلا حتى ذكر ان الممدوح قد ضربها في اخدعيها، فأساء بذلك الى الصورة وخرج بها عن الغاية التي قصد اليها •

وكان ولوعه بالطباق والمقابلة يحمله احيانا على مثل قوله :

لعمري لقد حرّرت يوم لقيته   لو ان القضاء وحده لم يبرّد

تلك امثلة سقناها للتدليل على ان إمعان ابي تمام في طلب البديع وغلوّه فيه قد كان يسلمه احيانا الى ظهور التكلف والتعسف في شعره ، وان تفارقه فيه طبيعته الفنية المجيدة ، وتجعل من البديع وفنونه قناعا ثقيلا يحجب رونق اسلوبه ورواء معانيه •

على انه حين يقتصد في البديع فيلازمه التوفيق ، ويخرج شعره رائعاً رائقاً جميلا • وذلك في الحق اكثر شعره واجدره بأن يعتبر مثالا لمذهبه الفني الذي لم يعد يكتفي بشرف المعنى واستقامة اللفظ ، بل صار يعني بالتجميل والتنميق ، ويراعي التناظر بين أجزاء الكلام فيستخرج للمعاني صورا بيانية يستخدمها في التعبير عنها ، ويتخذ من المطابقة وتقسيم الكلام وسيلة لضرب من فن الهندسة في الاسلوب • ومن هذا الطراز قوله من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري :

غدا الشيب مختطّاً بفودي خطّة   سبيل الردى منها الى الموت أوسعُ

هو الزور ُيجفى والمعاشر يُجتوى وذو الألف ُيقلى والجديد ُيرقّع
له منظر في العين ابيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع

وقوله في الرثاء :

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى فخانك حتى لم يجد فيك منزعا
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة فقطّعها ثم انثنى فتقطّعا

وقوله في مدح أبي سعيد أيضا :

خشعوا لصولتك التي هي عندهم كالموت يأتي ليس فيه عثار
فالمشي همس والنداء إشارة خوف انتقامك والحديث سِرار
أيامنا مصقولة أطرافها بك والليالي كلها أسحار

ولست أحسب أن تصوير المعاني وتشخيصها وتركيب الصور بعضها إثر بعض هو أبرز ما في الشعر عند أبي تمام ، فذلك لون من ألوان الاجادة والابداع من غير شك ، ولكن أبرز جوانب التجديد عنده أنه أراد أن يدخل الى طريقة الشعراء المألوفة في نظم الشعر طريقة أخرى ، فلم يكفه أن تتكون القصيدة من أبيات على وزن واحد وقافية واحدة ، بل حاول ان يحدث في داخل الابيات نفسها صورة من صور النظم ، وذلك ماأشار اليه صاحب الاغاني بقوله : « وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء »• ويتجلى ذلك النظم في ولوعه بالمطابقة والمقابلة ، وفي قدرته على تقسيم البيت أجزاء منظومة تنسجم مقاطعها حتى تكاد تتفق أواخرها مثال ذلك قوله في بائيته المشهورة :

من كفّ معتصم ، بالله منتقم ، لله مرتغب ، في الله مرتقب

وقوله في وصف الشيب في الابيات التي مر ذكرها :

هو الزور يجفى ، والمعاشر يجتوى ، وذو الالف يقلى ، والجديد يرقع

ولنلاحظ أنه يساوي بين مقاطع العبارات الاربع مساواة تنسجم مع وزن القصيدة ، فيجعل العبارات الاربع في البيت الاول متساوية لان البسيط قابل للتقسيم الى أجزاء متساوية ، وأما البيت الثاني فالعبارة الاولى فيه تساوي العبارة الثالثة والثانية تساوي الرابعة .

ولم يقف أبو تمام بالبديع عند توارثه عن الاقدمين من الصور الموجزة في البيت وفي العبارة ، بل أخذ في التفنن مآخذ جديدة فابتكر الصورة المفصّلة الموّضحة ، يستخدمها في التعبير عن المعنى الموجز ويحيط بها كالهالة الجميلة . وكان هذا اللون من التصوير يشبه أن يكون في ظاهره غاية يقصد اليها الشاعر فيطنب فيه ويفيض ، وباطنه أنه يستخدم الصورة لغاية اخرى . كأنه يريد ان يهوّل معنى من المعاني او يهيّىء له ذهن السامع وشعوره حتى يتلقاه بما يستحق ، ويستطرف فيه عنصر المفاجأة والمباغتة . وهو يشبه من بعض الوجوه ما يعرف عند كتاب القصة بالعقدة أو المغزى (Plot) ويستخدم فيه شبيه بما يعرف عندهم بعنصر الترقب (Suspenion)

وهو من وجه آخر استخدام لما كان يعرف في الشعر العربي بحسن التخلص على طريقة جديدة مبتكرة . وقد سمّاه أبو تمام المستطرد او الاستطراد .

روى البحتري فقال . أنشدني أبو تمام يوما لنفسه :

وسابح هطل الشعراء هتّان على الجراء أمين غير خوّان
أظمى الفصوص ولم تظما قوادمه فخلّ عينيك في ظمآن ريان
فلو تراه مشيحاً والحصى زِيَم بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت إن تتثبتْ أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

ثم قال لي : ماهذا الشعر ؟ قلت : لا أدري . قال : هذا هو المستطرد

او قال الاستطراد . قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يريك انه يريد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان .

وقد فعل البحتري مثل ذلك وقلد أبا تمام فيه ، فقال في قصيدته التي مطلعها :

أهلاً بذلكم الخيال المقبل ... فعل الذي نهواه أم لم يفعل

ومنها في وصف الفرس :

وأغرّ في الزمن البهيم محجّل ... قد رحت منه على أغرّ محجل
كالهيكل المبني الا انه ... في الحسن جاء كصورة في هيكل
يهوي كما تهوي العقاب اذا رأت ... صيداً وينتصب انتصاب الاجدل
متوجس برقيقتين كأنما ... تريان من ورق عليه موصل
وكأنما نفضت عليه صبغها ... صهباء للبردانِ أو قطربّل
ملك العيونَ فان بدا أعطينه ... نظر المحبّ الى الحبيب المقبل
ما إن يعاف قذىً ولو اوردته ... يوماً خلا من حمدويه الاحول

بين البحتري وأبي تمام

وكان البحتري — على ما يرويه مؤرخو الادب ويجمعون عليه — متصلا بأبي تمام ، مقرا بأنه استاذه وقدوته . وقد اخذ في صناعة البديع مأخذ ابي تمام فيها ولكنه قصد فيه واعتدل ولم يسرف فيه اسراف أبي تمام ولم يجعل للصنعة على شعره سلطانا كما فعل أبو تمام . فخرج شعر البحتري مستويا في غالب أحواله، لا يعلو علو أستاذه أبي تمام إذا أبدع ولا يسف اسفافه اذا هبط وفارقه التوفيق . ومن أجل ذلك انتصر له بعض النقاد وفضلوه جريا على سنة

(٣١) الاغاني جـ ١٨ ص ١٧٢ واخبار ابي تمام للصولي ص ٦٨ — ٧٠ .

القدماء في الاعتبار باستواء الشعر وقلة السقط فيه ، وتقليدا لهم في التمسك بعمود الشعر والاعتصام بطريقة الاولين فيه .

وقد كانت المفاضلة بينهما مددا لبعض نقاد الشعر ، فكتبوا فيها الكتب، بعضهم ينتصر لابي تمام وبعضهم ينتصر للبحتري . ولقد ألّف أبو بكر محمد بن يحيى الصولي أخبار أبي تمام لينشر على الناس فضائله ويعلن فيهم إبداعه وتقدمه على الشعراء ، وكتب الآمدي الموازنة بين الطائيين وانتصر فيها للبحتري من طرف خفي .

وقد كان البحتري يعد متوسط الموهبة في الابداع ، واستطاع أن يجمع في شعره بين طريقة أستاذه أبي تمام في تصوير المعاني وفي الولوع بتقسيم الكلام ونظم أجزائه ، وبين طريقة الاقدمين في وضوح القصد وفي البعد عن التكلف والايغال والتعسف في الغوص على المعاني المبتكرة والصور الجديدة ، فكان شعره علما على السلاسة في التعبير وقرب المنال واستخدام الصنعة استخداما لا يبلغ بها أن تكون قناعا يخفي وراءه المعنى ويستتر خلفه الغرض كما كان يحدث لشعر أبي تمام أحيانا .

وبعد فنحن نسمع عن عمود الشعر ونقرأ لبعض النقاد الاقدمين دفاعهم عنه وغيرتهم عليه ، فما هذا العمود وما حقيقته وما صفته ؟ وكيف يحكم على الشاعر انه يلتزمه او يخرج عليه ويفارقه .. أسئلة لا يكاد النقد القديم يضيء سبيل الباحث فيها بحيث يكون منها على بينة(٣٢) .

---

(٣٢) ذكر المرزوقي في مقدمة شرحه على حماسة ابي تمام ان عمود الشعر سبعة ابواب فقال : « انهم ـ اي الاقدمون ـ كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه والتحام اجزاء النظم والتحامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار للمستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما » ص ٩٠ ـ ١١ مقدمة الشارح من كتاب =

فان قيل إنه طريقة القدماء من الشعراء في نظام القصيدة وفي اسلوبها فقد كان ابو تمام هو الذي حفظ هذه الطريقة او انتهى اليه حفظ هذه الطريقة ، وهو الذي لهذا الاسلوب بسابق عهده وقديم سلطانه في الشعر العربي • فهو لم يسلك سبيل المجددين في تفكيك الاسلوب وتسهيله والانحطاط به الى الدرك الذي بلغه عند أبي العتاهية واضرابه من شعراء القرن الثاني • وهو ايضا لم يجدد في نظام القصيدة وفي شكلها فيتجاوز على تقاليد الشعراء ، كالافتتاح بالنسيب وما يتصل به من ذكر الديار والوقوف على الاطلال ، بل كان ممن حافظ على تلك التقاليد وتمسك بها •

ما الذي احدثه اذن ابو تمام حتى قيل إنه فارق عمود الشعر ، بل خرج عليه ؟

والجواب على هذا يقتضينا نظرة مجملة في طريقة التعبير المألوفة عند القدماء ، وفي الصورة المثلى للاسلوب عند المحافظين من نقاد الشعر • والظاهر انهؤلاء كانوا يعتدّون بالوضوح والصراحة،وسرعة الشعر الى نفس السامع والقارىء ، من غير تأمل في الصور البيانية للتعبير ، او تدبر للمعنى او انشغال بفن الاسلوب وصناعته ، لانهم كانوا يرون ـ فيما يظن ـ ان تلك امور تشغل من يتلقى الشعر سماعا ـ في الغالب ـ عن ان يشارك الشاعر في غرضه وفي فكرته وفي عاطفته ، وتقطع صلة التجاوب العاطفي بينه وبين الشاعر ، وتجعل الشعر ضربا من العمل المصطنع المتكلف الذي لا

=
شرح المرزوقي على ديوان الحماسة نشرُ الاستاذ احمد امين والاستاذ عبدالسلام هرون . ويعنينا هنا انه يرى ان المبالغة في التشبيه والاستعارة خروج على عمود الشعر وذلك الذي كان يقع فيه ابو تمام احيانا . ثم ان ولوع ابي تمام بالصناعة اللفظية قد كان يخرج شعره احيانا الى التكلف فتفوته مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما .

يؤدي الى غايته في نظرهم ، وهي التعبير الصادق الواضح عن العاطفة .

وههنا يتجلى لنا اثر للحضارة في الفن عموما وفي الشعر على وجه الخصوص ، لان من مقومات الحضارة جمال المظهر واناقته وتنسيقه وتنميقه ، وتلك امور قد تجور في بعض الاحيان على جوهر العاطفة وحقيقة الفكرة . واذا كان صدق العاطفة وصراحة الفكرة ووضوحها هو المقوم الاول للشعر ولغيره من الفنون ، وان التفنن في إظهارها والتصنع في تجميلها ليس إلا وسيلة لتحقيق التواصل والتجاوب بين الشاعر وسامعيه او قارئيه ، وهو كذلك الى ابعد مدى ، فينبغي ان لا تطغى الوسيلة في الفن على الغاية ، وان لا يجور المظهر فيه على المخبر . والتوفيق بين الغاية في الشعر وهي الصدق والصراحة والوضوح المؤثّر ، وبين الوسيلة وهي التجميل والتفنن، هو المثل الاعلى في فن الشعر وهو الطريقة المثلى فيه .

ذلك مجمل ما نفهمه من اختلاف النقاد بين هذين المذهبين في فن الشعر فن أبي تمام وفن تلميذه البحتري ، وانقسامهم بين مفضل لابي تمام مقدم له سواه من الشعراء ، وعائب عليه خروجه بالشعر من الطبع الى الصنعة المتكلفة التي لا تخلو من كدّ وروية وإعمال ذهن .

ابن المعتز

ونحن لا نكاد نعرف بعد أبي تمام من اعلام البديع ــ في الحقبة التي نبحث فيها ــ اخطر شأناً من ابن المعتز ، على انه لم يخطُ بالبديع في شعره نحو التقدم ولابلغ في هذا الفن مبلغاً ذا بال ، بل يصحّ ان تقول : إنه انحط به من الصور المركّبة كالمجاز والاستعارة الى الصور البسيطة كالتشبيه ، وهو ادنى عند علماء البلاغة واقرب في فنّ الاسلوب غوراً .

ومهما يكن من إعجاب النقاد بتشابيهه ووقوفهم عندها وقوف المندهش وان بينهما ايضا شيئا من الاستقلال تعرف به حقيقة كل منهما .

فهي من وجهة الفن الشعري سذاجة فنية لا تبلغ مبلغ ما وصلت اليه فنون البيان عند مسلم بن الوليد وأبي تمام ، ولا تصل حتى الى صناعة البحتري الذي اعتدل فيها وقصد ، فاعتدّه النقاد من المطبوعين .

وإنما نقول إن التشبيه عملية فنية ساذجة بالقياس الى المجاز والاستعارة لان في الاستعارة امتزاج المستعار له بالمستعار بحيث يكون الثاني في نظر الاديب والشاعر هو الحقيقة ، فيدير الكلام عليه مباشرة ولا يلقي الى الاول بالاً ، في حين ان التشبيه إقرار بأن في الامر مقاربة بين شيئين ومجاورة ،

ولا مراء ان الامتزاج في الاستعارة بين طرفيها مرحلة شعورية اعمق وابعد غوراً وأدل على ان التجربة النفسية قد استغرقت الاديب او الشاعر فنسي الواقع المادي أو أهمله ، وان الصلة بين المتجاورين قد بلغت مبلغ الاتحاد والحلول ، ومن اجل ذلك نرى ان التشبيه يدل على ان الاديب او الشاعر على جانب من السطحية وقرب الغور ، حتى إنه لم يتمثّل التجربة النفسية التمثّل الكافي . وليست التجربة النفسية في مثل هذه الحالة إلا إدراكاً او اكتشافاً للعلاقة بين شيئين متجاورين ، وكلما استطاع الاديب ان يتعمق تلك العلاقة وان يكشف عن توثقها وتمكنها ، حتى يحيل الشيئين المتجاورين واحداً ، كان اعمق في الشعور وامكن في الفن .

على ان ابن المعتز كان ذا فضل على البديع من وجهة اخرى فقد خدمه خدمة علمية إذ وضع فيه كتابه البديع وتتبع فيه فنونه في الشعر القديم وصنفها واحصاها .

وبعد فاننا لنتساءل : ماذا خلف اهل الفن في الشعر العربي ، وماذا كانت آثارهم فيه ؟ وهل كانت فنون البديع هي كل ما تركوه من الآثار ؟

ونحسب ان البديع قد ترك في الشعر العربي اثراً اخطر واعمق غوراً . وذلك انه اقرّ في الشعر التعمق في المعاني والغوص وراءها ، وتحوّل

بالشعر من فنّ مطبوع يأتي عفو الخاطر ، لا روية فيه ولا تأنّي ولا كدّ ، الى فنّ مصنوع ينقّب فيه الشاعر عن المعاني الجديدة ، ويبتكر فيه الصور الجميلة ، ويعنى فيه بصقل الاسلوب وتنسيق العبارة عناية كبرى .

ومن هنا ندرك ان بلاغة الكلام ليست وقفاً على اللفظ وظاهر الاسلوب فان لذلك كله ارتباطاً ، كلّ الارتباط ، بالمعاني وليست الصور البيانية ، وهي جانب مهم من مقومات البلاغة ، الا صوراً للمعاني تقوى بهما وتضعف، وتتضح بها او تضلّ في الغموض . وليست الصناعة اللفظية من جناس وغيره الا ضروباً من التفنن في اجزاء التراكيب ، وهي دلائل المعاني وصورها الماثلة .

ومن اجل ذلك كان اثر المتفننين في فنّ الشعر ابتكاراً للمعاني وغوصاً على دقائقها . وقد لمحنا ذلك في شعر زهير والمولدين ، مسلم بن الوليد في مثل قوله :

أما الهجاء فدقّ عرضك دونه ... والمدح عنك كما علمتَ جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك انه ... عرض عززتَ به وأنتَ ذليل

وابو تمام ومعانيه المبتكرة اشهر من ان يدل عليها وان يمثل لها . ثم انتهت آثار هذا المذهب في الشعر الى الدقة التي عرفها عند ابن الرومي ومعانيه المبتكرة الطريفة وما تميز به من توليدها واستقصائها ، وحتى وصل ذلك الشعر الى المتنبي وابي العلاء المعري (في سقط الزند) .



خاتمة

لقد كان انتقال الحياة الادبية الى بغداد حدثاً خطيراً في تاريخ الادب العربي عامة وفي تاريخ الشعر العربي بصفة خاصة •

فقد اصبحت عاصمة الخلافة لاول مرة في التاريخ هي المركز الادبي الاول وكانت بيئات الادب والشعر منه على الخصوص مواطن تباعد عنها السلطان وهجرها الحكم فخلت الى الادب والشعر وصرفت همها اليه •

وكانت حياة الشعر في بغداد صورة من صور التنافس على البقاء بين القديم والجديد • القديم الذي توارثه الشعر من عصوره الاولى والجديد الذي خلفته عوامل السياسة والاجتماع والحضارة والفكر في البصرة والكوفة وفي بغداد نفسها من بعد •

وفي بغداد التقى القديم بالجديد وكان كلاهما بالاضافة اليها — او الى البيئة العراقية عامة — اصيلا غير دخيل فقد انتقل الى بغداد طائفة من القديم والجديد من الكوفة والبصرة وغيرهما .• ووجد ذلك فيها مجال الحياة الرحب وميدان الصراع الواسع ؛ وكانت طبيعة الحياة فيها مما اعان على ذلك ، وبعث في القديم والجديد كليهما اسباب القوة وامده بالنشاط •

وقد ورد الشعر بغداد وهو في معالمه العامة جماع الحياة العقلية والاداة الاولى للتعبير عن الافكار والمشاعر وتغلب عليه سمة الجد والموضوعية • وتلك صفات توارثها الشعر العربي من قديمه البعيد وتاريخه الطويل يوم ان كان عند العرب ديوان مفاخرهم وسجل مآثرهم وتجاربهم في الحياة •

على انه كان يحمل في ثناياه يومئذ بذور التحول من الموضوعية الى الذاتية ومن الجد الى الهزل ، وكان يرود هذا التحول فيه طائفة من شعراء البصرة والكوفة عكفوا على انفسهم وعقولهم واستبعدهم السلطان عن المشاركة في جد الامور وخطيرها ، وتأثروا بمعالم الحضارة والحياة العقلية واستجابوا اليها .

وقد ظهرت عند هؤلاء الشعراء فنون جديدة في الشعر وتطورت عندهم فنون اخرى وسلكوا في اسلوب الشعر طرقا جديدة على ما سبق بيانه من قبل .

ولقي هؤلاء الشعراء في بغداد ارضاً بكراً تعهدت جديدهم بالرعاية ، وافسحت له سبيل الحياة بما هيأت لهم من رخاء وما أتاحت لهم من استقرار وما ضمنت لهم من رزق . فانصرفوا الى أنفسهم يستمدون منها الوحي وعكفوا على مشاعرهم الخاصة واستجاباتهم الذاتية للحياة الجديدة يجعلونها موضوع شعرهم ومادته . فازدهر الجديد واينع غرسه وآتى أكله .

ولم يكن موقف بغداد من الجديد سلبيا تأخذ فيه ولا تعطي ، وتقتبس فيه ولا تبتكر ، بل كان لها من ماضي أهلها وهم بقية مما ترك أهل العراق الاقدمون وورثة حضارات وادي الرافدين ما امد الجديد بضروب أصيلة من وسائل الحياة والنماء والازدهار في أساليب العيش وفي صنوف اللهو وفي الثقافة العقلية .

على أن مجال الحياة في بغداد لم يكن ليخلو لهذا الجديد الطارىء على الشعر ، فقد كانت بغداد وكانت خلافتها امتدادا للحياة الاسلامية ، وكان روح الحكم وأساسه الاحتفاظ بالعروبة وحفظ التوازن بين عناصر الدولة لايطغى بعضها على بعض ولا يؤدي ذلك الى انحراف بها عن أصولها الاولى . بل كانت حياة الشعر في بغداد امتدادا لتاريخه البعيد في أغوار الزمن .

وقد التمس القديم في كل ذلك مجال الحياة والاستمرار ، وكان يعتد نفسه ويعتده العرف العام هو الشعر بحق وما سواه هذر أو عبث أو هزل • وكانت ظروف الحياة العامة تحمل أصحاب الجديد – طوعا أو كرها – على ان يسلكوا طريق القديم اذا ارادوا ان ينالوا حظهم فيها ويشتهروا ويقوم شعرهم عند نقاد الادب وجهابذة القريض •

وقد تميز القرن الثاني للهجرة بغلبة التجديد فيه لان هذا التجديد كان يستند في بعض نواحيه الى الاعاجم ، أولئك الذين ولوا مراكز السلطان واستحوذوا على جانب كبير من الحياة العامة ، ولانه كان يستند أيضا الى الجديد في الحياة العقلية والاجتماعية والحضارية وهي يومئذ ألوان براقة تذهب بالابصار لجدتها وتأسر الالباب والمشاعر لطرافتها •

واعتصم القديم في هذا القرن بمعاقله الحصينة عند الخلفاء وأمراء العرب من الولاة وقادة الجيوش • ولولا يقظة الخلفاء من أول الامر ولولا امراء العرب لتحولت الحياة العباسية حياة اعجمية ، او لانقصمت صلتها بالقديم على الاقل •

ثم كانت بداية القرن الثالث للهجرة مبدأ تحول في الشعر من طراز آخر أعاد له طابعه العام ومكانته الاولى من الحياة العربية • فقد أدى النزاع على الخلافة بين الامين والمأمون الى أن تعود الحياة الى الجد وتقل فيها دواعي الهزل واللهو والعبث •

ثم ان الحياة العقلية قد أخذت في النضج والتكامل ، والحياة الحضارية قد أصابها شيء كثير من التركيز والاستقرار وألفها الناس فلم تعد تستخفهم في الاندفاع اليها • فكانت آثار ذلك في الشعر أن عاد اليه الوقار وأخذ من الحياة العقلية خلاصتها ومن الحضارة زبدتها ولبابها ، فغلبت فيه الصنعة الجمالية وظهر عليه العمق في المعاني والابداع في تصويرها وفي التعبير عنها •

وعاد الشعر في موضوعاته الى القديم بصورة عامة وهجر طائفة مما جد فيه من الموضوعات فاستقل بها النثر لانه أخلق بها وأجدر ، وعاد نظام القصيدة الى تعدد الموضوع في الغالب .

وأصبحت ملامح الشعر العامة في هذا العصر عمقا في المعاني وابداعا في تصويرها وتناسقا في التراكيب والتعابير وطلاوة تلوح على الاسلوب . وهي صفات كانت ثمرة الحياة في بغداد الى حد بعيد .

وهذه الملامح هي التي كتب لها أن تكون علما على الاجادة والابداع في الشعر العربي منذ ذلك العصر الى يومنا هذا



فهرس الآيـات القرآنية[1]

(١) رتبت الآيات القــرآنية حســب تسلسل ورودها في الكتاب .

★ قام بعمل هذه الفهارس عبدالرزاق احمد الحربي .

فهرس الاحاديث

فهرس الاعلام[1]

« حرف الالف »

« حرف الباء »

(١) تم حذف الالف واللام وابو وابن

« حرف الغين »

« حرف الفاء »

« حرف القاف »

« حرف الكاف »

« حرف اللام »

« حرف الميم »

« حرف النون »

« حرف الهاء »

« حرف الواو »

« حرف الياء »

* * *

فهرس المدن والاماكن[1]

(١) لم نذكر مدينة بغداد ، لان موضوعات الكتاب تدور حولها .

* * *

فهرس الكتب[1]

* * *

---

(١) لم نذكر اسماء الكتب الواردة في الهوامش .

فهرس الاغراض الشعرية

فهرس الاشعار[1]

« الهمزة »

« حرف الباء »

(١) ذكرت الابيات حسب تسلسل ورودها في الكتاب .

« حرف التاء »

« حرف النون »

« حرف الهاء »

التصحيحات[1]

الخطأ	السطر	الصفحة	الصواب
والماوك	١٩	١٥	والملوك
يختيشوع	١٨	٥١	بختيشوع
يدانوا	١١	٥٣	يدنوا
فقر بوهم	١	٥٥	فقربوهم
بل افتراء	٨	٧١	بل افتراه
من مثله	٨	٧٣	مثله
استاذا	١٩	٩٢	استاذا
ابن الاثمة	٣	١٠٨	ابن الأئمة
لتسك	١٧	١٠٩	لتمسك
اللذين	٢١	١١٢	الذين
ولاتتشلت	٢٠	١١٣	ولا انتشلت
وتأمروا	٢	١١٧	وتآمروا
بمحد	٤	١١٧	بمحمد
مخالفة	٣	١٢٧	مخافة
الطومي	٤	١٣٤	الطوسي
صوتاه	٩	١٣٩	صوتها
اكثرها	٢٠	١٣٩	اكثرها
يا للموالي	١٠	١٤٠	ما للموالي
كسبت	١٥	١٤٠	كسب

(١) حدثت اثناء الطبع بعض الاخطاءالتي لا تفوت القارىء الكريم وقد نبهنا الى بعضها .

الخطـــأ	السطر	الصفحة	الصواب
البطاحث	٨	١٤٤	الباحث
نشنات	٧	١٥٨	لشتات
اشاعتهاه	١٦	١٦١	اشاعتها(٢٥)
ريحة	٧	١٦٦	ربيحة
اوطانهم إ	٤	١٦٩	اوطانهم
كاان	٧	١٦٩	كان
االاسماع	١٠	١٨٢	الاسماع
فيه اا	١١	١٩٣	فيها
وعقائدها(٢٥) أ	١٥	٢٠٢	وعقائدها(٢٥)
بني	١٢	٢٠٤	بنى
بابي العتاهة	٨	٢٠٥	بابي العتاهية
وامر لم	١٠	٢٢١	وامر له
قصائه	٢٢	٢٦٨	قصائده
Pssed to	٢٢	٢٧٧	Passed to
يعجبهم	١١	٢٩٢	تعجبهم
الاعاريص	١٦	٣٠٨	الاعاريض
عرتنا	١٩	٣٢٣	غرتنا
سلبيا	١٥	٣٢٥	سليبا
القريض(١٠)	١٦	٣٢٧	القريض(١٩)
القريحة(١)	١٨	٣٢٧	القريحة(٢٠)
لمالا	١٠	٣٢٩	لما
الوعي	٧	٣٣٦	الوغى

المحتويــات

صفحة

الباب الاول

الباب الثــاني

صفحة

الباب الثالث

العوامل التي اثرت في الشعر ببغداد

عناصر الحياة السياسية

صفحة

الباب الـــرابع
الشعر بين القديم والجديد

صفحة

مظاهر التجديد

❁

٥ و٨١١
ج ٩٢٤ الجواري ، احمد عبدالستار
الشعر في بغداد حتـــى نهاية القــرن الثالث الهجري /
احمد عبدالســتار الجواري ـــ ط ٢ ـــ بغــداد : مطبعة
المجمع العلمي العراقي ، ١٩٩١ ١٦ ص ، ٢٤ سم
١ ـــ الشعر العربي ـــ العصر العباسي
آ : العنوان

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢٣ لسنة ١٩٩٢

ثمن النسخة (٦) دنانير